بغية الراغبين

في شرح

نَصيحة حمَّادِ بن أَلَمينْ

(1170 ـ 1256 هـ)

في البرّ والأدب ومكارم الأخلاق

تأليف الشيخ العلامة

إباَّهْ بن محمد عالي بن نِعْمَهْ

المجلسي الشنقيطي

بُغيةُ الرَّاغِبينْ

في شرح

نَصيحة حَمّادٍ بن أَمَينْ

(1170-1256 هـ)

في البر والأدب ومكارم الأخلاق

تأليف الفقير إلى الله تعالى:

ابَّاهْ بن محمد عالي بن نِعْمهْ

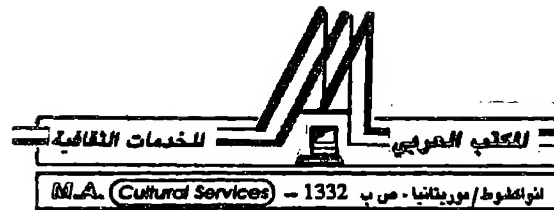
المجلسي الشنقيطي

وبهامشه:

تعليق للمؤلف وضعه تتميما للفائدة في تخريج الآيات القرآنية وأغلبية الأحاديث والآثار الواردة في الشرح، وشرح بعض المفردات اللغوية، والتعريف ببعض الأعلام المذكورة فيه.

الطبعة الأولى 1415 هـ

النشر والتوزيع:



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه أجمعين .. وبعد:

هذا أول شرح برز على منظومة العلامة الشيخ حمادٌ بن ألمين المجلسي الموريتاني. وهي منظومة مقتضبة في لفظها وحجمها، عظيمة في معناها ومغزاها، طالما لقّنها الآباء للأبناء ودرّب عليها الأكابر الناشئة.. لِما حوَت من جزيل التوجيه، وأودعَتْ من عظيم الإرشادِ ولطيف التنبيه..

والحق أن هذا الشرح الذي بين أيدينا هو، إضافةً الى ذلك، مَغنَمٌ نادرٌ وكنزٌ زاخر. ليس لجلالة مضمونه وجزالة لفظه فحسبُ؛ ولكنه فوق ذلك كتابٌ غيرُ عادي، من عدة وجوه، أولها: أن مُصنفَه ليس مُؤلّفاً ولا كاتباً عاديا.. بل هو عالِمٌ جليل مشتغلٌ بتدريس العلم وخدمة طلبته على رأس واحدةٍ من أعظم وأعرق المحاظر الموريتانية (محظرة «لفريوه» ـ التي هي امتداد لسلسلة محاظر آل أبي احمد المجلسيين).

ولم يكن من عادة ذلك الصنف من علمائنا ـ مع الأسف ـ أن يجدوا الوقت للتأليف، ولا الرغبة في التصنيف، الا في النادر العزيز. فيكون إذن حظا سعيدا لطلاب العلم ورواد المعرفة، وأبناء المسلمين عامة..أن يُصادفوا عملاً علميا مباشرا لهؤلاء العلماء المتبحرين في العلم حفظاً وعملاً وسلوكا..

وثانيها: أنه ـ حسب أصله المنظوم ـ خلاصةٌ نقية وصفوةٌ جامعة في الآداب الرفيعة، والأخلاق الحسنة، والعادات الحميدة، والتقاليد النبيلة ـ بأسمى المقاييس الشرعية والإنسانية ـ لما ينبغي أن يكون سلوك الفردِ في نفسه، وعلاقاته في أسرته ومجتمعه؛ على نحوٍ مبسط ومقربٍ من الواقع، مستمدٍ من الأدلة والأحكام الشرعية، والحِكَم والأقوال المأثورة؛ مستندٍ على القدوةِ الحسنة والأثارةِ التاريخية الحية..

أما مبناه أو منهجه فجاء تماماً على الذي تقدم: جزل اللغة فصيحها، على سهولة في الأسلوب، وتدرج في التوضيح: من شرح مفردات النظم وتفسير معانيه مجملةً، إلى البَسط من ثم والتفصيلِ في تلك المعاني والمقاصد والاستدراج السلِس الى مادلّ عليها من النصوص والآثار الشرعية والأقوال المأثورةِ والأشعار المختارة.. مع تنبيهات ووقفات واستطراد.. عند معانٍ معينة مختصرة في النظم، أو زائدةٍ عليه ومرتبطة به؛ فضلا عن التعليقات والحواشي اللطيفة في توضيح المعاني والألفاظ وتعريف الأعلام وتخريج الآيات والأحاديث... زد على كل هذا مقدمةٌ وافية في التعريف بالناظِم وأسرته وقبيلته ومكانتِها العلية وتاريخِها العريق...

ولقد غلب المؤلف "اسلوب الإستدلال" المأثور لديهم في التأليف وهو التجردُ وعرض الرأي والفكرة من خلال الدليل النصي عليها من الشرع أو أقوالِ المتقدمين المعتبرين والشعراءِ المُجيدين؛ مع ما له من ميلٍ واضحٍ وتذوقٍ معرفي للأدب، ولاسيما للشعر الذي احتلّ من المتن أكثره. لكنه توسع ـ في الشعر ـ تَحلى بالتنوُعِ، وبإحكامٍ في الاختصار تجسَّدَ في انتقاء المتيمز البليغ، واصطفاءِ المفيدِ موضعَ الاستشهاد؛ دون استغراقٍ في مطوّلاته ولا استسلامٍ لتياراته..

فكان، كما وصفه هو نفسُه بحق: "أخذ من موسوعية وعمق التصانيف القديمة ودقة وتحقيق التآليف الحديثة"، وإن شئت قل: موسوعة علمية وأدبية واجتماعية جامعة، على اعتبار ما تضمن من علوم ومعارف وتوجيه.. وتحفة لطيفة، بالنظر لما طبعه من إيجاز وتبسيط.

ومنتهى القول أنه أوضح معاني نصيحة حمادنْ، وكشف ما تضمنته أبياتها الوجيزة، وبسط ما طوته ألفاظها البليغة.. فجاء - بحمد الله - هذا الكتاب منهاجاً للناشئين والراشدين ودليلاً للمُرَبين والمتعلمين ومَرجعاً فريداً للمرشدين، وزاداً وافراً للواعظين المصلحين في كل مجتمع اسلامي.

وهناك أمر آخر لا أستطيع - إخلاصاً للقارئ - إلا أن أذكره وأسجله على ذمتي: وحسبَ ما علمتُ وخبرتُ، وهو أن المؤلف - حفظه الله وأيّده - ما كان غريباً على موضوع كتابه ولا متطفلا على ميدانه.. وإنما كان منذ نشأ منتصحاً بما نصح، متخلقاً به فعلاً لا زعماً. ما رأيت في أصل نصيحة جَده (حمادٌ) ولا في فرعٍ شرحه هو، أمراً الا كان مؤتمِراً به ولا نهياً الا منتهياً عنه، ولا فضيلةً وكريمَ خُلقٍ الا وهو سجية أصيلة فيه. ولذا لا غرابة أن يأتي كتابه سهلا عذباً لا فيه تَكلّفٌ ولا تزلفٌ.. فهو سيرةٌ له قبل أن يكون تأليفا وتبصرةً للآخرين...

فاللهَ نسأله أن يهدي قارئه ويحفظَ في العزةِ والعافيةِ مؤلفَه ويجزيه أحسن الجزاء ويُضاعفَ له الثوابَ على ما بذل فيه وفي غيره ويديمَ النفعَ بهما للمسلمين، وأن يغفر ذنوبنا ويوفقَنا لخير الدنيا والآخرة. وصلى الله وسلم على محمد خاتم النبيئين الهادي للحق المبين وعلى آله وصحبه أجمعين.

التعريف بالمؤلف:

هو العلامة الشيخ: محمد يحظيه، الملقب «ابَاهْ» بن محمد عالي بن محمذفال بن محمد بن نعم العبد بن المصطفى(بُوفميْن) بن حبيب الله (ابي أحمد)، الذي يلتقي فيه نسبُه مع الناظم. يشتهر بلقبه (اباه) وهو لقبُ عالِم موريتانيا الكبير: يحظيــه بــن عبد الودود، شيخ والده الذي سماه باسمه.

والده هو العلامة المتبحر: محمد عالي بن نعمَ الملقب «ابُوهْ»، من أكبر وأجَلّ علماء عصره ومنطقته، إليه تنتهي المسائل، ونحوه يَتسابق طلابُ العلم عامة، لا سيما الراغبون في الدراسات العالية المعمقةِ في شتى علوم الفقه وفنونِ اللغة العربية والعقائد وغيرها..

كما كان ـ رحمه الله ـ زعيماً سياسيا محنكاً وقائدا مَرجعاً في السيادة والريادة في قبيلته ، وقمةٌ في الكرم والمروءةِ في المنطقة كلها.

أما والدته ـ حفظها الله ـ فهي الحافظة القانتةُ: أم الخيرِ بنت دمَّدْ. والدها هوالعلامة: سيدأحمد (الملقب دَمّد) بن أحمد محمود بن السعيدِ المجلسي، كان من أكبر علماء وسادة عصره رحمه الله.

في حضن هذه الأسرة الكريمة، ذاتِ المكانةِ العَلية علماً وحسبا ونسباً، وُلد المؤلف بنواحي «لفريوه»[*] بدائرة اقليم "ترارزه"، ليلة الثلاثاء فاتح ذي القعدة سنة ١٣٦٦هـ الموافق: ١٦/٩/١٩٤٧م. ونشأ وتربى، خير ما تكون التربية، متعلما متأدباً، حيث حفظ القرآن الكريم على يد والدته الفاضلة وعَرضَه على بعض كبار تلامذة والده

(*) قرية تبعد حوالي 70 كلم جنوب شرق انواكشوط، عاصمة موريتانيا.

المقرئين.... ثم التحق نهائياً ـ ولمّا يزل طفلا ـ بمدرسة والده العامرة بالعلماء والطلابِ من شتى البقاع، وبدأ بدراسة اللغةِ العربية والشعر مُتدرجاً من قصيدة كعب بن زهير: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ».. الى ديوان الشعراء الستةِ الجاهليين . ثم درَس مجموعةً من المتون الابتدائية والمتوسطةِ في العقائد والفقه والنحو والصرف .. قبل أن ينتقل للدراسة المعمقةِ لكبريات المتون والنصوصِ المعتمدةِ في المحظرة كإضاءة الدجنة في علم الكلام وسُلّم الأخضري في المنطق ولاميّةِ الأفعال في التصريف وجامعِ ألفيةِ ابنِ مالك وابنِ بونا الجكني في النحو والصرف وعلومهما، ومختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي.. وغير ذلك من مختلف النصوصِ والمناهج التي كانت تُدرّس في أمهاتِ المحاظر بالبلاد الشنقيطية.

ومع ما عرف عنه مبكراً من ذكاء وفهم واستيعاب لهذه العلوم وغيرها، واصَل الجِد في الدراسة وحضورَ دروس والده المتنوعة، التي كانت في كثير من الأحيان تتواصل من الفجر الى ما بعد الظلام، والمذاكرةَ مع الطلاب. وربما خلَف الشيخ في التدريس في حال عذره.. حتى أجازه إجازةً مطلقة في المنقول والمعقول سنة ١٣٩٣هـ، ثم أسند إليه الشيخ مهمة التدريس رسميا في المحظرة، حيث تفرغ هو للعبادة في آخر عمره حتى وفاته رحمه الله سنة ١٩٨٩م.

كما سَمع المؤلف من العلامة الجليل الشيخ محمد يحيى بن الشيخ الحسين الجكني رحمه الله وعَرض عليه بعضَ النصوص التي لم تكن متداولةً في محاظر المنطقة.

وقد واصل ادارةَ المحظرة والتدريسَ فيها وطوّر مناهجها واسلوبَها تطويراً ملحوظا، في الوقت الذي قام فيه خير القيام بالمهام العلمية والسياسية والاجتماعية من بعد والده. ورغمَ تلك المشاغل والأعباء الجمة فإنه يُكرس ـ حفظه الله ـ جُلّ الوقت والجهد

لمهمة التدريس في المحظرة وفي المسجد، مع قدر من الاهتمام بالكتابة. وله تقاييد هامة في عدة مواضيع علميةٍ وتاريخيةٍ، بعضُها لم يكتمل بعد.

وكان الشيخ اباه قد انتخبَته جماعةُ الحَل والعَقد في قبيلته: آل أبي أحمد المجلسيين رئيساً عليهم، بعد الرّزية الكبرى والمصابِ الأليم لهذه الجماعة، وللمنطقة كلها، في وفاة قائدهم الكبير: أخيه الأكبر المغفور له/ محمدُّو بن محمد عالي سنة ١٩٧٩م، فقام بعده بعبْء سياساتهم العامة وحِفظِ وحدتهم واتفاقِ كلمتهم وصَون سُمعتهم الحسنةِ وعلاقتهم الطيبة مع الجميع؛ وذلك بمساعدة شقيقه الاستاذ الفاضل والسيد الكريم: لمرابط «ولد متالي» علماً - أطال الله بقاءه - وكذا أخوتهما الأكارم الأفاضل بارك الله فيهم ووفقهم. امين.

الناشر:

محمد محفوظ بن أحمد

دبي: ١٤١٤/١٠/١٣ هـ

مقدمة في التعريف بالكتاب

١- التعريف بالنظم ومحتوياته:

تعتبر ارجوزة الشيخ حماد بن ألمين في البرّ والأدب ومكارم الأخلاق من أبرز النصائح العلمية لأهمية موضوعها، وجودة وجزالة الفاظها. فهي - من حيث الشكل - نصيحة قيمة راقية رائقة قصيرة قصرًا غير مخلّ، وشاملة مع اختصارها؛ فهي لا تتجاوز ستة وثلاثين بيتاً بحيث أصبح باستطاعة كل إنسان أن يحفظها، إذ لم تكن من المطولات التى تنفر منها النفوس، وتقصر عنها الهمم؛ ومن حيث الأسلوب فإن اسلوبها أدبي جميل خالٍ من التكلف والحشو والتتميم مع سلامة وعذوبة الفاظها؛ ومن حيث المضمون فقد تناولت الكثير من مكارم الأخلاق ونفائس الأعْلاق . فقد حثّ الناظم فيها على مكارم الأخلاق وإخلاص النية في الأعمال، وعلى الأدب وبرّ الوالدين والأقارب، وعلى برّ المشائخ وتعظيمهم، وعلى توقير الكبير ورحمة الصغير، وعلى التصامم عن الخنى والانتباه للخير، وعلى ترك ما يخل بالمروءة؛ ونَهَى عن سوء الخلق والفُحش والمناقشة على الحقير...

وحثّ على التحلي بفضيلة الصبر مع التنبيه على صعوبته والترغيب في عاقبته المحمودة، والتحلي بفضيلة الحلم ورغّب فيه ، وعلى العلم ونبّه على انه افضل ما يقتنيه الإنسان ويقتفي سبيل أهله ، وعلى الصبر على الأذى والإغتراب، في سبيل تحصيله.. وذكر بعض آداب الضيافة ، وحث على التواضع والإجْمال في طلب الدنيا وعدم التأسف على فواتها ، والتكسب بالحلال، وبذل المال سخاء، وصرفه في الحقوق الشرعية بلا تقتير ولا تبذير...

كل هذا بالإضافة الى ما اشتملت عليه النصيحة من الإشارات الفريدة والتضمينات البديعة للآيات والأحاديث والآثار والأشعار والأمثال ...

وبالجملة فهي من غُرر النصوص التهذيبية ذات المكانة العلية في الشريعة الإسلامية وآدابها العربية المخلدة ....

٢- التعريف بالشرح ومحتوياته:

لقد جاء هذا الشرح ـ الذي لا أدعي سلامته من الخطإ والتقصير ـ فأوضح مفردات هذه الأرجوزة، وأظهر بعض مخبئاتها، وجلب النصوص التي أشارت إليها، وعرّف بأصحابها حتى صارت في متناول الجميع ـ كما تناول بإسهاب ـ الكثير من أشتات العلوم الشرعية والمباحث العلمية، والآداب القيمة وجلب لها الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة والنصوص الأدبية. وقد اشتمل على كثير من المواضيع بادئاً بالتعريف بالناظم؛ ثم عرّف البرّ ومكارم الأخلاق وما ورد فيها، والنصح وأصله وحكمه وثمرته.. وحقيقة الإخلاص في العمل .. وحذّر من الرياء والنفاق ؛ ثم عرّف الأدب وأنواعه وفنونه وأقسامه ، ونبّه على أن الشعر من أهم عناصر الأدب وأنه الوثيقة الخالدة، وذكَر بعضَ ماقيل فيه وفي الحض على تعلمه وحفظه...

وفصّل في برّ الوالدين والأقارب واكرام اهل العلم .. وأنذر من العقوق وذكَر بعض مافيه من الوعيد؛ وحضّ على معاملة ذوي القرابة بالبر والإحسان، وقبول الإحسان منهم، والتغاضي عن زلاتهم؛ ومواساة الناس والتعفف عما بأيديهم، وكف الأذى عنهم .. وتوقير الكبير وتكرمته ، ورحمة الصغير والشفقة عليه؛ وعلى رحمة الخلق أجمعين، وعلى معاملة الموالي وسائرالخلق بالإحسان والرفق ولين الجانب؛ ونهى عن سوء الخلق والفحش والبخل؛ وأمر بفضائل ءاداب المجلس وحثّ عليها. ثم عرّف بالصبر وأنواعه، ورغّب في عاقبته المحمودة. وبيّن آداب الضيافة وأحكامها وحقوق الضيف ومايجب له من الإكرام.. وأورد مباحث في الفخر بالآباء والأخوال ، وأخرى في الفخر بالعظامية والعصامية .. ثم عرّف بالعلم وفضله واقسامه وحكم ومراتب طلبه ، وبيّن العلم النافع من غيره، وحذّر من خطر الجهل وعدم العمل بالعلم ..

ثم عرف بالحِلم وحثّ عليه، وابرز ثمرة التخلق بـه ..ثم ذكَر حكم التكسب والحثّ على العمل والإجمال في الطلب وتحري طلب الحلال ، وحذّر من الحرام والشُبَه ، وبيّن الحلال والحرام والمشتبه من الكسب .. ثم صَرْف المال في مصارفه الشرعية وأوجه الإنفاق، والفرق بين الاقتصاد والتبذير والتقتير. ودعا للسخاء والجود والزهد في الدنيا ، واصطناع المعروف ، وعرّف بالشكر ورغّب فيه ؛ ونهى عن البخل، وعن المنّ والأذى وعرّفهما.. وبيّن أحكام السؤال وماورد في ذمه ...

كل ذلك بالإضافة الى ما اشتمل عليه الشرح من ذخائر الحِكَم والأمثال وروائع الأشعار.. ببحث علمي دقيق وأسلوب فني أنيق. وقد أخذ موسوعية وعُمق التصانيف القديمة، ودقة وتحقيق التآليف الحديثة بتنظم يضفي على هذه الوصية طابعاً عصريا يلبسها ثوبا قشيباً تظهر من خلاله ناصعة جميلة.*

فلله الحمد ربِّ السموات والأرض ربِّ العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

حرر في غرة جمادى الأخيرة سنة ١٤١٤ هـ/موافق ١٦ نوفمبر عام ١٩٩٣ م.

المؤلف

* ملاحظة: اعتمدالمؤلف فى ترقيم الآي على العد المدني، وفي القراءة على قراءة الامام نافع. {الناشر}

بســـــم الله الرحمن الرحيـــــم

وصلى الله على نبيه الكريم وعلى آله وأصحابه

الحمدلله الذى خلق الانسان، وعلمه البيان، وشرح صدر من تأدب ، ورفع قدر من تأهل للعلم وتأهب. نحمده تعالى ونشكره إذ منّ علينا بجزيل الإنعام، وأتحَفنا بما لانطيق شكره من أياديه الجِسام ؛ وخصّنا بخيرته من خلقه على الإطلاق، القائل : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] وأدبه حتى صار أكرمَ المؤدبين بقوله عز وجل: ﴿خُذ العَفو وامرْ بالعُرف وأعرض عَن الجاهلين﴾[2].

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، شهادة أنال بها رضى الرب الكريم؛ وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، من له الأدب العميم، والفضل الجسيم، الذي نزل فيه : ﴿وإنك لَعلى خُلق ٍ عَظِيم﴾[3]، صلى عليه افضل الصلاة وأكمل التسليم.

أما بعد: فيقول العبد الفقير الى رحمة ربه القدير: *محمد يحظيه بن محمد عالِ بن محمذفال بن محمد بن نعم العبد، المجلسي ثم الأحمدي*، غفر الله ذنوبه، وسَتَرفي الدارين عيوبه، هو ووالديه وأحبّته وجميع المسلمين. امين:

لايخفي أن العِلم هو أشرف عِلـقٍ[4] يُقتنى، وأجلُّ ذخر به يُعتنى، وأربح مَتْجَر يُثابَرعليه، وأشمخ مفخر يُبادَرإليه؛ والإشتغال به من أشرف المكاسب، والإعتناء به من أفضل المراتِب. ومن أشرف العلم ـ وإن كثرت أنواعُه، وتباينتْ أنحاؤه ـ علِمُ البِرِّ

---

(١) حديث:بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث ابي هريرة.

(٢) الأعراف: الآية ١٩٩.

(٣) القلم: الآية ٤.

(٤) العلق ـ بالكسر: النفيس من كل شيئ . سمي علقا لتعلق القلب به، جمعه أعلاق، وعلوق.

والأدَب، الكفيل من علوم الشريعة المحمّدية بغاية الأرب؛ لايَختلف في فضله وشرفه اثنان، وهوفَنٌ كثير الفروع والأغْصان؛ ولا يمكن الوصول الى الغاية الا بمعرفته، والمرور على طريقته؛ فهو الهادي الى الصّراط المستقيم والسَّببُ في الظَّفَر بالنعيم المقيم.

ومن أجَلِّ ما أُلّف فيه من المُختصَرات : أرجوزة العلامة حماد بن ألمين، المجلسي الذي هو بكل فضل قمين. فقد أفرغ فيها كِنانة الأدب، وحثّ فيها على مكارم الأخلاق وحسن السلوك، فتضمنت من ضُروب البرِّ والإحسان ومكارم الأخلاق مايروق عند العيان، ويزري باللؤلؤ والمرجان؛ فلله درُّ ناظمها الذي جمع فأوعى، فأجاد وضعاً وأحسن صنعا.

وقد عنَّ لي أن أكتب عليها تعليقاً يُشير الى بعض مايستنبط منها.ثم طلب مني بعضُ الاخوان أن أضع عليها شرحاً يَكشف عنها النقاب، ويُزيح عنها الجلباب. فاستجبت لتلك الرغبة ولذلك الطلب حسب الامكان، مع اعترافي بالقصور ولاسيما في هذا الميدان ؛ محاولاً التعليقَ عليها، وإيضاحَ إشاراتها؛ متوخياً التوسط بين التقصير المخلّ، والتطويل الملِّ ، وإن كانت حَريةً بالتطويل والإسهاب، لما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق والآداب.وسميته:

«بغية الراغبين في شرح نصيحة حمّاد بن ألمين»

وليكن الناظرُ فيه على علم قبل النقد عليَّ أو الطعن فيه أني أعترف بأنه ليس لي في هذا التعليق فضيلةٌ أمُتُّ بها، ولا وسيلةٌ أتمسّك بها، سوى الجمع والتَّرتيب، والتنظيم والتقريب، لِما تفرّقَ في كُتبٍ عديدةٍ ومباحث كثيرة، وقد كَفَيْته كثيراً من البحث والطّلب، والعَناء والتعب. وأرى أن لي العُذر بكوني لم أجد لهذه المنظومة

أيَّ شرحٍ يُنير الطَّـريقَ أمامـي .

واللهَ الكريمَ أسألُ أن يَعصمني من الزَّلل، ويوفقني في القول والعمل؛ وأن يجعل هذا التعليق خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً في الفوز بالنعيم المُقيم، وأن ينفع به كما نفع بأصله، بجاه سيِّدنا ومولانا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما.

وقبل الشروع في المقصود أفتتحه بكلمة في التعريف بالناظم رحمه الله. فاقول وبالله التوفيق:

التعريف بالشيخ:

حماد بن ألمين بن محمدا المجلسي[1]

إن الاعتماد على الذاكرة والرواية الشفهية دون الكتابة يجعل المعرفة بالتاريخ محدودةً ، وبالتالي يُعرض المعارف للزوال. فالكتابة لا غنى عنها في ضبط وحفظ المعارف وتخليدها مجردة عن الإنسان الفرد. وزيادة على ذلك فان قبيلة المترجَم هنا كانت على جانب كبير من التواضع أو - على الأصح - نكران الذات، بحيث أن الكثير من علمائها يُفضلون نشر العلم بواسطة الدراسة الشفهية دون التأليف، ولا يَعتنون بتاريخها فضلاً عن تسجيله. بل ان كل الشخصيات يتحرّز ذووها عن الكتابة عنها تواضعاً منهم؛ لذلك ضاع الكثير من انتاجها فضلا عن المعلومات عنها. واذا كان بعض الأفراد - وقليل ماهُم - قد اهتمّ بتقييد بعض المعلومات فان جُلّ ذلك قد ضاع فيما ضاع من التراث الموريتاني نتيجة لما ذكرنا، إضافة الى العوامل الطبيعية لِمجتمع بدوي رحّل يعيش في أكثر أحواله في ظروفٍ صعبة: في جو مِلؤه الفوضى والإضطراب.

ورغم شهرة هذه القبيلة بالعِلم منذ كان أولها فان عدم كتابة التاريخ - كما هو الشأن الغالب في الموريتانيين، اعتمادا منهم على الحافظة - قد قضى على ذكر وتاريخ كثير من شخصيات هـذه القبيلة العلميـة.

ومن تلك الشخصيات فضيلة الشيخ: حماد بن ألمين، فانه لم تكتب عنه - حسب علمي - ترجمة، بل ولا أية معلومات حتى الآن، سوى ترجمة مقتضبة كتبها عنه أحمد

---

(١) اعتمدنا في هذه الكلمة التي كتبنا عن الشيخ حماد اولا على ما كتبه عنه اخونا محمد يحيى بن سيداحمد المجلسي ثم على بعض المعلومات التي تلقيناها شفهيا من بعض مشائخ قبيلة المترجَم من أحفاده وبني عمومته.

بن الأمين صاحب «الوسيط»، واخرى كذلك كتبها عنه المؤرخ الكبير: المختار بن حامد في موسوعته التاريخية. وقد ضاعت الروايات الشفهية غير المكتوبة بموت رواتها نتيجة لما قدمنا. واضافة الى ما ذكرنا مما كانت عليه أسْرة هذه الشخصية من نكران الذات والتواضع لذلك لم نجد نصّاً في تاريخ مولده ولا وفاته يحددهما. ولكننا من خلال مقارنات ما انتشلنا من بقايا الروايات الشفهية، سنحاول تقديم عرض موجز عن التعريف به إن شاء الله.

اسرته التي ينتمي اليها:

تتألف أسرة الشيخ حماد بن ألمين التي ينحدر منها من أبٍ وأمّ وثلاثة بنين وخمس بَنات. وقد اشتهرت هذه الأسرة بالعزّ والفضل؛ فقد اشتهرأحد أخوته بالسيادة، والآخر بالعِلم والعِبادة. أما والده الأمين بن محمدا فقد اشتهر بالعلم والكرم والفتوّة والسيادة، وكان عزيزا ساميَ النفس، وكان من بين اخوته الذين اشتهروا بالعلم والفضل حتى ضُرب المثل بنَجابةِ أمهم.

ومن المؤكد أنهم تلقّوا جُلّ دراستهم في محظرة[1] قبيلتهم المجلسية الأحمدية التي بلغت أوجها وازدهرت على يَدِ عميدها محمداً بن حبيب الله والدهم، والتي كانت تُعتبر امتداداً وتوسعاً معرفيا لمحظرة والده حبيب الله أبي أحمد بن أحمد بن مَحنضْ، والتي تخرج منها على يَد محمدا ـ عميدها المتقدم ـ العديدُ من العلماء، ونَهَل من مَعينها الكثير من الأجلاء كالمختار بن بونه الجَكني، وعبد الله بن سيد محمود الحاجي وغيرهما. كما ازدهرت في عهد بنيه وأحفاده.

---

(١) المحظرة : هي المدرسة الاهلية التقليدية التي ظل عليها عماد التعليم في موريتانيا.

مـــولـــده :

في هذا الجـو العلمي المزدهر، ومن هذه الأسرة العلمـيـة السَّخيـة وُلد حـمـاد بن ألمين، وترعْرعَ وشَبَّ في هذا المجـتمع والوسَط العِلميين، والجو المَلْوء بأنواع المعارف الإسـلامـيـة من أدب وتاريخ وسـيـرة ... وُلد حـوالي سـبعين ومـائة وألف (١١٧٠) هجـرية ـ الموافق ١٧٥٧م ـ ونشـأ في أسـرة تتنقـل من جنوب بلاد القـبْلة الى شـمـال «الصحراء الغربية».

نسبـــه :

هـو الشيخ حماد* بن ألمين بن محمدا ـ بالف ٍ ءاخرَه ـ بن حبيب الله (أبي أحمد) بن أحمد بن محنْضْ (محمد) بن أبْيالْ (يحيى) بن ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن باذل بن أكْ (اكْتَـوَشْنِ) ـ ومعناه العالم. وفي بعض الروايات أن أكْ بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ابراهيم الأمـوي. وابراهيم هذا هو الجَـد الجامع لقـبـيلة المجلس** ، قـاضي أبي بكر بن عـمـر اللمتـوني ؛ وهو من ذرية الإمـام العـادل : عـمـر بن عـبـد العـزيز بن مـروان رضي الله عنـــه . أمـا أمُّ الشـيخ حـمـاد فـهي عـائشـة بنت الأديب (عَلَماً) اليعقوبية منءال الفغ المختار.

دراستـه وأشيـاخـه :

بماذكرنا سابقاً لم نتمكن من مراحله التعلمية، ولا كيف تلقى دراسته الا أنه من المؤكد ـ حسبما أملتْه علينا المصادر الشفهية ـ انه تلقى دراسته في أسرته العلمية. فمن الطبْعي أن يكون قد أخذ عن أبيه وأعمَامِه، وخصوصاً منهم أحمد البدَوي . فقد

* ينطق اسمه ـ حماد ـ بنون تنوين ظاهرة، وقد تثبت كتابة دون اختصار مثل: حمادن أو حمادٍ - (الناشر).

** تعرف الآن بالإسم الدارج «المدلْش». (الناشر)

اشتهر عندنا أنه كان شيخَه الأكبر، كما كان حماد تلميذَ البدوي الأبر، وكما نصّ عليه حماد نفسُه بضع عشرة مرّة في شَرْحَيْه لنظميْ «الغزَوات» و«الأنْساب» مثل قوله في شرح الغزوات: *"فامتثال أمر الشيخ - لاسيما مع الأبوّة - يرجي* .."الخ [1]. وقوله أيضا في التعليق على آخركلمة من النظم المذكور: *"قلت للشيخ : هلا جعلتَ مكان قولك :‹فاعتن›* .." الخ.

ويؤكد لنا أنه أخذ عنه بنصه على السماع منه حيث يقول عند شرح قول البدوي [2] ‹مِنْ عَهد نُوح مِا خَلت الأرْضُ مِنْ› الخ.. يقول حماد: *"وسمعتُه رحمه الله يقول : انه أخذه من «الخصائص الكبرى» للسيوطي* ".

وقد روت لنا الحكاياتُ الشفهيّة أنه كان يحضره لما ينظم ويعْرضُه عليه، حتى قيل ان حماد كان يقول للبدوي: انظم وأنا أحفظ وأشرح ذلك ، إن شاء الله تعالى .

هكذا كان هؤلاء من بين مَن أخذ عنهم حماد، مع ما أوتِي من موهبة ومطالعة فقد كان مُعتَنياً بجمع الكتُب ومطالعَتِها الى أقصى درجة.

<u>مستواه العلمي :</u>

لقد حصل حماد بن ألمين في دراسته على مستوىً عالٍ من المعرفة بسائر العلوم الشرعية وآلاتها، لاسيما علم السيرة والأدب، وخصوصاً أنساب العرب، وقد كان له فيهما اليد الطولى . ومَن نظر شرحيْه للغزوات والأنساب بإنصافٍ عَلِم صحةَ هذا؛ فهو رغم تواضعه ونكرانه لذاته، يأبى له علمُه الا أن يُبرز شخصيته العلمية،

---

(١) الصفحة الأولى - (مخطوط).

(٢) نظم عمود النسب للعلامة أحمد البدوي بن محمداً بشرح معظمه للشيخ حماد بن ألمين - مخطوط - وطبع سنة ١٩٨٥م من طرف ادارة احياء التراث الاسلامي بقطر تحت عنوان "تحفة الألباب شرح الأنساب".

ومكانَته العَليّة من خلال الشرحيْن المذكوريْن، في ملاحظاته القيِّمة؛ فيتعقّبُ ويُبين بعضَ الأخطاء، ويُصحّحُ ويتحرى في النقل ، ويرفض بعض الكتب، أو يتوقف في النقل عنه مع التّنْكيت على المسائل الفقهية، تارة بشكل شخصي وتارة بنقل عن غيره .وقد شهد له أحمد بن الامين الشنقيطي، صاحب «الوسيط» في كلمة كتبهاعنه حيث يقول :" *هو العالم المتفنّنُ، اللُّغَوي المُتقِن، اشتهر بفضله . وقد أجاد في شرحه لنظميْ البدَوي* ". كما شهد له به وكتبه عنه المؤرخُ الكبير: المختار بن حامدٌ في موسوعته التاريخية حيث يقول :" *أما حماد بن ألمين فهو العلامة النحْرير، والنّسابة الشهير، أخذ العلِمّ عن عمه أحمد البدوي، وعن غيره من علماء عصره...*" الى أن قال:" *وكانت له اليد الطولى في علم السيرة وأنساب العرب، وله معرفة جيدة بسائر العلوم الشرعية. ومَن نظر شرحيْه لنظم الغزوات والأنساب عَلِم تبحُّره في السيرة وأنساب العرب ...*" الخ.

هذا وقد روينا عمن نثق به أنه رحمه الله كان عالِماً ورعاً زاهِداً عابداً سخياً ، مولعاً بالكُتُب، مشتغلا بمطالعتها الى اقصى غاية. وقد قام بعدة رحلات في جمع الكتُب والبحث عنها، وصل في بعضها الى «تافِلالتْ» من أرض المغرب بحثا عن الكتب، وقد جاء منها بما أمكنه. وقدكان يحمله على ناقةٍ لبعض بني عمومته كان مصاحبا له في ذلك السفر. والله سبحانه وتعالى أعلم .

علاقته بالمجتمع و مواقفه العلمية:

كانت قبيلةُ حماد بن ألمين المجلسية من أبرز قبائل الزوايا في المنطقة التي تُعرف حاليا بـ«ولاية اترارزه»، وكانت هذه القبيلة محترمة مِن طرف أمَرائها(*)، فكان بينها

(*) يقصد امراء إمارة ترارزه التي يطلق اسمها اداريا على المنطقة الآن. {الناشر}

وبيهم الإحترام المتبادل، ومع ذلك فقدكانوا يتحفظون من مُخالطتهم كغيرهم من حسّان.

أمابالنسبة لقبائل الزوايا فقد كانوا ـ أيضا ـ موضع التقدير والاحترام المتبادل؛ كما كانَ المترجَم ، وسائرُ علماء وادباء قبيلته، موضع الاحترام بين علماء وادباء عصره. ولم يشاركوا في الصراعات الكلامية التي كانت تدور بين الفَيْنة والأخرى في ذلك العصر، ولم يشاركوا طرفاً معينا ، بل كانوا يلتزمون الحياد كما كان عليه سلَفُهم. ومن أحسن ما يُمثل لنا ذلك قول محمدا بن أبي احمد ـ جد المترْجَم ـ يحدد موقفه من بعض الصراعات التي جرت بين بعض معاصريه، وقد طلب منه البعضُ النصرةَ، فقال :

وقائلةٍ عند اشتِعالِ المَفارِقِ قتيراً [1]: أَلَسْتُمْ مِنْ حُماةِ الحَقائق؟
فقلتُ لها تُرْسِي عتِيدٌ وصَارِمِي غِراراهُ مشْحُوذان سهلُ المدالِقِ [2]
وعنديَّ مِن حَوكِ القَريضِ بَلاغَةٌ تُرى عندها الهُدَّارُ خُرْس الشَّقاشِقِ [3]
وذا مَشْهدٍ نَهْنَهْتُ عنه يَراعَتي وحِبْري [4] وصَولات القَريضِ الموافقِ
رجاءً لعَفْوِ اللهِ جَلَّ جَلالُه إذا وُضِعَ الكرْسي لفَصل الخَلائق

واذا نظرنا في هذا الحياد فاننا نجد له ايجابياته، ومن بينها الاحترام والتقدير

(١) القتير: الشيب، او أول ما يظهر منه.

(٢) الترس بالضم: صفحة تحمل للوقاية من السيف ونحوه؛ والعتيد: الحاضر المهيأ؛ والصارم : السيف القاطع ؛ والغرار بالكسر: حدّ السيف ؛ والمشحوذ: المحدد؛ وسهل المدالق: أي الخروج من غمده.

(٣) هدر البعير: صوّت في غير شقشقة ؛ والشقشقة: شيئ كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج.

(٤) اليراعة: واحدة اليراع وهو قصب تُبرى منه الأقلام، أي قلمي ؛ وحبرى : اي مدادى الذى اكتب به.

اللذان يُنظَر بهما الى هـذه القبيلة، والثقـة التي يَضعـها فيها الجميعُ.ومن سلبيـاته ـ خصوصا بالنسبة للمستقبل ـ ضياع الانتاج المؤدي للشهرة، والذي يُثير تحديد الموقف وتَبريره، سواء كان نظما أو نثرا، كما يُنظَر الى هذا الحياد وما يمكن أن يُفسَّربه من نكران الذات، وإحجامٍ عن الشهـرة بأنه الثمن الذي دفـعه قـادة القبـيلة للمكانة المحترمة التي حازتها لدى الجميع .

اسرته التي تنتـمي إليه :

ترك حماد بن ألمين أربعة بنين وبنتا، وهم : سيدأحمد، وحبيب الله؛ امهما بنت النبى (عَلَماً) بنت لِمام بن محمدا بن ابي احمد، مـن بنات عمه، ومحمد المـؤمن ؛ امه أم الخير بنت الشيخ بن لمام(*) بن محمدا من بنات عمومته ايضا، وعبد الله المسْلم، والمومنة؛ امهما أم الخير بنت احمد بن الناجم المجلسية. وكان كل افراد اسرته الطيبة ما بين سيد عالم، وأديب قارئ، وعابد صالح .

وكـانت كـغيـرها من سـائر أُسَرِ قـبيلتـه اسرةً بدوية غنيـة بالثـروة الحيـوانيـة (المواشي): الإبل، وهي اكثر مواشيهم، ثم البقَر ثم الغَنم، وكانوا ـ غالباً ـ يرحلون في فصل الربيع الى اقصى تيرس (الصحراء الغربية) ويقيمون بقية الفصول الأخرى في جنوب البـلاد، أي في وسط ولاية اترارزه في أمـاكن مـتـقـاربة مـثل «اتيـمشْ» و«المَعْزَل» و«إدينِ» و«انْتفاشِيتْ» و«تنيخـيى»، و«تارگـه» وضـواحيـها. وكـان كل افراد الاسرتين ، التي تنتمي اليه وينتمي اليها، محفوظة المَـدافـن.

(*) اعتمد الشارح ـ محقا ـ كتابة الأسماء والأعلام عموما، كما تنطق محليا وإن كانت فصيحة فى الأصل .. مثل «لِمام» في (الإمام) و«ألمين» في (الأمين) وسيد في «سيدي» وهكذا.. واختلت هذه القاعدة فقط في ضبطه اسم الناظم الذي ينطق «حمادن ». [الناشر]

وفاتـــه ـ رحمه الله ـ

ثم لم يزل حماد بن المين ـ رحمه الله ـ يواصل بثه للعلم وتقييداته النفيسة، ورحلته التأليفية حتى انتقل الى رحمة الله وهو في اثناء الشرح الذي يقوم بوضعه على نظم عمود النسب ، وكان ذلك بعد منتصف القرن الثالثَ عشر الهجري، حوالي سنة ١٢٥٦ـ (ست وخمسين ومائتين والف) هجرية، عن عمر يناهز بضعاً وثمانين سنة[١]. ودُفِن شرقي «إدينِ» بموضع يسمى «تجنت» بكسر التاء وفتح الجيم وسكون النون والتاء، موضع من اعمال مركز وادي الناقة الاداري حاليا، مع زمرة من حَيِّه رحمهم الله.

بعض مؤلفاته وآثاره :

لقدكان الكثير من أعيان قبيلة الشيخ حماد بن ألمين ـ وحتى المجتمع ءانذاك ـ يتحرجون من التأليف تواضعاً، والذين يُحاولونه إنما يحاولونه بعد مراحل التعلُّم، بل وربما بعد ممارسة التدريس إضافة الى كون أسرته ـ في الغالب ـ بُداة رحلا.

وقد يكون من الطبعي أن يكون الشيخ حماد ـ كما هو عادة محيطه الذي

(١) اعتمدت في ما ذكرته من تاريخ مولد ووفاة وعمر الشيخ حماد بن المين على ما استنتجته من خلال مقارنات الروايات والحكايات الشفهية التى رويتها من بعض مشائخ قبيلة المترجَم . ومن ابرز تلك الحكايات : ان حماد بن ألمين توفي عن ابنته المؤمنة وهي بنت خمس سنوات ـ تقريبا. ولما تمت لها عشر سنوات تزوجها سيد بن السعيد، وولدت له بنين وبنات. وكان اسنهم ابنا سمته باسم ابيها، وكانت أسنّ منه بنحو ١٣ (ثلاث عشرة) سنة، فكان ذلك الإبن هو حماد بن سيد الذى كان يُعد من ابرز علماء وقته . وتقول بعض الروايات : ان عمره كان قريبا من عمر جده حماد بن المين. ونقلت من بعض تلامذته، وبعض من عاشوا معه مدة من الزمن انه توفي سنة ١٣٥٠ هـ وأنه عاش ٨٦ سنة، وبناء على ذلك يكون مولده سنة ١٢٦٤هـ ، واذا كان مولده بعد حماد بن المين بثمان سنوات تقريبا كما تقرر مما تقدم، تكون وفاة حماد بن المين حوالي سنة ١٢٥٦هـ ، واذا كان عمره يناهز عمر حفيده الذى هو حوالي ٨٦ سنة يكون مولد حماد بن المين حوالي ١١٧٠ هـ. والله سبحانه وتعالى اعلم.

يعيش فيه ـ قد اشتغل بعد نشأته بطلب العلم والتكسب، ومشاكل الحياة الاجتماعية، الا أنه مما تؤكده لنا بعض الروايات والحكايات الشفهية أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته لمطالعته الكتب وطلب الحصول على ما أمكنه منها، والإشتغال بالتأليف، وقد مكث مدة يبحث فيها عن الكتب ويؤلِّفُ منتبذا عن مظهره[1] الى جنوب بلاد القِبلة. وفي تلك الرحلة رُزق ابنا وبنتاً هما اخِر من رُزق من الأبناء. وقد عاد قُبيل وفاته الى شمال القِبلة حيث كانت تسكن أسرته آنذاك، في منطقة «وادي الناقة» حاليا.

ومن أبرز مؤلفاته وأشهرها: شرحاه لنظميْ الغزوات والأنساب، وهما كتابان ـ رغم ضخامة حجمهما ـ صغيرا الحجم ، بالنسبة لما أودع فيهما من العلم بالسيرة النبوية وأنساب العرب، وتراجم الرجال في العصر الجاهلي، ومختلف العصور الاسلامية، فضلا عن الأدب والنحو، والمسائل الفقهية، واللغوية، والفكاهات الطريفة. وهي سِمةٌ تغلب على المؤلفات الموريتانية التي كثيرا ما تضيف الى موضوعاتها أشكالا اخرى من المعارف المتنوعة. ولقد أجاد أخونا وصديقنا الأديب القارىء محمد الحسن بن عبد الرحمن المجلسي حيث يقول:

ماحازَ ماحازَ حَمَّادٌ على البدوي   ذو هِمَّةٍ حَضَريٌّ لا ولا بَدَوي
لِلَّه مافيه من لَهْوٍ ومن مُلَحٍ   لا تُستَمَلُّ وعلم المحتد النَّبوي
والنَّحوُ والفقهُ والتوحيدُ فيه ولا   تُحصَى فوائدُ حَمّاد على البَدوي

ومِما أسْأرَتْه يدُ الحوادث من آثاره: وصيته التي يوصي بها أبناء المسلمين، وهي وصية من غُرر الوصايا المفيدة، ونصيحةٌ من النصائح الجليلة المشتملة على

(١) منتبذا: أي منتقلا ومتباعدا ؛ عن مظهره: أي محل ظهوره وولادته.

خُلاصة مكارم الأخلاق مع الإختصار، وحُسن الأسلوب . يقول في أولها:

بنيَّ إن البرّ شـيءٌ هيِّـنُ   دونكَ منه ذا الذي أُبيِّـنُ »

وهي ستةٌ وثلاثون بيتاً؛ وهي التي نحن الآن بصدد التعليق عليها ان شاء الله.

ومنها: *نظم لمن صَحب من بني عبد المطلب.* يقول في أوله:

«الحمد لله العليِّ الصمَـــدِ   الـواهب المُعطِي المُعِين المرشدِ»

«ثم الصلاةُ والسلام سَـرْمَدا   علـى النَّبيِّ الهاشِميِّ أحمدا »

«وءاله هُم الذين ءامَنـــوا   وصَحِـبوا وللرَّشاد بيَّنــوا »

الخ .. وهو عشرون بيتا.

ومنها: *أنظامٌ اخرى لِفوائد* **متفرقة**، منها نظم في ذكر ترحيب الأنبياء بالنبي ﷺ ليلة الإسراء، يقول فيه:

« ترحَّب في دنيا السمـوات ءادَمٌ   بأحـمدَ صلى الله دوماً عليهـما »

« ولاقى رسولُ الله عند عُروجـه   بثانيـةٍ يحيى وعيسى كليْهـما »

الخ .. وهو خمسة أبيات.

ومنها: *نظم في ذكر الصحابة الذين عاشوا ستين سنةً في الجاهلية وستين في الإسلام* ، وهـو:

«لقد عاشَ مِ الأصحاب ستين: سِتةٌ   ضلالاً وعاشـوها على خير مَذهـب »

« سعيد بن يَربوعٍ حكيم حُـويطب   ومَخـرمة الزُّهـري وحَسّانُ يعـرُبِ »

« وفي العدِّ خُلفٌ في لبيدٍ وحمنن   بهـم أتّقى الأسْوا وأغنم مطلبـي »

ومنها: *نظم في أسماء أصحاب سَرية ابن جحش* ، وهـو:

« أول وقعةٍ لنا في المشـركين   سَريـة ابنِ جحْش الندب المكين»

« ومعـه فيها أبو حُـذيفَــــةْ سُهيــــل بيضا أمُّه الظريفه »

« سعد بن مالك وعتبة السُّرى سليـل غـزوان وواقـد الجَـرى »

« عكّاشة وخالـد وعامِــــرُ وكلّهــم مــن الذين هاجَـروا »[1]

ومنها: *نظمٌ ذكـر فـيـه ان لكل واحد من الرسل وزراءَ* من قومه وبيّن عددهم؛ وذكر أسماء وزرائه ﷺ، وهـو:

«لكلّ واحدٍ من الـرُّسْل يــرى سبعـــة رهـــط رُفـقا ووُزرا »

«ولِـرسولنا العظيـم القـــدرِ أربعـةَ عْشَرَ شـــموس الظهر: »

«عليٌّ حمزة أبــوبكر عمـــر والحَسَنان جعفـــرٌ بـــدرالزمر»

«سلمانُ مقدادٌ أبوذَر بـــلال حذيف عمارُ ابنُ مسعود الجبال»

«بهم توسلتُ وباقي الاصـحابْ الـــى المهيْمنِ العزيز الوهابْ»

ومنها: *نظمٌ في القرابات* التي بين الطلحات الأجواد المشهــورين يقول في أوله:

«فطلحة الشريفِ والصديقى . . . » الخ . وهــو ستة أبيات .

ومن آثاره التي عَـدَت عليـهـا عـوادي الزمن، وبقي ذكـرها: كـتـابٌ يسـمى « الحوادث » تحدث فيه عن حوادث السنين العشر التى أقام النبي ﷺ بالمدينة.

ومنها:كتاب يسمى «أنيس المحادث» شرح به نظماً للطالب فال البوصادي في حوادث السنين العشرأورده غالي البصادي في شرحه لنظمه للبعوث في مصادره.

ومنهـا: *نظم لمهاجرى الحبشة*، ذكـر في شـرح الأنسـاب: أنه نظمـهم وأورد منه بيتين همـا:

« هم معمر وخالِــدٌ سَعيــد وبشرهم والسائب الشهيـــد»

---

(١) أي لم يكن فيهم أحد من الأنصار، وإنما هم من المهاجرين، خصوصا بين قريش وحلفائهم.

«كذا أبو قيس كذا سَعيـــد أخٌ لهم من أمهم سعيـــد »

وهذا الذي ذكرنا من آثاره يعطينا صورة صادقةً عن مدى ميوله للسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، مع أنه من المحتمل أن يكون قد ألّف في غيرهما من العلوم الشرعية وضاع . وقد يكون ما طوى الزمن من ذكره، وعَدَتْ عليه غوائل الإهمال أكثر، والله سبحانه أعلم. **ومن شعره** ، معبراً عن أمنيته :

« يالَهفَ نفسي على شيأين لو جُمعا عندي لكنتُ - إذن - من أسعد البشرِ»

« كفاف عيْشٍ يقيني ذلَّ مسألــــةٍ وخدمــة العِلم حتى يَنتهي عمري»

« وثالـث أتمنى لو ظفرتُ بــــه كَـون السّعادة لـي في سابق القَدَرِ »

ومن شعره في الفخـر:

« وإني وإن قال ابنُ عمـيَ شامتــاً أخو فاقَةٍ حمال عبْء رئيــــس »

« تفيد يَـداي المالَ ثمَّ تفيتُــــه ولَسْـــتُ على ما أتلفتْ بعَبـوس »

وهذا أوان الشروع في المقصود؛ فأقول - مستعينا بالملِك المعبود- قال الناظـمُ رحمــه الله :

بُنيِّ إنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنُ
دُونَكَ مِنهُ ذا الَّذي أبَيِّنُ
نَصيحَةٌ من والدٍ حَفِيِّ
بِكَ ـ هُديتَ الرُّشدَ من بُنَيِّ
شَمِّرْ إلى مَكارمِ الأخلاقِ
خالِصَ الاعمَالِ مِنَ النِّفاقِ

قوله : «بني » تصغير ابن وليس على حقيقة التصغير. وان كان على لفظه ـ وانما هو على وجه الترفيق، والإشْفاق والمحبّة، كما يقال للرجل يا أُخَي . ويجوز فيه كسر الياء لأنها دالة على الياء المحذوفة، كما يجوز فتحها طلباً للخفة. ويُحتمل أن المراد بالابن هنا: الإبن حقيقة، او ادعاءً لقصد الإستعطاف ، لقبول النصيحة، لأن الناظم رحمه الله وإن كان يَنصح بها أحد أبنائه ـ بالدرجة الأولى ـ فانه يوجهها الى أبناء المسلمين بصفة عامة، وأبناء مجتمعه وقبيلته بصفة خاصة.

و«البِرُّ»: يُطلق على الطاعة والصلة، والاتساع في الخير. وهو أيضا ضِد العقوق. وقد قال بعض العُلماء: البِر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمَبرّة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة. وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق . ومن أحسن ما قيل فيه أنه فعل الواجبات، والبعد عن المحرمات ، والبَشاشَة مع الناس والإحسان اليهم . وقال بعض: هو بسْط الوجه وكفُّ الأذى وبذل الندى .

و«الهين»: الخفيف؛ و«النصيحة»: كلمة جامعة معناها: حيازة الخير للمنصوح له وإرشاده الى مصالحه. وأصل النصح في اللغة: اخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغشِّ، أو هو إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح. أو هو إرادة الخيرللغير، كما يُريده لنفسِه. ويَتعدّى بنفسِه وباللام ـ وهو الأفصح ـ يقال: نصحته ونصحت له نصيحة ونَصَاحةً ونُصْحاً. والإسم النصيحة. والنصيح: الناصحُ. ونصح له القول : أخلصه له .

و«الحفي»: المبالغ في الإكرام والإلطاف والإعتناء، يقال: حَفِيَ به وتَحفَّى إذا بَره وحَفي به حَفاوةً وحِفْوةً؛ ومعنى «هديت»: وُفِّقْتَ؛ و«الرشد»: الإستقامة على طريق الحق والتوفيق للأعمال الصالحة.

وقوله «شمر»: أمْرٌ من شمَّر للأمر اذا أراده وتهيأ للإسراع فيه؛ و«المكارم»: جمع مكرُمة ـ بضم الراء ـ من الكرَم؛ و«الأخلاق»: جمع خُلُقٍ. والخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بها تصدر عنها الأفعال مع السهولة بدون حاجة الى التفكير والروية. فان صدرت عنها الأفعال المحمودة سميت خُلُقاً حسنا، وان انبعثت عنها الأعمال السيئة القبيحة سميت: خُلُقاً سيئاً قبيحا. والأخلاق هنا هي الفضائل والمحاسن؛ و«مكارم الأخلاق»: هي اتباع محاسن الأفعال، وترك رذائل الأقوال[1].

وقوله «خالص الأعمال»: أي تاركا للرياء فيها مصفيا لها من الغش.

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: خلال المكارم صدق الحديث، ومداراة الناس، وصلة الرحم ، وحفظ الامانة، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وقرى الضيف، والوفاء بالعهد ، ورأسهن كلهن الحياء. وقيل مكارم الأخلاق: الصون للعرض والجزاء بالقرض. وقيل النهوض بالثقل، والأخذ بالفضل .

و«النفاق »:ككِتاب فعل المنافِق، وهو مشتق من نافقاء اليربوع[1]لأن صاحبه يكتم خلاف مايظهر، والمنافق من ستر الكفر بقلبه وأظهر الإيمان بلسانه .

فالناظم رحمه الله يوصي ابنه الذي هوأشفق الناس عليه وأحبهم اليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ويتحفه لُباب عقله وصفوَ رأيه وخالصَ نظره. وبامتثال الابن نصيحة والده الشفيق تحصل له السعادة العظمَى، والحياة الطيبة، والاستغناء عن كثرة التجارب والتوفر على جزء كبير من أوقاته .

وقد قال علي كرم الله وجهه :" رأي الشيخ خير من مشهد الغلام"؛ وقال الشاعر:

وأطِعْ أباك بكلِّ ما أوصى بـه   ان المطيـعَ أباه لا يَتَضَعْضَـع

وقال ابن المعتز[2]:

النصحُ أرخَصُ ما باعَ الرجالُ فلا   تردد على ناصح نُصحاً ولا تلُـمِ

ان النصائح لا تخفى مَناهلـها   على الرجال ذوي الألبابِ والهِمَم

وقال آخـــرُ :

اسمَعْ اخي وصيةً من ناصِـح   ماشابَ محض النصح منهُ بغشه

وقال آخـــرُ :

أصِخ مُصيخاً لمن أبدى نصيحَته   والـزمْ توقي خلطَ الجدِّ باللَّعِب

ولقدكان النصح من سنة الأنبياء والمرسلين وخُلفاء الله في ارضه، والدعاة الى دينه،

---

(١) النافقاء: احدى جحرتي اليربوع يكتمها ويظهر غيرها فاذا أوتي من جهة القاصعاء - وهي جحرته الأخرى - ضرب النافقاء برأسه. واليربوع : فأر قصير اليدين طويل الرجلين والذنَب .

(٢) هو عبدالله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد: العباسى الشاعر المبدع. ولد في بغداد وأولع بالادب فكان يقصد فصحاء الاعراب ويأخذ عنهم، وصنف كتبا كثيرة ، وله ديوان شعر مطبوع في جزأين . ولد سنة ٢٤٧ وتوفي سنة ٢٩٦ هـ / عن "الاعلام" للزركلي ، بخ.

وقد وردت فيه آياتٌ وأحاديث كثيرة قال تعالى، إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربِّي وأنْصَحُ لكُم﴾[1]؛ وعن هود عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكم رسالات ربِّي وأنا لَكُم ناصِحٌ أمِين﴾[2]؛ وعن صالحٍ عليه السّلام: ﴿لَقد أبْلَغتُكم رسالةَ ربِّى ونَصَحتُ لَكم﴾[3]؛ وعن شعيب عليه السلام : ﴿لقَد أبْلغتُكم رسالاتِ ربِّي ونَصَحتُ لكُم﴾[4]؛ وعن مؤمن آل فرعون: ﴿انِّي لكَ مِن النَّاصِحين﴾[5].

وفي صحيح مسلم، وأبي داوود عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» .. الحديث. قال العلماء: معناه أن عماد الدين وقوامَه النصيحة،كقوله: «الحج عرفة..»[6]،أي عماده ومعظمه عرفة. وعن جرير بن عبد الله قال:"بايعتُ رسول الله ﷺ على إقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم". رواه مسلم، وابو داوود، والترمذي؛ وعن أبي هريرة قال:"قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مِرآة المؤمن، والمؤمنُ أخو المؤمن يكفُّ عليه ضيعته ويحُوطُه من ورائه»". رواه ابو داوود؛ وعنه أيضاً: قال «إن أحدكم مِرآة أخيه فان رأى به أذىً فَلْيُمِطْه عنه» . رواه الترمذي.

والنصيحة فرضٌ لمن علم أن يقبل نصحه، ويطاع أمره وأمِنَ على نفسه المكروه، فاذا خشي أذى فهو في سعة.

ولما كان من الملاحظ أن النصيحة كثيراً ما تقع عن مشورة، اما حقيقةً واما حكما،

(١) الأعراف: الآية ٦٢.

(٢) الأعراف: الآية ٦٨.

(٣) الأعراف: الآية ٧٩.

(٤) الأعراف: آلاية ٩٣.

(٥) القصص: الآية ٢٠.

(٦) الحديث اخرجه الترمذي فى سننه من حديث عبدالرحمن بن يعمر.

اصبحت هي زبدة الآراء، والنتيجة الغالية والثمرة النادرة للمشورة التي ورد في الترغيب فيها الكثيرُ من الآيات والأحاديث والآثار والأشعار. فينبغي الأعتناء بها، والتخلق بما تدعوا اليه من الفضائل النبيلة والمحاسن الجليلة .

ولقد تضمنت هذه النصيحة أكثر من خمسَ عشرةَ مسألةً من فضائل مكارم الأخلاق. واقتصر الناظمُ عليها لأن وسائلَ البرِّ والأدب لا يُمكن حصرها. وماذكر منها يعتبر محاورأساسيةً وعناوين عامةً، تندرج ضمنها علومٌ كثيرة شرعية وأخلاقية، فليُقس عليها مالم يذكره الناظم كما قال العلامةُ البشير بن انباريگ في وصيته :

واعلم بأن سُبـــل الأدابِ　　عسـيرٌ أن تُحصـرَ في كتاب

لكن هنا كفاية لمن عَقــل　　فقسْ على ماقلتُه ما لم يُقل

وقدماً قيل: البصير يهتدي بالرمز والتلويح .

وقد حثَّ الناظمُ رحمه الله على التحلي بهذه الأخلاق النبيلة والمحاسن الجليلة وعلى الجد في تحصيلها مع الاخلاص في النية في جميع الأقوال والأفعال ، انطلاقا من الأمربها والترغيب فيها الواردين في كتاب الله العزيز والسنة المطهرة، واقتداء بسيد البرية عليه أفضل الصلاة والسلام، فان اللهَ سبحانه وتعالى أدَّبَه بأحسن الآداب، ونظم له مكارم الأخلاق في ثلاث كلمات من كتابه المحكم الذي جمع له فيه جوامعَ الكلم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿خُذ العَفْوَ وامُرْ بالعُرفِ وأعْرِض عن الجَاهلين﴾[1]. ففي أخذه العفو صلةُ من قطَعَه، والصفْحُ عمن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغَضُّ الطرف عن المحَارم وصون آللسان عن الكذب؛ وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيهُ النفس عن مُمارة

---

(١) الأعراف : الآية ١٦٩.

السفيه ومنازعة اللَّجوج. ثم أمَره تبارك وتعالى فيما أدّبه به باللِّين في عريكته[1]، والرفق بأمته، فقال: ﴿واخفِض جَناحَكَ لِمن اتبعَكَ من المُومنين﴾[2]، وقال: ﴿واخْفِض جَناحكَ للمُومنين﴾[3]، وقال: ﴿ولَوْ كُنتَ فَظا غليظ القَلْب لانْفَضُّوا من حولِكَ﴾[4]، وقال: ﴿ولا تَسْتَوي الحَسنَة ولا السَّيِّئة ادْفَع بالَّتي هي أحسَن﴾[5]. الآيــة ...

وقد أدّب النبيُّ ﷺ أمّته وحضها على مكارم الأخلاق، وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصِلَة الأرحام. وفي بعض الآثار: «اوصاني ربي بِتسْعٍ وأنا أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضى والغضب والقصد في الغنَى والفقر، وأن أعفو عمن ظلَمني، وأعطي مَن حرمَني، وأصِل من قطَعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرا».

وفي الحديث: «أكمَلُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً»[6]؛ وفيه: «ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[7]. وقد وصف الله سبحانه وتعالى نبيه بذلك حيث يقول: ﴿وإنَّكَ لعلى خُلقٍ عظيم﴾[8]؛ وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّما بُعثتُ لأتمِّم

---

(١) لين العريكة : أي سلس الخلق .

(٢) الشعراء: الآية ٢١٥.

(٣) الحجر: الآية ٨٨.

(٤) آل عمران: الآية ١٥٩.

(٥) فصلت: الآية ٣٤.

(٦) حديث : أكمل المؤمنين إيمانا.. الخ : أخرجه أحمد فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة.

(٧) حديث : ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه.. الخ : رواه أبوداوود في سننه من حديث عائشة، والترمذي وابن حبان والحاكم باسانيد صحيحة.

(٨) القلم: الآية ٤.

صالحي الأخلاق»[1]؛ وقال «ان الله تعالى جواد يُحب الجودَ ومعاليَ الأخلاق ويكرهُ سفسافَها»[2].

وقال علي كرم الله وجهه: "إن الله تعالى جعل مكارمَ الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم، فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها". ومكارم الأخلاق هي ينبوع السعادة، ومصدر السيادة، وبها يشرف الإنسان ويتميز عن سائرأفراد الحيوان، فحسن الخلق يورث المحبة، ويؤكد المودة، ويقود الى الفعل الحسن. والحسَنُ الخلق مِن نفسِه في راحة والناس منه في أمنٍ وسلامة، والسيئُ الخلق مِن نفسِه في تعبٍ والناس منه في عناءٍ وجهدٍ وبلاءٍ:

إذا لَم تتسعِ أخلاقُ قومٍ   تضيقُ بهمْ فسيحاتُ البِلادِ

فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة. قال عليه الصلاةُ والسلام: «أحبكم الي أحسنكم أخلاقًا»، فعلى العاقل أن يشمر ويجدّ في سبيل ادراك المعالي وفي اكتسابها، ولو بالثمن الغالي، كما قال الشاعر:

لاتقعُدنَّ عن اكتساب فَضيلةٍ   أبداً وان أدّتْ الى الإعْدامِ

ولن تتمسك أمّةٌ بمكارم الأخلاق الا ارتفع مجدها وائتلفت افرادها واستقام أمرها وبقيَ ذكرها؛ وماطرحت أخلاقَها الفاضلة وصفاتها الكاملةَ الا انحطت درجتُها وتنازعت أفرادُها وتلاشى ذكرها، وقد قال الشاعر:

وإنما الأممُ الأخلاق مابقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

وقال آخرُ:

(١) حديث إنما بعثت لأتمم.. الخ: رواه البخاري في الأدب المفرد.

(٢) حديث: ان الله تعلى جواد..الخ: اخرجه البيهقي في الشُّب عن طلحة بن عبيد الله.

وليس بعامرٍ بنيانُ قـــومٍ   إذا أخلاقهـــم كانت خَــرابا

وتنقسم أوصاف الانسان التي يعامل بها غيره الى محمودة ومذمومة. فالمحمودُ منها على الإجمـال: أن يكون مع غـيـره على نفـسـه، فـينصف منهـا ولا ينصف لهـا. وعلى التـفـصـيل هي: العـفـو، والحلم، والجـود، والصـبـر، وتحمل الاذى، والرحـمـة، والشـفـقـة، وقضاء الحوائج، والتوادد، ولين الجانب ... ونحو ذلك .

والمذموم منها: ضدُّ ذلك. وعلى هذه المسائل ركز الناظم في هذه النصيحة، وسيأتي الكلام على جميع هذه الصفات - مفصلا - في محالِّ ذكرها في هذه الوصية ان شـاء الله. وقـول الناظم: «خـالص الأعـمـال من النفـاق» أي أسرع وشـمـر حـال كـونك مـصـاحـبـا لنيـة الاخلاص في عملك من الرياء والنفاق. وحقيقة الإخلاص، كما قال بعض العلماء: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. وقال الجنيد[1]:" الإخلاص سرٌ بين العبد وبين الله، لا يعلمه ملَكٌ فيكتبه، ولا شيطانٌ فيفسده، ولاهوىً فيُميله" .

وذكر أبو القاسم القشيري، وغيره أن النبيﷺ قال: «سألتُ جبريل عن الإخلاص ما هو؟ فقال: سألتُ ربَّ العزّة عن الإخلاص ماهو؟ فقال: سرٌّ من سري استودعته قلبَ من

(١) هو ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز. صوفي من العلماء بالدين. وعدّه العلمـاء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصونا من العقائد الذميمة، محميَّ الأساس من شُبَه الغلاة ، سالما من كل ما يوجب اعتراض الشرع . ومن كلامه رضي الله عنه : "طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة"؛ ومنه: "من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه، لايقتدى به". قال أحد معاصريه: مارأت عيناي مثله: الكتاب يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. ويعرف الجنيد بالخزاز: لأنه كان يعمل الخزّ. أصل أبيه من «نهاوند». ولد الجنيد ونشأ وتوفي ببغداد، له رسائل في عدة مواضيع. توفي سنة ٢٩٧ هـ.

أحببته من عبادي»[1]. وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء، فقال:"من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك؛ فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك،وليس هذا من فعلي ولا صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿ فمَن كانَ يَرْجو لقاءَ ربِّه فليَعمَل عَملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربِّه أحَدا﴾[2]". وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا؛ قيل له: كيف يكون هذا؟ قال : من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء".

وقال لقمان[3] لابنه: "الرياء أن تطلب ثواب عملك في دار الدنيا، وانما عمل القوم للآخرة. فقيل له: فما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل. قيل له: فكيف يكتم العمل؟ قال: ماكلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه الا بالإخلاص، وما لم تكلف اظهاره احب ان لا يطلع عليه الا الله؛ قال: وكل عمل اطلع عليه الخلق فلا تعده من العمل. وقال ايوب السختياني[4]: ماهو بعاقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله.

---

(١) حديث: سألت جبريل عن الاخلاص ..الخ : ذكره الغزالي في الاحياء عن الحسن. وقال الحافظ العراقي في تخريجه: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا، يقول كل واحد من رواته: سألت فلانا عن الاخلاص فقال ... وهو من رواية: أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبدالواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعلى. رواه ابو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن ابي طالب بسند ضعيف .

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٣) هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح. كان نوبيا من اهل أيلة قال ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر، ذا مشافر، أي عظيم الشفتين . قيل كان ابن أخت أيوب او ابن خالته. وقد أعطاه الله تعالى الحكمة، وكان كثير التفكير، حسنَ اليقين. وقد قيل له : ما بلغك هذا المقام؟ قال : قدرُ الله، وأداني الأمانة، وصدق الحديث، وترك مالايعنيني ، قيل كان قاضيا في بني اسرائيل عاش الف سنةٍ وادركه داوود عليه السلام ، واختلف في صنعته فقيل كان خياطاً، وقيل كان يحتطب لمولاه، وقيل كان راعيا، وقيل: نجارا. انتهى من تفسير القرطبي.

(٤) هو ابوبكر: أيوب بن ابي تميمة كيسان السختياني البصرى سيد فقهاء عصره، تابعي من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث وكان ثبتاً ثقة.(من الاعلام لخيرالدين الزركلي).

وفي الحديث: عن الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول الله ﷺ: «ان الله تعلى يقول أنا خيرُ شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي. يا أيها الناس اخلصوا أعمالكم لله تعلى فإن الله تعلى لايقبل الا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم فانها للرحم وليس لله تعلى منها شيء، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم فانها لوجوهكم وليس لله تعلى منها شيء» ـ أخرجه الدارقطني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشركه» ـ رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعلى فيقول الله تعلى للملائكة: القوا هذا واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا الاخيرا. فيقول الله عز وجل ـ وهوأعلم ـ هذا كان لغيري، ولا أقبل اليومَ من العمل الا ماكان ابتغي به وجهي» ـ رواه الدارقطني.

وعن أبي سعد بن أبي فَضَالة الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله عز وجل أحدا فليطلب ثوابَه من عند غير الله، فان الله أغنى الشركاء عن الشرك» ـ رواه ابن ماجه والترمذي؛ وفيه عن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال»؟ قال: فقلنا: بلى يارسول الله. فقال : «الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» ـ رواه بن ماجه.

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «ان أخوف ما أتخوف على أمّتي

الاشراك بالله. أما اني لست أقول: يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية»[١] . رواه ابن ماجه . والله سبحانه وتعالى اعلم.

ثم قال رحمه الله وعفاعنه :

(١) وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية فقال:« هو الرجل يتعلم العلم يحب ان يجلس اليه». وورد ايضا في بعض طرق الحديث تفسيرها بانه يصبح العبد صائما فيعرض له شهوة من شهواته فيوافقها، ويدع صومه . هـ / انظر التاج.

الأَدَبَ ، الأَدَبَ .. ثُمَّ الأَدَبَا

وهُوَ أنْ تَبَرَّ أُمّاً وأبَا

والعَمَّ والعَمَّةَ والأخَ الكَبيرْ

والشَّيْخَ،إنَّ الشيخَ بالبرِّ جَديرْ

الأدب: هو التهذيب. يقال أدُبَ الرجلُ يأدب: اذاكان ذا أدب فهو أديب، جمعه أُدباء، كما يقال كرُم الرجل اذا كان كريما. والأديب: المتضلع من اللغة والآداب ، وهي العلوم والمعارف عموما، أو المستظرف منها فقط .

والأدب مأخوذ من المأدبة وهو طعام يتخذ ثم يدعى الناس اليه، فكأنَّ الأدب مما يُدعى اليه كل أحد. يقال أدبه المؤدب تأديبا: هذبه وراضَ أخلاقه فهو مؤدَّبٌ ـ بفتح الدال . والمعلم مؤدِّبٌ بكسرها، وذلك لأنه يردد اليه الدعوة الى الأدب فكثُر الفعل ـ بالتشديد. والآدِبُ الداعي كما قال طرفةُ بن العبد البكري :

نحنُ في المشتاة(1) ندعو الجفلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر

وقال بعضهم: الأدب عبارةٌ عن معرفة ما يحترز به من جميع أنواع الخطإ. وهو أنواع:كسبي: وهو ما اكتسبه الانسان بالدرس والحفظ والنظر كمعرفة النحو واللغة والشعر والخبر والكتاب والسنة والاجماع ... ونحو ذلك؛ وطبعي: وهو ما فطر عليه من

---

(١) المشتاة: جمع المشاتي، وهو زمن الشتاء او موضع الإقامة فيه ، والعرب تجعل الشتاء مجاعة يلتزمون فيه البيوت، ولا يخرجون للإنتجاع ؛ والجفلى، بالتحريك والأجفلى: الدعوة العامة، وهي أن يدعو الناس الى طعامه بجماعتهم وعامتهم من غير اختصاص ؛ والانتقار: الدعوة الخاصة وهي أن يدعو بعضَهم دون بعض .

الأخلاق الحسنة والصفات المحمودة، كالكرم والشجاعة والحلم ونحوها؛ وصوفي: وهو ضبط الحواس ومراعاة الأنفاس؛ وشرعي: وهو ماذكره محمد بن أبي زيد في رسالته[1].

وقد قيل: "لا يكون الأديب أديبا حتى يحفظ المثَلَ السائر والبيت النادرَ، والحكايةَ المغربة، والنكتة المطربة، والحكمة الجامعة، والفائدة النافعة".

وفنون الأدب ـ وتدعى بعلوم العربية ـ عبارة عن اثني عشر فناً، يجمعها قول بعضهم:

نحوٌ وصَرفٌ عروضٌ ثم قافيـــةٌ   وبعــدها لغةٌ قرضٌ وإنشـــاء[2]

خطٌّ بيانٌ معان معْ محاضــرةٍ[3]   والاشتقاقُ لها الآدابُ أسمــاءُ

وقد جعلوا البديع ذيلاً لا قسماً برأسه[4]. هذا هو محمل الأصل اللغوي للأدب.

وفي الإصطلاح: هو عبارة عن استعمال ما يُحمد قولا وفعلا. وعبَّر بعضهم عنه بأنه الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل الوقوف مع المستحسنات. وقيل هو تعظيم مَن فوقك والرفق بمن دونك. وفسره بعضهم بأنه التحلي بأحسن صفات الكمال، والتخلي عن الرذائل، والبعد عن النقائص، بحيث يكون الإنسان في جميع أحواله ومعاملاته في المجتمع على مقتضى العقل الكامل، والذوق السليم، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم، ولا يقع منه ما يخل بشرفه، أو يحط من قدره .

فالأدب ينقسم الى قسميْن: أخلاقي وحسن سلوك ومعرفي؛ والأول منهما غالبا ما

---

(1) يقول أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني في الرسالة ما نصه: "وجماع آداب الخير وأزمّته تتفرع عن أربعة أحاديث: قول النبي صلى الله عليه وسلم «من كان يومن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»؛ وقوله عليه الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وقوله عليه السلام للذى اختصر له في الوصية: «لا تغضب»؛ وقوله عليه السلام: «المؤمن يحب لأخيه المومن ما يحب لنفسه». اهـ من الرسالة بلفظها.

(2) يعنى بالقرض الشعر، وبالإنشاء الخطب والرسائل .

(3) ومنها : التواريخ.

(4) راجع « الصبان» : على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك.

يكون نتيجةٌ للثاني. وقد كان من الطبيعي أن الناظم يَحضُّ عليهما معاً، بل وكلٍّ ما يمت الى الأدب بصلة، وركز على الأدب الأخلاقي السلوكي إذهو الثمرة، وهو تهذيب النفس، واتصافُ الانسان وانطباعه بالسلوك الحسن النابع من الحياء والإيمان والخاضع للأعراف والعادات الحميدة في المجتمع.

وقول الناظم «الأدبَ الأدبَ»: منصوب بفعل محذوف تقديره: الزم. وانما كرره للتأكيد والحث على التحلي به، والتنبيه على أهميته انطلاقا من الحث عليه والترغيب فيه الواردين على لسان السادة العلماء، وأكابر الحكماء والأدباء. فقد قال علي كرم الله وجهه:" الشرف بالعقل والأدب، لا بالأصل والنسب"؛ وقال خالد بن صفوان لابنه: "يابني الأدب بَهَاءُ الملوك ورياش السوقة[1] والناس بين هاتين فتعلمه تجد نفسك حيث تحب"؛ وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم ان احتجتم اليه كان لكم مالاً، وان استغنيتم عنه كان لكم جمالاً"؛ وقال اعرابي لابنه: يابني الادب دَعامةٌ أيد الله بها الألباب، وحليةٌ زين الله بها عواطل الأحساب، فالعاقل لا يستغني ـ وان صحت غريزته ـ عن الأدب المخرج زهرته،كما لا تستغني الأرض ـ وان عذبت تربتها ـ عن الماء المخرج ثمرتَها. واوصى بعض الحكماء بنيه فقال: الادب أكرمُ الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة ويُعز بلا عشيرة، ويُكثر الانصارَ بغير رزية، فالبسوه حُلة وتزينوه حِلية، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوبَ المختلفة.

وقال بعضهم: ماورَّث الآباء الأبناء شيئا خيراً من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه. وقالوا من أدَّب ولَدَه صغيراً سُرَّ به كبيراً. وقالوا: من أدب ولدَه غمَّ

---

(١) البهاء الحسن؛ والرياش: فاخر اللباس. والسوقة: الرعية من الناس، لأن الملك يسوقهم ويصرفهم الى ماشاء من أمره.

حاسدَه. وقالوا: الأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين، والتوفيق خير قائد. وقال بعضهم: عليكم بالأدب فانه صاحبٌ في السفر، ومؤنسٌ في الوحدة، وجمَالٌ في المحفل، وسببٌ الى قضاء الحاجة. وقال ءاخر: الأدب وسيلة الى كل فضيلة، وذريعة الى كل مكرمة. وقال شبيب بن أبي شيبة: اطلبوا الأدب فانه مادة للعقل ودليل على المروءة، وصاحب في الغربة. وقال بعض الحكماء: الأدب صورة العقل، فصور عقلك كيف شئتَ. وقال بعض الأدباء:"زكِّ قلبك بالأدب كما تزكى النار بالحطب، واتخذ الأدب غُنْماً والحرص عليه حظا، يرتجيك راغبٌ، ويخاف صولتك راهبٌ، ويُؤمل نفعك، ويُرجى عدلك. وقال بعضهم: العقل بلا أدب كالشجرة العاقر، ومع الأدب كالشجرة المثمرة ".

وقال آخر: من ساء أدبه ضاع حسبه، ومن قل عقله ضل أصله، والأدب يستر قبيحَ النسب. وقال ءاخر: "ليت شعري أي شيء أدرك مَن فاته الأدب، وأي شيء فاتَ مَن أدرك الأدب"؟.

ولبعض الشعراء في هذا المعنى :

عوِّد بنيكَ على الآداب في الصغَرِ   كيما تقرَّ بهم عيناكَ في الكبرِ
فإنما مثَل الآداب تجمعُها   في عنفوان[1] الصبا كالنقش في الحجرِ
هي الكنوزُ التي تنمو ذخَائرُها   ولا يُخاف عليها حادث الغِيَر[2]
ان الأديب إذا زلّت به قدمٌ   يهوِي على فرش الديباج والسّررِ

ولِخَلف الأحمر:

خيرُ ما ورث الرِّجال بنيهم   أدبٌ صالحٌ وحسن ثناء

(١) عنفوان الصبا: أوله، أو أول بهجته.

(٢) الغير، بكسر الغين: أحداث الدهر المغيرة له.

هو خيرٌ من الدنانيـــــر والأو راق فـي يوم شـدة ورخـــاء
تلك تفنى والدينُ والأدب الصـــا لـحُ لا يفنيان حتـى اللقـاء
إن تأدبــت يا بُني صغـــيراً كـنتَ يوماً تعد فـي الكبراء
واذا ما أضعتَ نفسكَ ألْـفيـــتَ كبيراً في زمـرة الغوغاء[1]
ليس عطفي للعُود إن كان رطبـاً وإذا كان يابساً ، بســـواء

وقال آخـر :

لم يثبت الخيرَ مال لا ولا نسَـبٌ وإنما الخير،كـل الخيـر، في الأدبِ
مزية تملأ الدنيا محاسنُـهـــا وسلّم لكمال الفضـل والنّسبِ

وقال آخـــر :

لا تيأسن إذا ما كنـــتَ ذا أدبٍ علـى خمولك ان ترقـى الى الفلكِ
فبينما الذهب الابريزُ مختلـــطٌ بالتـرب اذ صار اكْليلاً[2] على الملِكِ

وقال آخـــر :

لاتعجبنك أثـواب على رجـــل دع عنـك أثوابه، وانظر الـى الأدبِ
فالعـود لو لم تفح منهُ روائحُــه لم يفـرق الناس بين العـود والحطبِ

وقال آخـــر :

مــا وهبَ الله لامــرئٍ هبـةً أفضـــل من عقــله ومن أدبـــه
هُما حياةُ الفتى فإن فُقــدا فان فقـــدَ الحياة أحسن بـــه

وقال آخـــر:

---

(١) الغوغاء: السفلة من الناس والمتسرعون الى الشر.

(٢) الإبريز، بالكسر: الخالص، والإكليل ـ بالكسر ايضا: التاج وشبه عصابة تزين بالجوهر.

ليس الجَمالُ بأثوابٍ تزيننـــــا   إن الجمـــال جمالُ العِلم والأدبِ

وقال آخـــــر :

لكل شيءٍ زينة في الـــــورى   وزينـــــة المـــــرء تمـــام الأدبْ

قد يشــرف المرءُ بآدابــــــه   فينـــا وإن كان وضيعَ النســـبْ

وقال بعض العرب يوصي ابنه:" مثل لنفسك مثال ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فان المرء لا يرى عيب نفسه".

وفي الحديث عن حرملة بن عبدالله قال: "أتيت النبي ﷺ فقلت: ما تأمرني أعمل؟ قال: «ياحرملة إيت المعروف واجتنب المنكر، وانظر ما يعجب أذنك ان يقول لك القوم اذا قُمت من عندهم فأته، وانظر الذي تكرهه ان يقول لك القوم اذا قمتَ من عندهم فاجتنبه». قال حرملة: فلما رجعت تفكرت فاذا هما لم يدعا شيئا"[1].

وقد قيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهلَ الجهال قبحا فاجتنبتهُ فتأدبت. وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

والزمْ من الأدب المحمودَ صاحبُـــــه   ما كان يغني عــن التأديب من ذكرهْ

ما استقبحَتْ من ســواك النفسُ ويحــك لا   تقربْ وما استحسـنتْ منه فلا تـذرهْ

وما تــرى لك أو تهوى معاملـــــة   بـه من الناس عاملهـــم بـذاكَ ورَهْ

وقال داوود بن جهور:

إذا أعجبتك خلالُ[2] امــــرئٍ   فكنْـــهُ يكن منـك ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمـــات   اذا جئتهـــا حاجـب يحجبـــك

(١) حديث : ياحرملة ايت المعروف .. الخ رواه البخاري في الأدب المفرد. هـ

(٢) في نسخة: خصال.

وقال آخــر :

فلو كنتَ تطلب شأوَ الكــرام   فعلتَ كفعـــل أبي البَختـر
تتبعَ اخوانـه في البـــلاد   فأغنـــى المقلُّ عن المكثـــر

وقال آخــر :

يا من يحاول أن تكون خلالـــه   كخلال عبد الله[1] أنصت واسمــع
فلاقصدنك بالنصيحة والــذي   حــجَّ الحجيجُ اليه فاقبــلْ أو دَع
ان كنتَ تطمع ان تحل محلـــه   فـي المجد والشرف الأشــم الأرفع
فاصدقْ وعفَّ وبرّ وارفقْ واتئــدْ   واحلــمْ ودارِ وكافِ واصبرْ واشجع
والطفْ ولِن وتانَّ وانصرْ واحتمـل   واجـزم وجدْ وحامِ واحمــلْ وادفع
هذا الطـريق الـى المكارم مهيعـاً   فاسلك فقد ابصـرت قـصد المهيـع

ولما كان الأدب اسما جامعا لكل ما يحمد قولا وفعلا، شرع الناظم في سرد بعض ما يندرج في المفهوم الإصطلاحي له بدءاً بما هو واجب شرعا بنص الكتاب والسنة، وهو بر الوالدين.. الى ءاخـر مـا سيـذكـر من المحـاسن العـرفـيـة، فـقـال: «وهو أن تبـر أمـا وأبا.. »الخ. وقد قال العلماء ان أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البـر والطاعـة، مَن قـرن الله سبحـانه وتعـالى الاحسـان اليـه بعبادته وطاعـته، وشكرَه بشكره، وهمـا الوالدان. فـقـال تعلى: ﴿ وقَـضـى ربُّكَ ألا تَعـبُـدوا الا إياهُ وبالـوَالدَيْـن

---

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي بالولاء من أشهر الولاة في العصر العباسي، وكان سيدا نبيلا عالي الهمة. ولاه المامون خراسان فضم اليها كثيرا من بلاد المشرق. توفي سنة ٢٣٠ هـ.

إحساناً﴾[1]؛ وقال: ﴿أن اشكُر لي ولِوالديْكَ﴾[2].

وبر الوالدين من الفرائض العينية الواجبة بالكتاب والسنة والإجماع. وقد صرح القرآن الكريم بذلك في عدة مواضع. فمن الآيات الواردة في ذلك قوله تعلى: ﴿ وإذْ أخذنا ميثاق بَني اسرائيلَ لاتَعبُدون الا اللهَ وبالوالديْن إحساناً وذي القُربى واليتامى والمَساكين﴾[3]؛ وقال: ﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيْئاً وبالوالدَيْن إحساناً وبذي القُربى واليَتامى والمساكينِ والجار ذي القربْى والجار الجُنب والصّاحب بالجَنب وابن السَّبيل وما مَلكتْ أيْمانُكم إن الله لا يُحب مَن كان مُختالاً فخُوراً﴾[4]؛ وقال تعلى: ﴿قل تعالوا اتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألا تُشركوا به شيئاً وبالوالدَيْن إحساناً﴾[5]؛ وقال تعلى: ﴿وقضى ربُّكَ الا تعبدوا الا إياهُ وبالوالدَيْن إحساناً إما يبلُغنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدهُما أو كلاهُما فلا تقلْ لهما أفٌّ ولا تَنْهَرهُما وقل لهما قولاً كَريماً واخفِض لَهُما جَناحَ الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحَمهُما كما ربَّياني صَغيراً﴾[6].

ففي هذه الآيات قرَن الله سبحانه وتعالى برَّ الوالدين والاحسانَ اليهما بعبادته، اشارة لتأكيد حقهما، وتخويفا من عقوقهما، وتنبيهاً على أن حقهما هو آكَدُ الحقوق بعد عبادة الله. وأخذ منها ايضا أن بر الوالدين أمر اتفقت عليه جميع الديانات السماوية. فهؤلاء

(1) الاسراء: الآية ٢٣.

(2) لقمان: الآية ١٤.

(3) البقرة: الآية ٨٣.

(4) النساء: الآية ٣٦.

(5) الانعام: الآية ١٥١.

(6) الاسراء: الآيتان ٢٣ و ٢٤.

قوم موسى عليه السلام يؤخذ عليهم العهدُ والميثاق ببر الوالدين، مع الايمان بالله وتوحيده ومع الصلاة والزكاة وقول الحسنى للناس وبذل الاحسان لذوي القربى واليتامى والمساكين، وهي أمور تتفق مع ماجاء على لسان نبينا محمد ﷺ. وقد وصف الله سبحانه وتعلى نبيه يحيى الذى آتاهُ الحكمَ في صغره والحنانَ من لدنه، ووصفه بالتقوى وبرّ الوادين، ونفي عنه صفات الجَبَروت والعصيان التي تناسب صفات العُقوق والجهل، فقال جلّ من قائل: ﴿وءاتيْناهُ الحكم صبيا وحنانًا من لدنا وزكاةً وكان تقيا وبَراً بوالديْه ولم يكُن جباراً عَصياً﴾[1]؛ كما وصف عبده ونبيّه عيسى بن مريم ببر والدته من بين الصفات الكاملة التي جعله متصفا بها، وحفظه من صفات الجبروت والشقاوة. فقال جلّ من قائل ـ فيما حكاه عنه :﴿ قال اني عبدُ الله ءاتاني الكتابَ وجعلني نبيئاً وجعلني مُباركاً أينما كنتُ وأوصَاني بالصَّلاة والزَكاة ما دمتُ حيّاً وبَراً بوالدتي ولم يَجعَلني جباراً شقياً﴾[2]. ثم جاء الحث على البر في آيات أُخَر بلفظ الوصية على البر، وإظهار جوانب من الحكمة في وجوبه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ووَصَّيْنا الإنسانَ بوَالديْه حُسناً وإن جاهَداكَ لِتُشركَ بي ماليسَ لكَ به علمٌ فلا تُطعْهُما إليّ مرجِعُكم فأنبّئُكم بما كنتمْ تعملون﴾[3]؛﴿ووصَّينا الإنسان بوالديْه حَملته أمُّه وَهناً على وَهْنٍ وفصالُه في عامَين أن اشكر لي ولوَالديكَ إليّ المصير وإن جَاهَداكَ على أن تُشركَ بي ما ليسَ لكَ به علمٌ فَلا تُطعْهُما وصاحبهما في الدُّنيا معروفاً واتبعْ سبيلَ مَن

(١) مريم: الآيات :من ١٢ الى ١٤.

(٢) مريم: الآيات من ٣٠ الى ٣٢.

(٣) العنكبوت: الآية ٨.

أنابَ اليَّ ثم اليَّ مَرجعكُم فأنبِّئكُم بما كنْتم تَعـملون﴾[1]؛ ﴿ووصَّينا الإنسـانَ بـوالديْه حُسناً حَملتهُ أمُّه كَرهاً ووَضعَته كَرهاً وحمله وفِصَالُه ثلاثونَ شهراً﴾[2].

وقـد أوضـحت السنة وبينت مكانة البـر تلك في كـثـيـر من الأحـاديث الصـحـيـحـة الصـريحة عـن النبي ﷺ. فـمن ذلك مـا رُوي عن عـبدالله بن مـسـعـود رضي الله عنه قـال: "سألت النبي ﷺ أي العمل أحب الى الله ؟ قال: «الصلاة على وقتـها » قال: ثم أي؟ قال: «برُّالوالدين»، قـال ثم أي؟ قـال: «الجهـاد في سبيـل الله»، قـال حدثني بهـنَّ، ولو استـزدته لزادني" ـ رواه البخاري في الصحيـح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «رغـم أنفـه ثم رغم أنفـه ثم رغم أنفــه»[3] قـيل مَن يا رسـول الله؟ قـال: « مَن أدرك والديْـه عند الكبـر أحـدَهمـا أو كليْهما ثم لم يدخل الجنة» ـ رواه مسلم والترمذي؛ وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ: قال «رِضَى الرب في رضى الوالد، وسَخطُ الرب في سخط الوالد» ـ رواه الترمذي .

وعن عبدالله بن عـمرو بن العـاصي قـال: أقبـل رجل الى النبي ﷺ فـقـال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله. قال: «فـهل من والديك أحد حي ؟» قـال: نعم، بل كلاهما. قال: «فتبتغي الأجر من الله تعلى؟» قال: نعم، قال: «فارجع الى والديك فـأحسن صحبَـتـهُـمـا» ـ رواه مـسلم؛ وعن المقـدام بن مـعـديَكرب أن رسـول الله ﷺ قـال: «ان الله يوصيكم بامـهاتكم ـ ثلاثا ـ ان الله يوصيكم بآبائكم، ان الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» ـ رواه بن مـاجه؛ وعن ابن سـلامـة السُّلمي قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «أوصي امـرأ بأمـه، أوصي امرأ بأمـه، أوصي امرأ بأمـه (ثلاثا) أوصي امـرأ بابيه، أوصي امرأ بمولاه الذي

---

(١) لقمان: الآيتان ١٤و١٥.

(٢) الأحقاف: الآية ١٠.

(٣) رغم ـ بفتح الغين وكسرها: أي ذل، أوكره وخزي، وأصله لصق بالرغام، وهو تراب مختلط برمل.

يليه، وان كان عليه منه أذى يؤذيه» ـ رواه ابن ماجه.

وأوجه البركثيرة منها معاشرتُهما بالمعروف، والتواضعُ لهما، وامتثالُ امرهما، ولين الجانب لهما، وحفظهما، وصيانتُهما، وخدمتُهما، وتركُ السلطنة عليهما، وازالة الرق عنهما، وبذل المال لهما، وطاعتُهمافي غير معاصي الله تعلى والدعاءُ بالمغفرة بعد موتهما، وصلة أهل ودهما.. وغيرُ ذلك من أنواع البرّ والتعظيم والتوقير في القول والفعل.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أنواعَ البرفي قوله ﴿ إمَّا يَبلُغنَّ عِندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهُما﴾..الآية.

ثم انه يلزم بقاءُ البر بالوالدين حتى بعد موتهما، وذلك بدوام الدعاء لهما وصلَة مَن كانا يصلانه. فعن ابي أسيد مالك بن ربيعة الساعديّ البدري قال:كنت مع النبي ﷺ ـ جالساً ـ فجاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يارسول الله هل بقي من برٍّ والدي بعد موتهما شيءً أبرهما به؟ قال: «نعمْ. الصلاةُ عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما واكرامُ صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك الا من قِبَلِهما، فهذا الذي بقي عليك».

تنبيه في تحريم وذَمِّ العقوق

ولما ذكرنا بعض ما أشار اليه الناظم من البر بالوالدين، وجملةً مما ورد من الحث عليه، وكان العُقوق نقيضه، والأشياء تذكر بأضدادها،كان من تمام الفائدة أن نذكر بعض ما ورد من ذمه والوعيد عليه تنفيراً منه وتحذيراً من شؤمه، فأقول:

أما العقوق فهو مشتق من العَقِّ، وهو القطع، ولعلّ ذلك لأن فيه قطعاً للصلة بين الآباء والأبناء، أو تسبباً في قطعها. والعقوقُ هو صدور مايتأذى به الوالدان، أحدُهما أو كلاهما، من ولدهما قولاً كان أوفعلا، الا في شرك أو معصية. وهو محرم كتاباً

وسنة وإجماعاً، لقوله تعلى: ﴿قلْ تَعالوا اتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكُم ألا تُشرِكوا به شيْئاً وبالوالديْن إحساناً﴾[1]. فقد بدأت الآية بتحريم الشرك، وأعقبته بتحريم العقوق للوالدين، وتحريم قتل الأولاد، وان كان المذكور فيها هو الإحسان الى الوالدين بعد النهي عن الشرك. لكن لما كانت الآيةُ بصدد بيان ماحرم الله عزّ وجَلّ كان المقصود من الأمر بالاحسان النهي عن العقوق، وهذا أبلغ مما لو ذكر تحريم العقوق فربما لم يلتفت الا اليه، وكأنّ الاحسانَ مأمورٌ به منهيٌّ عن ضده في الوقت ذاته. وكما صرح القرآنُ الكريمُ بأن الاحسان بالوالدين يلي التوحيد مباشرة، فقد صرح النبي ﷺ بأن عقوق الوالدين يلي الشركَ مباشرة في الفظاعة والشناعة، وفيما توعد الله عليه من أليمِ العقاب وشديد العذاب.

فقد روى البخاريُّ ومسلم من حديث عبد الرحمن بن ابي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الا انبئكم بأكبر الكبائر؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» فقلنا: بلى يارسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوقُ الوالدين»، وكان متكئاً فجَلَس وقال: «ألا وقولُ الزور وشهادةُ الزور، ألا وقول الزور وشهادةُ الزور» فمازال يكررها حتى قلت لايسكت.[2]

وقد جاء في الحديث تحريم العقوق، ومنع العاق من التعطر بريح الجنة، وشَمّ شذاها، وانه لا يقبل له أي عمل وانه ينال جزاءه في الدنيا قبل مَماته: من تحقير وفقر مُدقع، وأمراض، وسخط أهله وابعاده، كما جاء لَعن الله ورسوله والملائكة والناس له.

وجاء فيه: أن العقوقَ يجلب سوءَ الخاتمة للعاق، ويطمس الله على بصيرته، وينزع منه

(١) الأنعام: الآية ١٥١.

(٢) القائل هو راوي الحديث.انظر صحيح البخاري: ج٨/ ص ٥.

الإيمان، فلا يقدر على النطق بالشهادتين. نسأل الله السلامة.

وقد حرم الإسلام العقوق، ولو كان أحد الأبوين أو كلاهما مشركاً، أو على دين مخالف، فقد قال الله تعلى: ﴿لاينهاكمْ اللهُ عن الذين لمْ يقاتلوكم في الدين﴾[1]. الآية والله أعلم.

وقول الناظم: «والعمّ والعمّة والأخَ الكبير..» عاطفاً على قوله: «أما وأبا» يشير به الى أهمية برورهم وتأكيد حقوقهم لما ورد في الأحاديث الصحيحة من الأمر ببر الأدنى فالأدنى معطوفاً على الأمر ببر الأبوين.

ففي الحديث: «إن الله يوصيكم بامهاتكم ثلاثاً، ان الله يوصيكم بآبائكم، ان الله يوصيكم بالاقرب فالاقرب»،كما تقدم؛ وفيه أيضا أوصي امرأ بأمه - ثلاثا - أوصي امرأ بأبيه، أوصي امرأ بمولاه الذي يليه؛ وعن كليب بن منفعة عن جده: أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: «أمك، وأباك، واختك، وأخاك، ومولاك الذي يلي ذاك حق واجب ، ورحم موصولة»[2]؛ وفي الحديث أيضا: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده»[3]؛ وعن أبي رمثة قال: انتهيتُ الى رسول الله ﷺ فسمعتُه يقول «امك وأباك، ثم اختك وأخاك، ثم أدناك ثم أدناك»[4].

والمراد بالدُنوِّ الدنوُ الى البارِّ، أي الأقرب اليه من الأصول، والفروع، والحواشي. قال عياض: "تردد بعضُ العلماء في الجد والأخ، والأكثر على تقديم الجد، وبه جزم الشافعية، قالوا: يقدم الجد ثم الأخ ثم يقدم من أدلى بأبوين على من أدلى بواحد، ثم

---

(١) الممتحنة: الآية ٨.

(٢) رواه ابو داوود في سننه ، والبخاري في الأدب المفرد.

(٣) حديث كبير الأخوة : رواه البيهقي.

(٤) حديث أبي رمثة أخرجه الحاكم.

تقدم القرابة من ذوي الرحم، ويقدم منهم المحارم على من ليس بمحرم، ثم سائر العصبات ثم المصاهرة، ثم الولاء، ثـم الجـار.

وقـول الناظم رحمـه الله: «والشـيخَ انَّ الشـيخَ بالبـر جـدير» أشـار به الى وجـوب برّ الشيخ عـاطفاً على بر الأبوين، وأكد ذلك بقوله: "ان الشيخ بالبر جدير"، والجدير اسم فاعل من جدُر بالشيء - ككرم - جدارة اذا كان خليقا به، وأهلاً له. يعني انه كما يلزم بر الوالدين والأقارب كذلك يلزم المتعلمين برُّ المعلمين، ويلزمهم الدعاءُ لهـم، وشكرهم والثناء عليهم، وذكرُ مآثرهم.

والشيخ: هـو مَن كان استاذاً كاملاً متبحراً في فنٍّ من الفنون، ويصح الإقتداء به ولو كـان شاباً، فـان كثيرا من الصحـابة حدّثوا في زمن شبابِهم، وجمـاعة من أحداث التابعين رووا لأصحابهم. وقد أفاد مالك وهو بن عشرين أو سبع عشرةَ سنةً والشافعيُّ تتلمذ له العُلماءُ وهو في حداثة السن. واشترط بعضُهم أن يكون ابنَ خمسين أو أربعين، والظاهر عـمومُه: أي سواء كان مربيا أو شيخ علم شرعي، فيلزم بـر الجميع وقد قال علي رضـي الله عنه: أنا عَبد من علمني حرفاً، وقـال مالكٌ رحمـه الله: "مَن علَّمَكَ حرفـاً فقـد ملك رقَّبتك". وقـال سـهل بن عبـد الله : لا يزال النـاسُ بخيـر مـا عظمـوا السلطانَ والعُلمـاءَ ، فاذا عظمـوا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، واذا استخفوا بهذين أفسدَ دنياهم وأخراهم"[1].

وقـال أبو علي: من حقـوق الشيخ على الطالب: أن يعـرف له حقـه، ويشكر صنعـه، والمنة التي اجراها الله تعلى على يده، ويعتـقـد أنه أبوه بالولادة، فـلا يزال مثنيا عليـه، ومسـتغـفراً له وداعـيا له ومُسديا اليـه غايةً مـا يمكنه من الاحسان، وساعـيا اليـه في

---

(١) راجع القرطبي: ج :٥/ص: ٢٦٠.

مكافأته بكل وجه يمكن.

وفي الحديث: «من أتى اليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له»[1]. وكل هذا في حضوره وغيبته، وبعد موته، فينصره ويغضب له، ويجاوب عنه من يذكره بسوء، وان عجز قام عن المجلس، وكذا يعامل أولاده ومواليَه وأقاربَه وأحباءَه وسائرَ من له به نسبة.

قال بعضهم: وقد أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نكرم العلماء ونجلهم ونوقرهم، ولا نرى لنا قدرةً على مكافأتهم ولو أعطيناهُم جميعَ ما نملك، أو خدمناهم العمرَ كله؛ كما أخذ علينا أن نجلّ[2] العلماءَ والصالحين والأكابر، ونقوم بواجب حقهم، فان العلماء نوابُ رسول الله ﷺ وحملةُ شرعه وخدامه فمن استهان بهم تعدى ذلك الى رسول الله ﷺ، وذلك كفر. روى الطبراني - مرفوعاً- «تواضعوا لمن تَعَلَّمون منه»[3]؛ وفي رواية أيضا- مرفوعا- «ثلاثةٌ لا يستخفُ بحقهم الا منافق: ذو شيبة في الإسلام وذو العلم والإمام المقسط»[4].

ولأبي عمرو الداني رحمه الله:

فالتزم الإجلالَ والتوْقِيرا ... لمن يريكَ العِلمَ مستَنيرا
وكُن له مبجلاً مُعظما ... مُرفعاً لقَدْره مكرّما
واخفضْ له الصَّوت ولا تضجرهُ ... وما جَنى عليكَ فاغْتَفرهُ
فحقُّه من أعظمِ الحقوقِ ... وهَجره من أعظم العُقوقِ

(١) حديث: من أتى اليكم ..الخ اخرجه الطبراني في الكبير من حديث الحكيم بن عمير، وقال: ضعيف

(٢) في رواية: نبجل

(٣) حديث: تواضعوا..الخ رواه الطبراني في الأوسط، والخطيب في الجامع.

(٤) حديث: ثلاثة لا يستخف بحقهم..الخ اخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة، وقال: حسن.

وخضوع الطالب للمعلم عزٌّ وذلّته بين يديه رفعَة. ويقال: ان الامام الشافعي عوتِب على ذلك فقال:

أهينُ لهمْ نفسي فهُم يُكرمونَــها   ولـن تكرم النفس التي لاتهينها

ثم أنه ينبغي للفقيه والمتفقه معرفةُ أمر الشيوخ، ويقبح بهما جهالتها، ومن المطلوب نسبة فوائدهم إليهم، وذكرهم والثناءُ عليهم، والقيامُ بحقوقهم، والإحسانُ اليهم، لأنهم آباءٌ في الدين، وصلة بينهم وبين ربِّ العالمين، فتجبُ خدمتهم، واستعمالُ الآداب اللائقةِ معهم ـ لمن قدر ـ والا فبالدعاء لهم. واكرامُهم في الحقيقة خدمةٌ لرسول الله ﷺ، لأنهم أنصارُ دينه وحملة شريعته، وخُلفاؤه ونوابه. وفي الحديث: «أكرموا العُلماءَ فانهم ورثة الأنبياء، فمن أكرمهم فقد أكرم اللهَ ورسوله»[1]؛ وروى معاذ ـ مرفوعا ـ «من وقّر عالما فقد وقّر ربه»؛ وقال الشعبي "أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقال: إنا هكذا أمرنا ان نصنع بعلمائنا. قال له زيد: ارني يدك. فلما أخرج يده قبّلها. وقال هكذا أمرنا ان نفعل بابن عمِّ نبينا"! وقالوا: خدمة العالِم عبادة؛ وقال علي رضي الله عنه: من حق العالم عليك اذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة، وتجلس قدامه، ولا تشر بيدك، ولا تغمز بعينك، ولا تقل:قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلحَّ عليه في السؤال؛ وقالوا: اذا جلستَ الى العالِم فسل تفقهاً، ولا تسل تعنّتاً.

ومن بر المعلم اعانته في شغله والمشي حوله ان ركب، وتعظيم قدره والانصات له وتوقيره، واستئذانُه في السؤال، وستر عورته وعدم حفظ زلته وتطلُّب غرته.

ونقل عن الشيخ زروق ان من استحقر استاذَه ابتلاه الله بثلاث عقوبات: أن ينسى ماحفظه منه، وان يكلَّ لسانه عند الفزع، وأن يخرج من الدنيا بغير إيمان، والى ذلك

---

(١) حديث: اكرموا العلماء...الخ اخرجه الخطيب عن جابر وقال حديث ضعيف

أشار مَمُّ بن عبد الحميد الجكني في نظمه لسيرة شيخه يحظيه بن عبد الودود بقوله:

مستَحقر استاذه فاسمع وعِ　　لسانه يكل عند الفزعِ

ينسى علومه التي يعاني　　يفارق الدنيا بلا إيمانِ

نسأل الله السلامةَ والعافية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم قال رحمه الله :

والخَـالُ فيـهِ لَكَ مِنْ كِفَايَــــهْ
﴿ءاوى إِلَيْـهِ أَبَـوَيْـــهِ..﴾ ـ الآيَـــهْ
هُـــوَ الّذي منهُ تَنَالُ الْـمَفْخَـرَا
قَـالَ الزُّبَـيرُ: «مَـنْ أرادَ..» ـ الأثَـرا.

أشار الناظمُ رحمه الله في البيت الاول الى أنه يكفي من الحث على بر الخال وتكريمه وتبجيله كونه يعتبرأباً، مستدلا بقوله تعالى ﴿ فَلمَّا دخلوا على يُوسفَ ءاوى إليه أبَوَيْه وقال ادخُلوا مصرَ إن شاءَ الله ءامنين﴾[1]، وقد كان الذي آواه يوسفُ اليه ـ اي ضمَّه وقربه منه ـ هو ابوه يعقوب عليه السلام، وخالته، لأنَّ أمه ماتت عنه وهو صغير.

فاخبر الله تعالى بالابوة عن الخؤولة، وكذلك في قوله تعالى ﴿ورَفَعَ أبَوَيْه عَلى العَرش﴾[2]. وربما أخذ من هذا الوجه قولُهم المأثور: «الخالُ أبٌ»، ثم ان المراد بالخال هنا الجنس الشامل للذكر والأنثى. وقد ورد في الحديث أن الخالة بمنزلة الأم؛ كما وردّ فيه الأمر ببِرِّهما. فعن البَراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: «الخالةُ بمنزلة الأم» ـ رواه الترمذي في سننه وقال: حديث صحيح؛ وعن ابن عمر أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: يارسول الله اني أصبتُ ذنباً عظيما فهل لي توبة؟ قال: «هلْ لكَ من أمٍّ؟» قال: لا. قال: «هلْ لك من خالَة؟» قال: نعم. قال: «فَبِرَّها» ـ رواه الترمذي.

(١) يوسف: الآية ٩٩.
(٢) يوسف: الآية ١٠٠.

وفي البيت الثاني يري الناظمُ رحمه الله أن الخالَ هو الذي ينال منه ما يفتخربه من الخصال، والمناقب والمكارم الحميدة والأخلاق النبيلة. وأن ذلك ربما كان من ناحية الشبه. فبنية الانسان الخَلقية والخُلقية ربما أخذها غالباً من الناحية الشبهية بالأبوين او غيرهما. وقد استدل الناظم رحمه الله على ذلك بقول حَواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام في ابنه عبدالله مَقْدَمَه من افريقية:"مَن أرادأن يتزوج امرأةً فلينظر الى أبيها وأخيها فانها تأتيه بأحدهما"[1]، وقال بعضهم: المرأة تلد أخاها غالباً وأباها نادراً. والمراد بالاثر: الخبر أو قول الصحابي.

هذا وان ظاهرة الشبه الخَلقي والخُلقي ظاهرة لايمارى فيها، عرفت في القديم والحديث. فقد عرفت العرب قديما هذا الشبه، فتفاخروا بسبب ذلك بأنسابهم، سواء من الناحية الأبوية، أو الأمية. ونذكر من ذلك نماذج في ثلاثة مباحث: الأول في الفخر بالامهات والأخوال؛ الثاني في الفخر بالآباء؛ الثالث في الفخر العصامي.

أما المبحث الأول، وقد بدأنا به لذكره في المتن (هو الذي منه تنال المفخرا)، فقد أكثر فيه الشعراء قديما وحديثا. فهذا الشاعر البكريُّ، طرفة بن العبد ينفي النخوة واباءَ الضيم، وحمايةَ الحريم عن غيرِ ابنِ الحرة حيث يقول :

ونحن اذا ما الخيلُ زايَلَ بينَها   من الطَّعن نشّاجٌ مخلٌّ ومزعفُ

(١) قاله في ابنه عبدالله، امه اسماء بنت أبي بكر وأخوها عبدالله بن ابي بكر. وكان عبدالله بن الزبير في الجيش الذي وجهه عثمان بن عفان الى افريقية ففتحها الله على ايديهم، وكان عبد الله هو الذي قتل ملكها جرجيرا وحمل رأسه على رمحه فوجهه أمير الجيش عبد الله بن أبي سرح بشيراً الى عثمان فأخبره بفتحها ووصف له ما وقع فأمره عثمان أن يخرج الى المسجد فيخبر الناس فاستقبله الناس وفيهم الزبير فاعتزم وتكلم، ووصف لهم ما وقع. ولما فرغ قال الزبير: "كأني سمعت كلام أبي بكر الصديق، فمن أراد أن يتزوج امرأة.." الخ.

ولم يَحم فرجَ الحي الا ابنُ حُرةٍ   وعم الدعاءَ المرهف المتلهفُ[1]

ويوافقه الآخر، ويشاركه الرأي فيقول:

ولا يكْشف الغماءَ الا ابن حُرةٍ   يَرى غمرات الموت ثم يزورها

ويقول آخرُ:

رَمَتنيَ عن قوس العدُو وباعَدت   عبيدةُ زاد اللهُ ما بيننا بعْدا

اذا ما انتسبنا لم تَلدْني لئيمةٌ   ولم تَجدي من أن تقري بها بُداً

ويقول الشاعرُ الآخر في التعريض بمن يهجوهم انهم لو نسبوا لأم كيسة لكانوا أكياسا. ويعطي قاعدةً يراها شاملة هي أن كيس الأم يعرف في ابنائها:

فلوكنتم لكيِّسَةٍ لَكستم   وكيسُ[2] الأمِّ يُعرفُ في البنينا

وينسب الشاعر السموأل بن عاديا الإخلاص في السر الذي هو الأصل الى الأم فيقول:

صفونا فلم نكدر وأخلص سرَّنا   إناثٌ أطابت حملَنا وفُحولُ

ويقول آخرُ :

وما يَستوي المرآنِ هذا ابنُ حرةٍ   وهذا ابنُ اخرى ظهره متشركُ

وأدركه خَالاتُه فخذلنَه   ألا ان عرق السوء لابدَّ يُدرك

وفي الفخر بالأخوال يقول جعدةُ بن هبيرة بن أبي وهبٍ المخزومي:

أبي مِن بني مخزوم إن كنتَ جاهِلاً   ومن هاشمٍ أمي لخَيْر قَبيلِ

---

(١) النشاج: الذي ينشج بالدم، أي يسمع له صوت؛ والمخل ينزف بالدم فيخل بجسم صاحبه؛ والمزعف: المهلك حالا؛ وفرج الحي: موضع المخافة (وهو الثغر)؛ والمرهف: المدرك؛ والمتلهف: المتحسر؛ وعم: بمعنى عمم.

(٢) الكيس ـ بفتح الكاف: العقل؛ والكيس ـ (كجيد): الظريف، جمعه كيسى.

فمَن ذا الذي يَبْأى عليٌّ بخَالِـه   كَخالي علـيٍّ ذي النــدى وعقيل

ويقول آخـرُ:

أنا ابنُ ملكان أخوَالي بنو مُضَـرٍ   أنمى اليهـم وكانــوا مَعشراً نجبـا
المطعمون اذا هبَّـت شـئاميـــةٌ   شحــمَ السنام اذا ما بَـرّهم جدبا

ويقول آخرُ :

خالي لأنتَ ومَن جَرِيرٌ خالُـــه   يَنـــل العَلاءَ ويكرم الأخوالا

ويقول آخـرُ، وقد جمع مع الخال العمَّ ووصفهما بطيب الأصل:

وما قصرت بي في التسامي خؤولةٌ   ولكـــنَّ عمي طيب الأصل والخالُ

ومنه قول امرئ القيس الكندي، وقد جمع مع الخال الأبَ والعمَّ والجدَّ وغيرهم:

وتَعـــرف فيه من أبيه شمائـلاً   ومـن خاله ومن يزيدٍ ومـــن حجرْ
سماحـةَ ذا وبِـرَّ ذا ووفـــاءَ ذا   ونائـلَ ذا إذا صحا وإذا سَكـــرْ

وقوله أيضا:

خالي ابنُ كبشة قد علمتَ مكانه   وأبو يزيـــــــد ورهطُـه أعمـامي

أما المبحث الثاني، الذي هو الفخر بالآباء: فاذا كان الفخر بالامهات قد نال قسطاً كبيرا من شعر الفخر عند العرب، قديما وحديثا، فكيف لا يناله الفخر بالآباء؟ اذ من المعروف أن الأمهات لا يلدن لأنفسهن، وانما يلدن للآباء، وهذا ما نجده في الآية الكريمة ﴿وعَلى المَـوْلُودِ لَـه﴾[1] أي الذي وُلد له وهو الوالد. ولذلك فالأولادُ ينسبون الى الآباء لا الى الأمهات. ومن نكرانهم تأثيرَ الأم بهذه الناحية ونسبتهم تأثيرَ الشبه الى الآباء

---

(١) البقرة: الآية ٢٣٣

فقط قولُ الشاعر، وهو ينهى عن الازدراء بابن الأمَة، والأعجمية، ويرى أن الأمهات مجردُ أوعية:

لا تزدرين فتىً من أن تكون لـه   أمٌ من الرُّوم أو سوداء عجماءُ

فانما امهاتُ الناس أو عيَّـــةٌ   مستودَعات وللأبناء ابــاءُ

وفي كامل المبرد أن فتىً من فتيان قريش قال: كنتُ أغدو على سعيد بن المسيب أطلب منه العلمَ، فرأيتُني أعجبته حتى كاد يؤثرني على غيري، فسألني عن أمي، فقلت له: فتاة، فرأيتني طحت من عينه! ثم دخل عليه القاسم بن محمد بن ابي بكر. فسألته عنه، فقال " هو القاسم بن محمد بن ابي بكر، فقلت: مَن أمه؟ فقال: فتاة ! ثم دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر فسألته عنه، فقال : مثل هذا لا يجهل في قريش وجهلتَه كما جهلتَ مَن قبله، فقلت: من أمه؟ فقال فتاة! ثم دخل عليه زين العابدين بن الحسين، فلما خرج قلت: من هذا؟ فغضب، فقال: تجهل من لا يجهل؟! هذا زين العابدين بن الحسين. فقلت: من أمه؟ قال: فتاة! فقلت: يا استاذ ما جهلتُ واحداً من القوم، وأنا أعلم بهم، ولكني لما أخبرتك أن أمي فتاة رأيتني نزلت عندك من مكانٍ كنت فيه، فأردتُ أن أنبهكَ بهؤلاء أن الإنجاب لا يكون بالأمهات.

ومما يحكى ان هشاماً عابَ زيدَ بن علي فقال: بلغني أنك تريد الخلافةَ وكيف تصلح لها وأنتَ بن أمة؟! فقال: كان اسماعيل ابنَ أمة، واسحاق ابنَ حرة، فاخرج الله من صلب اسماعيل خيرَ ولد آدم.

وأنشد المامون ابن الرشيد البيتين السابقين في هذا المعنى. وفي نفس المعنى يقول الشاعر:

وهل هندُ الا مهرةٌ عربيـةٌ؟   سليلة أفراسٍ تحلَّلها بغلُ

فإن ولدت مهــراً فلله درُّه   وان ولدت بغلاً فجاءَ به البعـلُ

وفي الفخر بالآباء يقول الفرزدق ـ مخاطباً مناقضَه جريراً:ـ

أولئكَ آبائي فجئني بمثلهــمْ   اذا جمعتنَنـا يا جَــريرُ المجامعُ

ويقول الحماسي في الفخر بالآباء، ينفي ادعاءَهم لغير أبيهم :

إنا بني نَهشلٍ لا ندَّعـي لأبٍ   عنـه ولا هـو بالأبناء يشـــرينا

ويمكن أن يُنشد في الفخر بالآباء بيْتا الكِنْديِّ السابقين:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا .... الخ

أما المبحث الثالث: فهـو في الفخر العصامي[1]، وهـو الفخر الحقيقي، وان كانت العرب ومَن بعدهم قد اكثروا من الافتخار بآبائهم وأمهاتهم، فليس الفخر في الحقيقة بالأم ولا بالأب، وانما الفخر هو الفخر العصامي ـ كما يراه الكثيرون منهم ـ وكما هو الواقع في الكثير من الرجال الذين نالوا الشهرة بأعمالهم الخالدة. وقد جاء في الحديث الشريف: «من أسرع به عملُه لم يبطئ به حسبُه، ومَن ابطأ به عملُه لم يسرعْ به نسبُه»؛ ومن كلام علي كرم الله وجهه: "اعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كلِّ امرئٍ ما يحسن، فتكلموا تتبيَّنْ أقداركم". ومن هذا المعنى اخذ الشاعرقوله:

وقيمةُ المرء فيما كان يحسنــه   فاطلب لنفسكَ ما تعلوا بـه وسَلِ

وقال آخـــرُ :

فيا لائمي دعني أغالي بمهجتي   فقيمـــةُ كل الناس ما يُحسنونـه

وقالت عائشة رضي الله عنها: " كل كرم دونَه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه

(١) العصامي كناية عمن شرف بنفسه لا بآبائه، وهو نسبة الى عصام بن شهبر الباهلي حاجب النعمان بن المنذر. وفي المثل "كن عصاميا ولا تكن عظاميا". أي إشرُف بنفسك كعصام، لا بآبائك الذين صاروا عظاما.

كرم فالكَرمُ أولى به"، تريد أن أولى الامور بالانسان خصال نفسه، فان كان كريماً وآباؤه لئامٌ لم يضره ذلك، وان كان لئيماً وآباؤه كرامٌ لم ينفعه ذلك؛ وقال قسُّ بن ساعدة الإيادي: من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه، وقالوا انما الناس بأبدانهم"[1]؛ وقد قالَ الشاعر:

لا زينة المرء تعليه ولا المالُ ولا يشرفه عمٌّ ولا خالُ

وانما يتسامى للعُلى رجلٌ ماضي العزيمة لا تثنيه أهوالُ

ويعني العصامي الفخرَ بذات المفتخِر انطلاقاً من أعماله الذاتيةِ التي لا دورَ للآباء فيها. وسبب تسميته بهذا الاسم قولُ نابغة ذبيان في حارس الملِك النعمان:

نفسُ عِصامٍ سوَّدتْ عصاما وعلَّمَتهُ الكرَّ والإقداما

وصيَّرتهُ ملِكاً هماما حتى علا وجاوزَ الأقواما

ويبالغ الشاعر في الفخر العصامي حتى يحكم بأنه لا فخر الا به، وينسب الانسان الى يومه فقط، فيقول:

لعمركَ ما الإنسانُ الا ابنُ يومه على ما تجلى يومُه لا ابنُ أمسه

وما الفخرُ بالعظم الرَّميم وإنما فخارُ الذي يبغي الفخار بنفسه

ونرى الشاعر الآخر يخير الانسان في أي نسبٍ شاء ، ولكن عليه ان يكتسب الأدب ليستغني به عن النسب، ويرى أن الفتى ابنُ نفسه وليس ابنَ أبيه فيقول:

كن ابنَ مَن شئتَ واكتسبْ أدباً يغنيك مضمونُه عن النسبِ

ان الفتى من يقولُ: ها أنا ذا ليسَ الفتى من يقول: "كان أبي.."

(١) انظر العقد الفريد: ج:٢/ ص ٢٩١.

وقد قال بعضُهم:"المرء من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد، وبآدابه لا بثيابه، وبفضيلتِه لا بفصيلته[1]، وبعقله لا بعقائله[2]، وبأنبائه لا بآبائه، وبكمالِه لا بجَماله"؛ قال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالنّسب، ألا ترى أن الأخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرفَ من الآخر؟ ولوكان ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر، لأن نسبهما واحدٌ، ولكن من قبل الأفعال لأن الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب. قال الشاعر:

أبوك أبـي والجد لا شكٌ واحـدٌ ولكننا عـودان: ءاسٌ وخِـروَع[3]

فالمدار في كمال الانسان على ما يدركه بأدبه، لا بحسبه ونسبه. فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية، ومكارم الأخلاق أصدق نبأ من الأعراق. والعنوان على شرف الانسان وكرم أصله هو مايفعله، لا ما يدعيه قال الشاعر:

مَن لم يكن عنصره طيباً لم يخرج الطيب من فيه

أصل الفتى خافٍ ولكنه من فعله يظهر خافيه

ومن هذا المعنى قول بعضهم: الأدبُ خيرٌ من الأصل؛ وقال ءاخر: زينةُ المرء كمال الأدب، فالانسان قد يشرف بآدابه وان كان وضيعَ النسب، وقال الشاعر:

لكل شيء زينةٌ في الورى وزينـةُ المرء تمامُ الأدب

قد يشرف المرء بآدابه فينا وإن كان وضيعَ النسب

وحُكي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن. فقال: ابنُ من أنتَ؟ قال ابنُ

(١) الفضيلة ـ بالضاد المعجمة: الدرجة الرفيعة في الفضل؛ والفصيلة ـ بالصاد المهملة: عشيرة الرجل ورهطه الأدنون.

(٢) جمع عقيلة: للكريمة من النساء المخدرة، أو من الإبل.

(٣) الآس: ضرب من الرياحين، أونبت ينبت في السهل والجبل، دائم الخضرة؛ والخروع ـ كدرهم: نبت لا يرعى ، او كل نبت ضعيف يتثني .

الأدب، قال نعمَ النسب انتسبتَ اليه، وقد قال الشاعر:

مالي عقلي وهمتي حَسبي ما أنا مولىً ولا أنا عربي
اذا انتمَى مُنتمٍ الى أحدٍ فانني منتمٍ الى أدَبي

وينسب ابنُ هانئٍ متنبي المغرب الانسانَ الى سعيه، ويرى أن أكثر الناس سعياً هو أجدرهم بالمجد، وأن الهمة العلياء وحدها هي التي ترقى بصاحبها الى العلياء، فقدر الانسان في الحقيقة بقدر همته وما أراد، فيقول:

ولم أجد الانسان الا ابنَ سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد اجدرا
وبالهمّة العلياء ترقى الى العلى فمن كان أعلى همةً كان أظهرا
ولم يتأخر من أراد تقدماً ولم يتقدم مَن أراد تأخرا

ويقول آخرُ:

بجِد لا بجَد كلُّ مَجدٍ فهل جَدٌ بلا جِد بمُجدِ؟
فكم عبدٍ يقوم مقام حر وكم حر يُقام مَقام عبدِ!

ويشبه شاعر اخر الانسان بالعود، فهو ان لم يثمر عُدّ حطباً، ولو كان فرعاً من شجرةٍ مثمرة، فالانسانُ هو العود، والآباء هم الشجرة، فيقول:

وليسَ يسود المرءُ الا بنفسه وان عَدَّ آباءً كراماً ذوي حَسَبْ
اذا العودُ لم يثمر، ولوكان شعبةً من المثمرات ـ عدّه الناسُ من حطَبْ

ويقول آخرُ:

واذا افتخرتَ بأعظمٍ مقبورة فالناسُ بين مُكذّبٍ ومصدقِ
فاقم لنفسكَ في انتمائكَ شاهداً بحديث مجدٍ في القديم محقق

وليس الفتى في الحقيقة ذلك الذي لا يترك اثرا في الأرض يذكر به، بغض النظر عن آبائه:

ليس الفتى بفتىً لا يستضاءُ به — ولا يكون لـــه في الأرض آثارُ

وبعضهم يفتخر بكرم الأوائل ولكنه لا يتكل على ذلك، فحَسْبُ، بل يحذو حذوَهم حتى يكون له نفس المفخر الذي لأوائله، لأن كرم الآباء لا يعتمد عليه الا ساقط الهمة.

وهذا ما نراه في قول عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر:

لسنا ـ وإن كرمت أوائلنا — يوماً ـ على الأحساب نتّكلُ

نبني، كماكانت أوائلنا — تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا

واذا خالفتْ صفة الانسان صفات آبائه ـ مهما بلغوا من الشرف والكرم ـ فماذا سيفيده الانتساب الى اولئك الآباء؟ قال الشاعر:

اذا لم تكن نفسُ النسيب كأصلـه — فماذا الـــذى تُغني كرامُ المناصب؟

ولأبي الحسن التهامي في المعنى :

لا تحسبن حسب الآباء مكرمةً — لمـــن يقصر عن غايات مجدهم

حسنُ الرجال بحسنْاهم وفخرهم — بطُولهم في المعالي لا بطُولهم[1]

ومن هذا المعنى نرى عامرَ بن الطفيل العامريَّ يتبرأ من أن ينال السمو بأبيه وأمه، على الرغم من أنه يفتخر بسيادة ابيه وشجاعته حيث يقول:

---

(١) الطول، بفتح الطاء: الفضل؛ وبضمها: ضد القصر. يعني أن الجمال في الرجال هو التخلق بالاخلاق النبيلة، والتحلي بالاوصاف الجميلة، لا بحسن المنظر، والاتكال على كريم النسب. ولقد أحسن من قال:

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم — اذا كانت الاخلاق غير حسان؟

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى — فما كل مصقول الحديد يماني

وإني وإن كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ   وفارسِها المشهور في كلِّ موكبِ
فما سودتني عامرٌ عن وراثةٍ   أبَى اللهُ أن اسمو بأمٍّ ولا أب
ولكنني أحمي حِمَاها وأتقي   أذاها وأرمي مَن رماهَا بمنكبِ

وقال آخرُ :

ولا تتكل في طلاب العلى   على نسبٍ ثابت أصله
فما من فتى زانه أهله   بشيءٍ وخالفه فعله

ونرى الطغرائيَّ ايضا وان كان يفتخر بكرم أوائل اسرته، يرى انه هو مبدأ السؤدد والكرم لنفسه، وأنه انما يسمو بفضائله، وان كان يعترف أن هناك من يسمون ويسودون بالمال وغيره،فيقول:

أبى الله أن أسمو بغير فضائلي   اذا ما سما بالمال كلُّ مسودِ
وان كرُمتْ قبلي أوائلُ أسرتي   فإني بحمد الله مبدأ سؤددي
وما منصب الا وقدري فوقه   ولو حطَّ رحلي بين نَسر وفرقد
اذا شرفت نفسُ الفتى زاد قدرُه   على كل أسنى منه ذكراً وأمجد
كذاك حديد السيف إن يصف جوهراً   فقيمته أضعافُه وزن عسجَد

وقد قال بعض من تناول هذا المعنى: ان قصارى القول ان من الناس من يتكل على حسب آبائه فيفتخر به لدى جُلسائه او اخلائه في صباحه ومسائه، ولا ينهض لمآثره ، ولا يصبوا الى مفخره، بل شأنه ان يقول في كل مجال: ان ابي كان ذا فضل وجاهٍ وجُود واحسانٍ حتى سارت بحمده الركبان، وشدا بمدحه كل قاصٍ ودان، وهكذا يبني أوهامَه، ويضيع لياليَه وأيامَه، ومن الناس من يُقر بخسة أصله، ولكنه يفتخر بجده واجتهاده،

حتى يحاول أن يستر بفضله ما بدا من عيب أصله. فاذا ذُكر لأحد حسبٌ قال لا حسب للمرء الا الأدب، ولا فخر للمرء الا بنفسه، لا بأصله وجنسه. وهذا القول اذا كان في نفس الامر صوابا. وهو الذي يَعتمد عليه كثير من ذوي الآداب ـ فانه لا يُنكَر أن للأصول تاثيراً للفروع عظيما فلا تكاد ترى ذا أصل زكيٍّ الا وتتوسم فيه خلقا وسيما، وشأنا كريماً. فاذا اجتمع الأصلُ والفعلُ واقترنا، كان ذلك غاية المنى، والا فالثاني خيرٌ من الأول وأكرم منه وأفضل. والله سبحانه وتعالى أعلم.

تنبيه في التعريف بالزبير (رضي الله عنه)

هو الصحابي الشجاع أحد العشرة المشهودِ لهم بالجنة: الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي، القرشي ثم الأسدي، أبو عبدالله وابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه.



أسلم وله اثنتاعشرة سنة وهو أول من سلَّ سيفه في الاسلام، شهد بدراً وأحُداً وغيرَهما، وشهد اليرموك، وجعله عمر في أهل الشورى الستة. وكان موسراً كثير المتاجر، وكان له ألف مملوك يؤدون له الضريبةَ لا يدخل بيتَ ماله درهمٌ منها يتصدق بها. خلف املاكاً كثيرةً، وكان طويلا خفيفَ اللحية أسمر اللون، كثيرَ الشعر.له ثمانية وثلاثون حديثاً. قتله عمْرو بن جرموز. غيلةً ـ يوم الجمل بوادي السباع، على سبعة فراسخ من البصرة سنة ست وثلاثين، عن اثنتين أو ثلاث وستين سنة. والله سبحانه وتعالى اعلم.

وكُـلُّ مَـنْ سَمَـا عليكَ تُكْرِمُــهْ
وكُـلُّ مَنْ صَغُـرَ عَنْكَ تَـرحَـمُــــه
أمَا رَوَيْتَ، قِـدْمـاً أو حَدِيثــــا،
«وَلا تَـزَالُ أمَّـتي..» ـ الحـديثا ـ؟

سمـا: أي ارتفع، والمرادُ به هنا التـقـدم في السـن، أو في المعنى، كمن رفـعـه العلم؛ والتكريم: التعظيمُ والتنزيه؛ والرحـمـة: الرقـة والشـفـقـة؛ وروى الحديث: نقله؛ وقـدمـا: بمعنى قديما، ويقابله الحديث؛ والحديث في آخر البيت: الخبر المروي عنه ﷺ.

يقـول: اما سـمـعتَ في السـابق او القريب الحديثَ الذي هو: «لا تزال امـتي بخـيـر..» الى آخر الحديث؟.فالاستفهام تقريري مضمَّن معنى الاخبار، فكأنه يخبر ان هذا الحديث الذي أشار له شائع عند الجميع فالاخبار بمضمونه من حيز المعلوم. ولا يخفى ما بين قوله «قِـدْمـاً او حـديثـا» من جناس المقـابلة، ولا مـا بين الحـديث ءاخر البـيت، وحـديثـا في مصراعه الاول من الجناس الخطي اللفظي.

لما ذكر رحـمه الله من يجب بره وصلتـه، ذكـر أن من الأدب توقـيـر الكبـيـر وتكرمـتـه ورحـمـة الصـغـيـر والشـفـقـة عليـه. واسـتـدل على ذلك بحديث: «لاتزال امـتي بخيرٍ مادامَ صغيرُها يوقر كبيرَها، وكبيرُها يرحمُ صغيرَها»[1].

ومن المعلوم أن من ءاداب الاسلام ومحـاسن الاخلاق توقـيـر الكبيـر ورحـمـة الصـغـيـر. وقد وردفي السنة المطهرة الحثُّ على ذلك في غيرما حديث، فـقـد قـال ﷺ: «ليـس منـا من لم يرحم صـغـيـرنا ولم يعـرف شرفَ كـبـيـرنا»، وفـي رواية «لم يوقـركـبـيـرنا» ـ رواه

الترمذي وابو داوود[1]؛ وقال: «ليس منا من لم يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا ويَعرفْ لعَالمِنا حقه»[2]؛ وقال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويامر بالمعروف وينهَ عن المنكر» ـ رواه الترمذي من حديث ابن عباس؛ وقال: «ان من اجلال الله اكرامُ ذي الشيبة المسلم وحامل القرءان غير الغالي فيه ولا الجافي عنه واكرام ذي السلطان المقسط» ـ رواه البخاري في الادب المفرد؛ وقال: «ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه الا قيض الله من يكرمه عند سنه»[3] ـ رواه الترمذي.

وقد قالوا: من تعظيم جلال الله أن يوقر ذو الشيبة في الاسلام. وعن عبدالله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهلَ الأرض يرحمكم من في السماء» ـ رواه ابو داوود[4]؛ وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تنزع الرحمةُ الا من شقي» ـ رواه ابو داوود والترمذي.

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

ومن سما عنكَ سنّاً فلتكن ولداً ... لـه وان كان فظاً، فاحترم كبـرَه

وكنْ لكل صغيرٍ والداً حَدِبـاً ... وان أتـى بعقوق، فارحمَن صغرَه

وبماتقدم من الحث على توقير الكبير ورحمة الصغير يتعين على كل أحد ان يعامل كلا بما يليق به، فيعطى الكبيرَ حقه من الشرف والتوقير، ويعطي الصغير حقه من الرحمة والرفق به.

---

(١) قوله: ليس منا: يعني من اهل الكمال منا من لم يرحم صغيرنا، يعني الصغير من المسلمين.

(٢) حديث ليس منا من لم يجل كبيرنا.. الخ : اخرجه الحاكم واحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت، ومعنى يعرف لعالمنا حقه، اي يحترمه، ويطيع امره في غير معصية.

(٣) فيه دليل على ان من اكرم شخصا اكبر منه سخر الله له من يكرمه في شيخوخته جزاء وفاقا.

(٤) سنن أبي داوود / كتاب الأدب ـ باب الرحمة.

فإجلال الكبير وتوقيره هو حقُّ سِنه لكونه تقلب في العبودية لله في أمد طويل، ولما خص به من السبق في الوجود وتجربة الامور. وقد قال الحافظ العراقي: ان الحديث يدل على ان الكبير انما يستحق الإكرام اذا كان له شرف بعلم او صَلاح ونسب زكي كالشرف. ويحتمل أن التعمير في الاسلام شرف لما ورد في الحديث: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»[1]. نعم ان كان شيخا سيئ العمل فلا يستحق الاكرام، لقوله في بقية الحديث: «وشر الناس من طال عمره وساء عمله»، لكنه جاء في حديث: «مامن شابٍّ اكرم شيخاً لسنه الا قيض الله له من يكرمه عند سنه»[2]. فظاهر الاكرام أنه للسِّن بغير قيد، قاله في فيض القدير/شرح الجامع الصغير.

ورحمة الصغير بالشفقة عليه والاحسان اليه، والرفق به لعجزه وضعفه، ولأن الله تعالى رحمه ورفعَ عنه خطاب التكليف. هذا وتطلب رحمة الخلق أجمعين ومراعاتهم كيف ما كانوا فانهم عبيد الله وان عصوا، وخلق الله وان فضل بعضهم على بعض. ولقد أحسن من قال:

ارحم بُني جميع الخلق كلهم   وانظر إليهم بعين اللّطف والشفقهْ
وقّرْ كبيرَهم وارحم صغيرَهم   وراع في كل خلقٍ حقَّ مَن خلقَهْ

ثم ان الكبير محمول على الكِبَر المعنوي والحسي وهو السن، اذ قد يكون الكبير في السن صغيراً في المعنى لجهله وغباوته وخرقه وغفلته، فتنبغي رحمته بالتعليم والإرشاد والشفقة،كما أن الصغير في السن قد يكون كبيراً في المعنى، لعلمه وفضله، فينبغي أن يعطى حقه من التكريم والاحترام وتعرف له درجته التي رفع الله له بما ءاتاه من العلم؛

---

(1) حديث: من طال عمره وحسن عمله..الخ :رواه الترمذي في سننه واحمد في مسنده.

(2) حديث: ما من شاب ..الخ : رواه الترمذي.

فقد قال جل شأنه: ﴿يرفع اللهُ الذينَ ءامنُوا منكُم﴾ ثم قال: ﴿والذينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجات﴾[1]. ولقد أحسن من قال:

فان كبيرَ القَومِ لا عِلمَ عنده صَغيرٌ اذا التفَّتْ عليه المحافِلُ
وإن صغيرَ القومِ والعِلمُ عنده كَبيرٌ إذا رُدَّتْ اليه المسائلُ

والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) المجادلة: الآية ١١

ولاَ تَكُنْ عَلَى المَــوَالِــي فاحِشَـا
واحْــذَرعَلَى الْحَقِيرِ أنْ تُنَاقِشَــا
وإنْ إلَى النَّادِي انْتَدَيْتَ فَلْتَــكُنْ
عَنِ الخَنَى أصَمَّ، لِلْخَيْرِ فَطِــــنْ
وإنْ يَخُوضُوا في الهُدَى فانْتَبِهَنْ
ولاَ تُصَـاخِبَــن ولاَ تُقَهْقِهَـــــنْ

الموالي: جمع مولىً يطلق على العم وابنه، وعلى الابن والجار والنزيل والقريب مطلقا؛ والفاحش: البذي السيئ الخلق المتعدي في القول والجواب؛ والحقير: التافه؛ والمناقشة: الاستقصاء في الحساب؛ والنادي: مجلس القوم في الحديث ماداموا مجتمعين فيه، وجمعه اندية، ونوادٍ؛ وانتدى القوم وتنادوا: اجتمعوا فيه، وانتدى الرجل: حضر الناديَ. والنادي: قيل هو من الندى وهو الكرم، لانهم يُقصدون فيه فيعطون. وقيل هو من النداء الذي هو الصوت، لأنه ينادي فيه بعض القوم بعضاً ليجتمعوا، وقيل هو من الندى وهو العَرَق لأن الداخل فيه يحتشم فيعرق؛ والخنى: الفُحش في الكلام، وأخنى عليه في الكلام:أفحش؛ والفطن للأمر: المدرك له المتفهم فيه؛ وخاض القوم في الحديث وتخاوضوا: تفاوضوا فيه؛ والهدى: الرشاد وضد الضلال؛ وانتبه للأمر: فطن له؛ والتصاخب: اختلاط الأصوات، وتصاخب القوم: تصايحوا؛ والقهقهة: الترجيع في الضحك، او اشتداده.

نهى الناظم هنا، رحمه الله ، عن سوء الخلق سواء كان في القول او الفعل على الموالي بالمعنى الشامل، بل ولا مفهوم لهم عن غيرهم، لأن الأمر بكفِّ اللسان وغيره من سائر الجوارح عامٌ فيجب أن يتجنب إيذاء كل مسلم. وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن الفحش والتفحش وذمُّه.

وقد قال عبد الله بن عمر: "لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشا"[1]؛ وعنه أنه ﷺ قال: «ألأمُ أخلاق المؤمن الفحش»[2]؛ وقال: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللّعان ولا الفاحش ولا البذي»[3]؛ وقال ابن عباس: " ان الله لا يحب الفاحش المتفحش"؛ وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ماكان الحياءُ في شيءٍ الا زانَه ولا كان الفحش في شيءٍ الا شَانَه»[4]؛ وعن ابي بكرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الحَياءُ من الإيمان والايمان في الجنة، والبذاء من الجفاء والجفَاء في النار» . رواه في الأدب المفرد[5].

وقد اتفقت الحكماء على تقبيح الفحش والنطق به. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

ولازم الصمتَ لا تنطق بفاحشَةٍ وأكرم الجارَ لا تَهتِكْ له حرما

وقال آخرُ :

وان نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم اخصص بجفوَتيَ الموالي

(١) الفاحش: ذو الفحش في كلامه وأفعاله، والمتفحش: الذي يتكلف ذلك ويتعمده.

(٢) حديث: الأم اخلاق المؤمن..الخ: اخرجه البخاري في كتابه الادب المفرد عن عبدالله بن عمرو.

(٣) حديث: ليس المومن..الخ: رواه الترمذي عن عبدالله بن عمرو ، وقال حسن غريب، واخرجه البخاري في الأدب المفرد، واحمد في المسند.

(٤) حديث: ماكان الحياء..الخ:اخرجه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وابن ماجه في سننهما.

(٥) حديث: الحياء من الايمان..الخ: أخرجه الترمذي عن ابى هريرة، وقال حسن صحيح، وروواه ابن ماجه.

ولم اقطع أخاً لأخٍ طريـــــفٍ ولم يذمم لطــرفته وصالـــي

وللحسن بن رجاء:

أحبُّ مكارم الأخلاق جهــــدي وأكــره أن أعيب وأن أعـــابا

وأصفح عن سباب الناس حلمـاً وشـر الناس من يهـوى السبـابا

ومن هابَ الرجالَ تهيّبـــــوه ومـــن حقـر الرجال فلـن يُهــابا

ومن قضت الرجالُ له حقــوقا ولم يقـــض الحقوقَ فما أصابا

ويحتـمل أن يكون مـراد الناظم بالموالي: الأرقـاء فـيكون قـد نهى بصـفـةٍ خاصـة عن معاملة العبيد معـاملةً سيئة، سواء كانت في القـول او في الفعل، لأن الرقيق أسير في أيدى الناس ضعيف الجثة، مأمور بالاحسان اليه. فقد دخل في مَن أمر بالاحسان اليهم، لعطفـه عليـهم في قـوله تعـالى: ﴿واعـبُـدوا اللهَ ولا تشـركُـوا به شـيْـئـاً وبالوَالدَيْن إحسَاناً﴾.. الى قـوله تعـالى: ﴿ومـا مَلَكتْ أيْمانُكم﴾[1]. ولهـذا فقد حثّ رسول الله ﷺ على مـعـاملة الأرقـاء مـعـاملة الأهل والأبناء، ونـهى عن تكليـفـهم بما لا يطيـقـونه، وأمر باعانتهم، وظلّ يوصي بهم حتى ءاخر اللحظات التي ودّع فيها أمّتَه.

فقد ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي امّته في مرض الموت يقول: «الصلاةَ، الصلاةَ ومـا ملَكَتْ أيمانكم»؛ وعن علي كـرم الله وجهه: كـان ءاخرَ كلام النبي ﷺ: «الصلاةَ، الصلاة، اتقوا الله في ما ملكت ايمانكم»[2]؛ ورُوِيَ أنه قـال: «أوصيكم بالضعيـفين: المرأة والمملُوك»؛ وقـال «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه يورثـه، ومازال يوصيني

---

(١) النساء : الآية ٣٦.

(٢) حديث:كان آخر كلام النبي..الخ: رواه أبو داوود وأخرجه البخاري في كتابه "الأدب المفرد".

بالمملوك حتى ظننتُ أنه يضربُ له أجلاً ووقتاً اذا بلغه عتق»[1]؛ وعن ابي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «اخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم فاطعموهم مما تأكلون والبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فان كلفتموهم فأعينوهم»؛ وعن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة سيىءُ الملكة»[2] ـ رواهما الترمذي وابن ماجه؛ وقال عليه السلام: «حسن الملكة نماء، وسوء الخلق شؤمٌ، والبر زيادة في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء»[3]؛ وعن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «للمَملوك طعامُه وكسوته، ولا يكلف من العمل الا ما يطيق» ـ رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد؛ وعنه ايضا عن رسول الله ﷺ قال: «مَن قذفَ مملوكَه بالزنى يقام عليه الحدُّ يوم القيامَة، الاّ أن يكون كما قال»[4]؛ وعن أبي مسعود الانصاري قال: كنتُ أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتا: «اعلم ابا مسعود لَلّهُ أقدر عليك منك على هذا الغُلام» فالتفتُّ فاذا هو رسول الله ﷺ، فقلتُ: يارسول الله هو حُر لوجه الله، فقال: «لو لم تفعل للفَحَتْك النارُ، أو لمستك النار» رواهما مسلم. فقد ندب ﷺ السادةَ الى مكارم الاخلاق وحضهم عليها وارشدهم الى الاحسان، والى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لانفسهم مزيةً على عبيدهم، اذ الكل عبيد الله، والمال مال الله، لكن سخر بعضهم لبعض وملّكَ بعضهم بعضاً، إتماماً للنعمة، وتنفيذاً للحكمة. وفي الحديث «ان الله ملّككم اياهم ولو شاء لملّكهم اياكم».

فالله سبحانه وتعالى لطيف بعباده رفيق بهم. فينبغي للسادة امتثال ذلك في عبيدهم

---

(١) حديث: مازال ..الخ: اخرجه البيهقي في السنن عن عائشة.

(٢) سيئ الملكة: اي الذي يسيئ صحبة المماليك.

(٣) حديث: حسن الملكة..الخ: اخرجه الامام احمد في مسنده والطبراني في الكبير عن رافع بن مكيث.

(٤) اي الا أن يكون المملوك مرتكب الفاحشة كما قال مالكه فلا يحد في الآخرة.

و من ملكهم الله اياهم. ويجب عليهم حسن الملك ولين الجانب، كما يجب على العبيد حسنُ الطاعة، والنصح لسادتهم، والانقياد لهم، وترك مخالفتهم، وقد وعدهم الله تعلى على ذلك بالأجر الجميل، والجزاء الجليل. فعن نافع عن عبدالله بن عمرَ عن النبي ﷺ قال: «إذا نصح العبدُ سيده، واحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين»، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبد المملوك المصلح اجران»[1]، والذي نفس ابي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبر امي لأحببت أن أموت وأنا مملوك! ـ رواهما البخاري ومسلم.

وقد نهى الناظم ايضا عن المناقشة على الحقير التافه الذي لاقيمة له. فالمناقشة عليه أقرب الى البخل والشحّ منها الى الاستقصاء في طلب الحقّ، وقد قيل الكريم لا يستقصي ولا يستوفي. ولله در الشاعر حيث يقول:

وسامح ولا تَستوفِ حقكَ كلَّه   وابقِ فلم يستقصِ قطُّ كريمُ
ولا تغلُ في شيئٍ من الأمر واقتصد   كلا طرفيْ قصد الأمور ذميمُ

ومما يستجاد في هذا المعنى قولُ العلامة أحمد بن احمذيّ الحسني:

أقول لمن يناقشُ وهو مثرٍ   فقيراً عن حقيرٍ كالنَّقيرِ
رويدكَ لا تناقش عن حقيرٍ   حقيرٌ من يناقش عن حقيرِ

وقد قال بعض العلماء ان المناقشة على الحقير والاستقصاء فيه لا سيما مع الاقارب والجار، مما يخل بالمروءة، ويُعد من البخل الذي قال فيه النبي ﷺ: «[2] وأيُّ داءٍ أدوأ

---

(١) المصلح: الناصح لسيده، والقائم بعبادة ربه له أجران لقيامه بالحقين، ولانكساره بالرق.

(٢) حديث: وأي داء.. الخ رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد في المسند والحاكم. وفي تاج العروس «وأي داء أدوى من البخل، أي عيب أقبح منه؟. قال ابن الأثير الصواب: أدوأ ، بالهمز»، هـ/منه.

من البخل؟»، والبخل: منع مايوجبه الشرع والمروء ة، ومنه من يضايق في الاستحقاقات بقدرهن. وقد اشار الى ذلك العلامة محمد مولود بن احمدفال اليعقوبي بقولــه:

فمنع ما يَجِب شرعاً أو مُرُو ءةً هــو البخل اللذيا يذكـر

فالواجب الشرعـــي كالزكاةِ والنفقاتِ وحُقـــوق الناتِ

وفكُّ نفــسٍ ، ومثالُ الآخـرِ ترك المضايَقــةِ في محـــقر

وتركُ الاستقصاءِ فيـه أحرى مـن جارٍ اوقريبٍ أو من اثرى

الـــى أن قال:

ومَن يضايق من المضايقـــه في حقـه كالجار غيـر لا ثقه

هتَكَ أستار المروء ة كمـــــا قـــال اجلاءُ الهداة الحكمـا

وقوله: «وان الي النادى انتديت»الخ: يقول رحمه الله اذا حضرت مجلس القوم فلتكن أصم متغافلا عن كل النواقص والرذائل التي تطرق فيه حتى تكون كانك لم تسمع ولم ترَ، حتى يخوضوا في حديث غيره من الاحاديث النافعة التي ترشد وتهدي الى مسالك وطرق الجنان وتُباعِدُ عن النيران، فلتتفطَّن لها ولتَكن مدركاً متفهما، وكن كما قال الشاعر:

ولا أعرف الفحشاء الا بوصفـها ولا انطق العوراء والقلب مغضب

وقول الآخر:

ألا حظُّ من خليطي كل زيــن كما أغضي لـــه عن كل شَيْنِ

ولا أصغي الى العوراء حـتى يَرى اني أصمُّ المسمعيْـــــنِ

وكقول الآخر:

فهناكَ ان ترَ ما يَشين فَـواره   كرماً وان ترَ ما يـزين فأفشـه

ثم ان التصامُم عن انواع الخنى والفحشاء يُعد من الصفات الحميدة التي لا يتصف بها الا الكريم اللبيب. فينبغى للشخص أن ينزه سمعه عن استماع الخنى. كما ينزه لسانه عن الكلام به، فان السامع شريك القائل كما قال الشاعر:

تحرَّ من الطرق اوساطهـا   وعـدَّ عن الجانب المشتَبِهْ

وسمعَكَ صُنْ عن قبيح الكـلام   كصـون اللسان عن النطق به

فانك عند استماع القبيـح   شـريكٌ لقائله فانتبِـه

ومن كلام بعض الحكماء: العاقل هو الفطنُ المتغافل. وقال معاوية: العَقل مكيالٌ ثلثه فطنة وثلثاه تغافل؛ وقال حبيب بن أوس الطائي المعروف بابي تمام:

ليس الغبيُّ بسيد في قـومه   لكنَّ سيـدَ قـومه المتغـابي

وهو المتجاهل عن الشيء وهو عارف به، وهو مما يحمد به الرجل. ولبعض الشعراء في هذا المعنى :

يأبى ليَ الذمَّ أخلاقٌ مكرمـةٌ   منـي وأذن عن الفحشاء صمّـاءُ

والنجم أقرب من سرِّي اذا اشتملـت   مـني على السرِّ أضلاعٌ وأحشاءُ

وقال آخـرُ :

يصم عن الفحشاء حتى كأنـه   اذا ذكرت في مجلس القوم غائبُ

وقال آخـرُ :

قل ما بدا لكَ من زورٍ ومن كـذبٍ   حلمـي أصمُّ وأذني غيرُ صمّـاءِ

ولكعب بن سعد الغنوي:

وعوراءَ قد قيلت فلم استمع لهـا　　وما الكلِمُ العـــوراء لي بقبول[1]

وما أنا بالشيء الذى ليس نافعـي　　ويغضـــب منه صاحبـي بقؤولِ

وقال آخـــرُ :

سريعٌ الى ابن العَمِّ يجبر كسرَه　　وليــس الى داعي الخنى بـــسريع

ولكعب بن زهير:

اذا أنتَ لم تعرض عن الجهل والخــنى　　أصبتَ حليماً أو أصابَكَ جاهــلُ

ولأصرم بن قيس:

أصم عن الكلم المحفِظــاتِ[1]　　واحلُـــم والحلم بي أشبَـهُ

واني لأتركُ جــلَّ الكــلام　　لئــلا أجابَ بما أكـــرهُ

اذا ما اجتررتُ سفاهَ السفيـه　　عـليَّ فانـي أنا الأسفـــهُ

ولمحمد بن زيادٍ يصف حلماء:

تخالهم في الناس صُمّاً عن الخنى　　وخُرْساً عـن الفحشاء عندَ التَّهاترِ[2]

ومرضى اذا لاقوا حياءً وعفــةً　　وعنــدَ الحفاظ كالليـوثِ الكواسِرِ

لهم ذلٌّ إنصافٍ ولينُ تواضـــعٍ　　بهـــم ولهم ذلت رقابُ العشائــر

كأن لهم وصمـاً يخافــون عـارَه　　ومـاذاك الا لاتِّقـاء المعايـــر

ولـه أيضا:

وارفع نفسي عن نفــوس وربمــا　　تــذللتُ في اكـرامها لنفـــوسِ

---

(١) العوراء الكلمة القبيحة.

(١) المحفظات: المغضبات.

(٢) تهاتر القوم: ادعى كل على صاحبه باطلاً، وهاتره: سابّه بالباطل، والتهاتر الشهادات التي يكذب بعضها بعضا..

وان رامني يوماً خسيسٌ لجهلــه   أبى اللهُ أن أرضى بعِرض خسيس

ولصلاح الدين الصفدي:

وان بليت بشخـص لا خلاقَ لــه   فكن كأنكَ لم تسمـــع ولم يَقُلِ
واستشعر الحلمَ في كل الامـور ولا   تُسرع ببادرةٍ يوماً الـــى رجُل

ومن وصية عبدالله بن شداد لابنه: يا بني ان سمعت كلمةً من حاسد فكن كانك لستَ بشاهد، فانك ان امضيتها حيالها رجع العيب على من قالها. ولحاتم طيئ:

وكلمة حاسد في غيـر جـرمٍ   سمعـت فقلت: مرى فانفذيني
فعابوها علي ولم تسؤنـــي   ولم يعــرق لها ابداً جَبينـــي
وذو اللَّونيْن يلقاني صديقـاً   وليـــسَ اذا تغيَّـب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنـه   مـحافظـةً على حسبي وديني

وقال آخـرُ:

اذا ماسفيهٌ نالني منه نائـــلٌ   مـــن الذم لم يحرج بموقفه صـدري
اعود على نفسى فان كان صادقـاً   عتبتُ على نفسى وأصلحتُ من أمري
والا فماذنبى الى الناس ان طغـا   هـواها فما ترضى بخيرٍ ولا شـــر؟

واذا كان الناظم قد أمر بصون السمع عن الخنى فاللسان احرى بترك ما جلب، وكذا البصر. وقد قال الشاعر:

وغضّ عن المكروه طرفكَ واجتنبْ   أذى الجارِ واستمسك بحبلِ المحَامدِ

وقال المثقب العبدي:

لا تراني راتعاً فـي مجلـسٍ　　في لحوم الناس كالسَّبْع الضرم[1]

وكلام سـيء قد وقـرت[2]　　عنـه أُذناي وما بي من صمَمْ

فتصامَمـتْ لكيما لا يـرى　　جاهـلٌ أنى كما كان زعـمْ

ولَبعض الصفح والاعـراض عن　　ذي الخنى ابقـى وان كان ظلم

وقال آخـرُ:

ولما رأى المجدَ استعيرت ثيابه　　تـردّى رداءً سابغَ الذيل واتَّزَرْ

إذا قيلت العَوْراءُ أغضى كأنه　　ذليـلٌ بلا ذلٌّ ولو شاء لانتَصَرْ

وقال آخـرُ :

ان الكريم اذا رأى عيباً ستَرْ　　أما اللئيمُ اذا رأى افشى الخبَرْ

ليس اللئيم يضر الا نفسَـه　　والله يغفـر للكريم كما غفرْ

وقال آخـرُ :

واغفرْ عـوراء الكريم ادخاره　　واعـرضْ عن شتم اللئيم تكَرُّما

وقال آخـرُ:

خذ مـن خليلك ما صفـا　　ودع الـذي فيه الكَدرْ

فالعمـر اقصر من مُعـا　　تَبةِ الخليـل على الغيَر

وقال آخـرُ :

ان الفتى من بماضِ الحزم متصـفٌ　　وما تعـوَّدَ نقصَ القولِ والعَمَلِ

---

(١) السبع بضم الموحدة ـ وسكنه ضرورة؛ والضرم: الشديد النهم، من ضرم النار وهو التهابها.

(٢) وقرت الاذن: كوعد، ووجل، وقرا: ثقل سمعها أو ذهب كله . هـ/ق

ولا يعُد عيوباً للورى أبَـــــداً بل يعتني بالــــذي فيه من الخلل

ولا يظنُّ بهم سوءاً ولا حســـنا بل التجارب تهديــــه على مهـلِ

ومن قصيدة لعلي كرم الله وجهه:

ودع المزاح فرب لفظة مـــازح جلبت اليـــكَ بلابِلاً لا تـــدفع

وحفاظ جارك لا تضعه فانــــه لا يبلغ الشرف الجسيمَ مضيـــع

واذا استقالك ذو الاساء ة عثرةً فأقله ان ثوابَ ذلك اوســـــع

وقد نهى الناظم ايضا عن التصاخب والقهقهة لدلالتهما على الغفلة، واخلالهما بالمروء ة، وللنهي الوارد من الشارع عنهما. فعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقلَّ الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب»، وفي رواية «لاتُكثروا الضحكَ فانَّ كثرة الضحك تميت القلبَ»؛ وعنه ايضا قال: خرج النبي ﷺ على رهطٍ من أصحابه يضحكون ويتحدثون فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» . روى الثلاثةَ البخاريُّ في كتابه الادب المفرد.

ومِن آداب المجلسِ التي ينبغي التحلي بها لمن انتدي اليه ما أشار اليه العلامة البشير بن امبار يگ في وصيته بقوله:

لا تحضـــرنَّ مجلساً للسُّفهـــا بــــل اعتزل وجالســنَّ النبهـا

ولا تزد ان الضرورة قضـــتْ للسفها على الذي له اقتضتْ

وجْهَ الجليس لا تكُـــن نظارا واسمع حديثَـــه ولــو تكرارا

لا تقطعَن حديثَه وان يطـــــل في غيرما يعني فبالذكر اشتغلْ

بحيث ظاهراً تكونُ منصـــتا وباطِنـــاً معتـزلاً ومخبتـــا

واغتبطنَّ كـــونه تَـولَّـــى عنكَ الكلامَ خوفَ أن تـــزلا

وليكن السكوتُ فيك أكثــرا لا سيما عند حضـــور الكبرا

وان تحُـــدثْ فلتكن مفيــدا وما بــه حدثتَ لا تُعيـــدا

واجتنــبْ الغيبَةَ والبُهتانـــا والفخــرَ والجدلَ والأيْمانـــا

ولا «تحُامـرْ»، قلّل المِـــزاحا والضحكَ واللعبَ و«التكراحا»[1]

فكثرة الغَفلــة والمَــلاهـــي ممَّــا يجــرُّ لعــــذابِ الله

وبدلـــن ضمـــائرَ الخطـــابِ بغَيْبـةٍ فـي مجلـــس الآداب

من كل محكيٍّ اذا ما انصــرفا الـــى الجليس كان ذكره جفا

ولا تنَم في مجلس ذي قـــدري بـــل مطلقاً، من نام ليس يدري

والله سبحانه وتعالى أعلم . ثم قال رحمه الله :

(١) تحامر: كلمة شعبية (عامية)معناها المحاكاة للغير وتقليد اقواله وافعاله على سبيل النبز والمزاح، والهزل والمداعبة؛ والتكراح (بكاف معقودة) كلمة شعبية ايضا معناها تكلف البلاغة في الكلام.

وَالصَّبْرَ، فَالصَّبْرُ مَرِيرُ الْمُـــزْدَرَدْ،
مُدْمِنُـهُ حَـرٍ بِنَيْـلِ ما قَصَــــدْ

«أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ» - رَوَوْهُ، وارْتُضِي
«رُمْتُ المَعالي فامْتَنَعْنَ» للـرَّضي

الصبر: هو حبس النفس على المكروه وعما تدعو اليه من الملذوذ، وعبر بعضهم عنه فقال: هو امساك النفس عند المكروه خوفاً من الله وأملا في رضاه ؛ وقال بعضهم : الصبر هو تحمل النفس مكاره الحياة، وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته؛ والمزدرد: اسم مفعول من ازدرد اللقمةَ اذا ابتلعَها، او اسرع في ابتلاعها؛ والمدمنُ للشيء: المديم له؛ ومعنى حر بنيل ما قصد: أي حقيق بوجود ما اراد؛ والرضى يعني به الشريفَ الرضي محمد بن الحسين[1].

فقول الناظم «والصبرَ» بالنصب بعامل محذوف تقديره: الزَم؛ وقوله «فالصبرُ» الثاني مرفوع على الابتداء واخبر عنه بما بعده.

حث رحمه الله في هذين البيتين على اقتناء فضيلة الصبر والتحلي به ونبَّه على صعوبة ذلك وبيَّن ان عاقبته محمودة. واستشهد على ذلك بقوله «اخلق بذي الصبر»، يشير به الى قول الشاعر:

أخلق بذي الصَّبر أن يُحظى بحاجته   ومُدمَنِ القرع للأبواب أن يلجا[2]

(١) سياتي التعريف به ان شاء الله تعالى.

(٢) ستاتي ان شاء الله جملة الابيات التي منها هذا البيت ونسبتها لقائلها.

كما استشهد عليه ايضا بقوله «رمت المعالي فامتنعن»، يشير الى قول الشريف الرضـي:

رمتُ المعالي فامْتنعنَ ولم يـزل   أبداً يمانـــع عاشقـاً معشـــوقُ

فصبرتُ حتى نلتهنَّ ولم أقــل   ضجراً: "دواءُ الفارك التطليق"[1]

ثم ان للصبر انواعاً كثيرة وقد تختلف اسماؤه باختلافها. قال الغزالي رحمه الله: الصبر انواع وتختلف اسماؤه باختلاف الشيء المصبور عنه، فمنه الصبر البدني كتحمل المشاق البدنية، ومنه الصبر النفسي وهو انواع: فان كان عن مشتهيات الطبع فهو عفة، وان كان على مصيبة اقتُصر فيه على اسم الصبر، ويقابله الجزَع؛ وان كان في حرب سمي شجاعة، ويقابله الجُبن؛ وان كان في كظم غيظ سمي حلماً، ويقابله النزق .. الى غير ذلك.

ثم ان العاقل الصابرَ هو الذي يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد. والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب، ولولا الصبرُ لانهارت نفس الانسان من البلايا التي تنزل عليه.

ولا يخفى أنَّ الله تعالى مدح الصبر في كتابه العزيز، وأمر به، وجعل اكثر الخيرات منوطاً به، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ ءامَنوا اسْتَعينوا بالصَّبر والصَّلاةِ إن اللّهَ مع الصابرين﴾[2]، فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين؛ وقوله تعالى: ﴿وجعلنا منهُم أئمـةً يَهْدونَ بأمْرنا لَمَّا صَبروا﴾[3]، وأمر نبيه

---

(١) الفارك: المبغضة لزوجها، قال:

احبك ان خبرت انك فاركٌ   لعمري اني مولع بالفوارك

(٢) البقرة: الآية: ١٥٣.

(٣) السجدة: الآية ٢٤.

ﷺ به فقال تعالى: ﴿فاصْبِركما صَبرَ أولوا العزم من الرُسل﴾[1]؛ وقال: ﴿وتَمّت كَلمةُ ربّك الحسنى على بني اسْرائيلَ بما صَبَروا﴾[2]، ومدح نبيه أيوب عليه السلام لاتصافه بالصبر بقوله: ﴿إنّا وجدناهُ صابراً نعمَ العَبدُ إنه أواب﴾[3]. ولقد أحب الله سبحانه وتعالى الصابرين واخبر في كتابه العزيز انهم ينالون مزيداً من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إنّما يُوفّى الصابرونَ أجرَهم بغيْر حساب﴾[4]؛ وقال: ﴿ولَيَجْزينّ الذين صبروا أجرَهم بأحسن ما كانوا يعْمَلون﴾[5]؛ وقال: ﴿وجزاهُم بما صَبروا جنّةً وحَريرا﴾[6]، واخبر سبحانه وتعالى أن الصبر من الخصال العظيمة التي ينبغي أن يتصف بها المؤمنون فقال سبحانه وتعالى: ﴿وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلكَ من عزْم الأمور﴾[7]، والصبر الذي دعا اليه القرآنُ هو ملكة الثبات والاحتمال التي تهوّنُ على صاحبها ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق، وازالة الباطل، او احتمال اذى الناس، وما يلاقيه من مصاعب كالفقر والمرض، وفقد الحبيب.. الخ، فقد دعا سبحانه وتعالى اليه في كتابه العزيز في مواطن المثابرة على العبادة، فقال جلّ شأنُه: ﴿فاعبُده واصْطَبر لعبادته﴾[8]؛ وقال: ﴿وأمُرْ اهلكَ بالصلاة واصطبِر عليها﴾[9]، ودعا اليه في موطن

---

(١) الأحقاف: الآية ٣٥.

(٢) الأعراف: الآية ١٣٧

(٣) ص : الآية ٤٤.

(٤) الزمر: الآية ١٠.

(٥) النحل: الآية ٩٦.

(٦) الإنسان: الآية ١٢.

(٧) ءال عمران: الآية ١٨٦.

(٨) مريم: الآية ٦٥.

(٩) طـه: الآية ١٣٢.

تحمل اذى الناس، فقال تعالى ﴿وانْ عاقَبتم فَعاقِبوا بمثل ما عُوقبتم به ولَئِنْ صَبَرتم لهُوَ خيرٌ للصّابرين واصبر وما صَبرك الا بالله﴾[1]؛ ودعا اليه في موطن البلاء الذي يمتحن الله به عبادَهَ فقال: ﴿ ولَنبلُونَّكم حتى نعلمَ المجاهدينَ منكُم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾[2]، وعدّد انواع البلاء بقوله: ﴿ولَنَبلونّكم بشيءٍ من الخَوف والجُوع ونقّصٍ من الأموال والانفس والثَّمَرات﴾[3].

وبالجملة فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيِّف وسبعينَ موضعاً. وهذا يدل على عظم أمره لأنه أساس كثير من الفضائل بل هو اهمها فما من فضيلة الا وهي محتاجة اليه.

كما بينت السنة المطهرة فضيلته ورغَّبت فيه، وحثت عليه. فمن ذلك ما ورد في بعض الآحاديث أنه ﷺ قال: «أفضل الإيمان الصبر والسماحَة»[4]؛ وقال: «الصبر ستر من الكروب وعونٌ على الخطوب»؛ وقال: «النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسراً»[5].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "افضل العدة الصبر على الشدة"؛ وقال علي كرم الله وجهه: "الصبر مطية لا تكبو وسيفٌ لا ينبو"؛ وقال للأشعث بن قيس: "ان صبرتَ جرى عليك القلم وأنت مأجور، وان جزعت جرى عليك وأنت مأزور، ومن كلام بعض الحكماء: ما جُوهِد الهوى بمثل العقل، ولا استنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حُفظت النعم

(١) النحل: الآية ١٢٦.

(٢) محمد: الآية ٣١.

(٣) البقرة: من الآية ١٥٥ الى ١٥٧.

(٤) حديث: أفضل الإيمان.. الخ أخرجه البخاري في التاريخ، والديلمي في مسند الفردوس ـ كما في الجامع الصغير.

(٥) حديث: النصر مع الصبر..الخ: رواه الخطيب عن انس، وابن النجار، كما في مختارات الأحاديث النبوية.

بمثل المواساة، ولا اكتُسبت البغضاء بمثل الكِبر، ولا استنجحت الامور بمثل الصبر؛ وقالوا: الصبر على المروءة صعبٌ وتحملها عبء، ولولا أن المروءة اشتدت مؤنتها وثقل حملها ما ترك اللئامُ للكرام منها شيئاً. ولكنه لما اشتدت مؤنتها وثقل حملها حاد عنها اللئام فاحتملتها الكرام؛ وقالوا: من أراد طول البقاء فليوطن نفسه على المصائب؛ وقالوا: المصيبةُ للصابر واحدة وللجازع اثنتان، لأن احداهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب اجر الصبر وهو أعظم من المصيبة؛ وقال اكثم بن صيفي: الصبر حيلةُ من لا حيلة له؛ وقال: من صبر ظفِر؛ وقال بعض الصلحاء: اصبر لحكم من لا تجد معوّلا الا عليه، ولا مفزعا الا اليه. والصبر محمود العاقبة، والمتحلي به سيظفر بمطلوبه.

ولمحد بن بشير في هذا المعنى :

ماذا يكلفُك الروحَاتِ والدلجا — البرَّ طوراً وطوراً تركبُ اللُّجَجا[1]
كم من فتىً قصرت في الرزق خطوته — ألفيته بسهام الرزق قد فَلِجا[2]
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة — إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فرجا
ان الأمورَ اذا انسدَّت مسالكُها — فالصبرُ يفتح منها كل ما ارتُتِجا[3]
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته — ومُدمن القرع للأبواب أن يلجا
قدِّر لرجلك قبل الخطو موضعَها — فمن علا زلقاً عن غِرة زلِجا
ولا يغرنَّك صَفوٌ أنت شاربُه — فربما كان بالتكدير ممتزجا

وقال آخر :

(١) الروحات: جمع روحة: المرة من الرواح: وهو السير من الزوال الى الليل؛ والدلج، محركة:سير الليل كله أو آخره؛ واللجج: جمع لجة وهي معظم الماء.

(٢) فلج: فاز وظفر، والفالج من السهام: الفائز.

(٣) يقال: ارتتج بوزن اقتتل، بالبناء للمفعول: من ارتجت الباب ارتاجا: اغلقته اغلاقا وثيقا.

عليك اذا ضاقت أمُورك والْتَـوَتْ بصبرٍ فان الضيـقَ مفتاحُه الصبرُ
ولا تَشكُون الا الى الله وحـــده فمـن عنده تأتي الشدائد والبشــرُ
عسى فرج يأتي به الله انـــــه لــه كل يوم فـــي خليقته أمــــرُ
إذا لاح عسرٌ فارْجُ يسراً فانــــا قضى الله أن العسرَ يتبعه اليسرُ

وقال آخـــــر :

أما والذي لا يعلم الغيبَ غيــــرُهُ ومن ليس فـي كلّ الأمور له كُفْوُ
لئن كان بدءُ الصَّبر مراً مذاقُـــــه لقد يجتنى مـــن بعده الثمر الحُلوُ

وقال آخـــــر :

اصبر على مضض الإدلاج في السحر وفـي الرواح على الطاعات والبُكَر
لا تضجرنّ ولا يعجـــزك مطلبهـــا فالنجح يتلف بين العجز والقصــرِ
إني رأيت . وفي الأيام تجربـــــةٌ . للصبر عاقبةٌ محمودة الأثـــــرِ
وقلّ من جدّ في أمرٍ يُحـاوِلُـــــه واستصحب الصبرَ الا فاز بالظَّفرِ

وقال آخـــــر:

على قدر فضل المرء تاتي خُطوبُـــه ويُحمد منه الصبر فيما يُصيبـــه
فمن قلّ فيما يلتقيه اصطبـــارُه فقد قــلّ فيمـــا يرتجيه نصيبُـــه

وقال آخـــــر :

اصبر قليلاً وكُن بالله معتصِـــما لا تَعجلـــنّ فان العَجـز بالعجـل
الصبرُ مثل اسمه في كلّ نائبـــةٍ لكـن عـواقبُه أحلى من العسَـــل

وقال آخـــــر :

ويـوم كأنَّ المصطلـين بحـــرِّه ـ وإن لم تكن نارٌ ـ قيامٌ على الجَمْرِ
صبــرنا لـه حتى تقضى وإنمـا تُفـــرَّج أيامُ الكريهـــة بالصبـر

وقال آخـــر :

تصبَّـر أيهــا العبدُ اللّبيـــب لعلك بعـد صبـركَ ما تخـيبُ
وكـل الحادثـات وان تنَاهَــت يكـــون وراء هـا فَـرَجٌ قـريـب

وقال آخـــر :

بنَى اللهُ للأخيار بيتـاً سمـــاؤه هُموم وأحـزان وحيـطانُـه الصَّبرُ
وأدخَلَهُـــم فيـه وأغلـقَ بابَــه وقالَ لهُـم مفتاحُ بابِكُـم الصَّـــبرُ

وقال آخـــر :

اصبر على نوَبِ الـــزمان فهكذا مضَــت الـدهـــور
فـرَحٌ وحـــزنٌ تــــارَةً لا الحـزن دامَ ولا السـرور

وقال آخـــر:

قدخضتُ في الدهرأطواراً على طُرق شتى وقاسيت فيها اللينَ والفظعـا[1]
كـلاً بلـوت فلا النعماءُ تطربـــني ولا تشكيـــتُ من لأوائه جَـــزعـــا
لا يملأ الهَـول صـدري قبل مـوقعـــه ولا أضيـــق بـــه ذرعـاً إذا وقَـــعا

وقال آخـرُ :

صَبِّـر النفس عنـد كل مُلـــمٍّ ان فــي الصـبر حيلـةَ المحـتال
لا تضق في الامور ذرعاً فقـد يكـ ـشفُ غمـاؤهـا بغيـــر احتيـال

---

(١) فظع الأمر: اشتدت شناعته، وجاوز المقدار في ذلك.

ربما تجرع النفوس من الأمـــ ـــر لـــه فَرجةٌ كحـلّ العقال

وقال آخـــر :

تصبر فَفي اللأواء قد يُحمد الصبرُ ولولا صروفُ الدهر لم يعرف الحرُّ
وان الذي ابلى هو العون فانتـدب جميلَ الرضى يبقى لك الذكر والأجرُ
وثق بالذي أعطى ولا تَكُ جازعـاً فليس بحزمٍ ان يروّعكَ الضـــر
فلا نعمٌ تبقى ولا نقـمٌ ولا يدومُ كلا الحالين: يسرٌ ولا عسرُ
تقلب هذا الأمر ليس بدائـم لديـه مع الأيام حلوٌ ولا مُـرُ

وقال آخـــر :

إذا ما رماكَ الدهر يوماً بنكبةٍ فأفرغ لها صبراً وأوسع لها صدرا
فإنّ تصاريفَ الزمان عجيبةٌ فيوماً ترى يُسراً، ويوماً ترى عُسرا

وقال آخـــر :

ما عضّني زمنٌ الا لبستُ له ثوباً منَ الصبرِ لا يبلى مدى الزّمنِ
ان الكريمَ اذا نابَتْـهُ نائبـةٌ ألفَيتَه وجميلَ الصبر فى قَرنِ[1]

ولابراهيم النبهاني:

تعَزّ فان الصبرَ بالحر أجمَلُ وليس على ريب الزمان معوّل
فلو كانَ يغني أن يُرى المرءُ جازعاً لِحَادثـةٍ أو كان يغنى التذلل
لكان التعزى عند كلِ مصيبـة ونائبةٍ بالحر أولى واجمـل
فكيف وكلّ ليس يعدو حِمامَـه وما لأمرئٍ عما قضى الله مزحل

---

(١) القرن بالتحريك: حبل يقرن به البعيران.

فان تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسى ونعمى والحوادث تفعَل

فما ليَّنَتْ منا قناةً صليبَةً ... ولا ذلّلتنا للذي ليس يجمل

وقَيْنا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحّتْ لنا الأعراضُ والناسُ هزّل

تنبيه في التعريف بالرضى

هو الشريف ابو الحسن : محمد بن الحسين بن موسى العلوي الحسيني ينتهي نسبه الى الحسين بن علي كرم الله وجهه. كان من كبار الشعراء وكان ذا عفة وورع وهيبة. ويقال انه أشعر قريش، لأن المجيدَ منهم ليس بمكثر، والمكثر ليس بمُجيد، أما هو فقد جمع بين الاجادة والإكثار.

وله ديوان شعر تغلب فيه القوة والعذوبة والجزالة، جمع نهج البلاغة، طبع في مجلدين. وله عدة مؤلفات. انتهت اليه نقابة الأشراف في حياة والده. ولد رحمه الله ببغداد سنة ٣٥٩، وتوفي بها سنة ٤٠٦ هـ[1].

ومن شعره في الغزل:

احبك يالونَ الشباب لأنني ... رأيتُكما في القلب والعين توأما

سكنت سواد القلب اذ كنت شبهه ... فلم أدر مِن عز مَن القلب منكما ؟

ومنه ايضا في الشيب:

ضوء تشعشع في سواد ذؤابتي ... لا أستضيء به ولا استصبحُ

بعت الشبا بَ به على مقتٍ له ... بيعَ العليم بأنه لا يربحُ

(١) ملخصا من كتاب البلاغة الواضحة، ومنجد الأعلام، وكتاب الأعلام.

تكملــة في مكانة الشعر

لما كان الناظم رحمه الله قد استشهد عدة مرات في هذه المنظومة بالشعر الذي هو الوثيقة الخالدة، حتى قيل:"الشعر ديوان العرب والمقيد لأيامها والشاهد على أحكامها"، وكنا قد استشهدنا به كثيرا في هذا التعليق، بالاضافة الى أنه أهم عناصر الأدب الذي بدأ الناظم بالحض عليه؛ كان من المناسب أن نورد بعضَ ماقيل في الحض على تعلمه، والتشبث بحفظه. فقد قال رسول الله ﷺ: «ان من الشعر لحكمة»[1]؛ وقال عمر رضي الله عنه:" تعلموا الشعر فان فيه محاسن تنتقى ومساوئ تتقى"؛ وكتب الى أهل الأمصار"علموا أولادكم العَوْمَ والفروسةَ، ورووُّهم ما سار من المثل وما حَسُن من الشعر"؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "الشعر علم العرب وديوانها، فتعلموه"؛ وقال معاوية رضي الله عنه: "ان العاقَّ ليروي الشعر فيبر، وان البخيل ليرويه فيسخو، وان كان الجبان ليرويه فيقاتل"؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: "روُّوا أولادكم الشعر تعذب السنتُهم"؛ وعنها ايضا أنها كانت تقول: "الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ بالحسن ودع القبيح"؛ وقد سئلت أكان النبي ﷺ يتمثل بشئٍ من الشعر؟ فقالت: "كان يتمثل بشئٍ من شعر عبد الله بن رواحة ويتمثل، ويقول:[2] «ويأتيك بالأخبار من لم تزود»[3]".

وعن عمرو بن الشريد عن الشريد قال: استنشدني رسولُ الله ﷺ شعر امية بن ابي الصلت، وانشدته فأخذ النبي ﷺ يقول: «هِيهِ.. هيهِ» حتى انشدته مائة قافية، فقال

---

(١) حديث :"ان من الشعر لحكمة "رواه ابن ماجه وابو داوود في سننهما من حديث ابي بن كعب.

(٢) حديث عائشة : كان يتمثل.. رواه الترمذي وقال: حسن صحيح / ورواه البخاري في الأدب المفرد.

(٣) من شعر طرفة بن العبد المأثور من قصيدة اولها: لخولة اطـــلال ببرقة ثهــــمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
الى قوله فيها: ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيكَ بالأخبار من لم تـزود !

«إن كادَ ليسلـم»[1]؛ وقال يزيد ابن عياض الليثي: ما ابرم عمر بن الخطاب امراً قط الا تمثل فيه ببيت شعر؛ وقال عروة بن الزبير: ماكان ينزل بعائشة شيءٌ الا انشدت فيه شعرا. وقد قال أبو الزناد: مارأيت أحدا أروى للشعر من عروة بن الزبير.

ويروى ان عبد الملك بن مروان دفع ولده الى الشعبي يؤدبهم، فقال: روِّهم الشعر يمجدوا وينجدوا[2]؛ وقال كعب الأحبار: انا نجد قوماً في التوراة أناجيلهم في صدورهم تنطق السنتهم بالحكمة واظنهم الشعراء. وسمي الشاعر شاعرا لفطنته. ولبعضهم في هذا المعنـى :

الشعر يحفظ ما أودى الزمان بـه   والشعر أفخر ما ينبي عـن الكَرمِ
لولا مقالُ زهيـر في قصائـده   ما كنت تعرف جوداً كان في هَرِمِ

وقال آخـرُ :

ولـولا خصالٌ سنّها الشعرُ ما درى   بُغاةُ العُلى من أين تؤتَى المكارمُ
يرى حكمة ما فيه وهو فكاهـة   ويقضي بما يقضي به وهو ظالـمُ

وقالآخـرُ :

أرى الشعـرَ يحيي الجودَ والبأسَ بالـذي   تبقيـه أرواحٌ لـه عطـرات
وما المجد لولا الشعر الا معاهـدٌ   ومـا الناس الا أعظـم نَخِرات[3]

وقال دعبل الخزاعي:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد،ورواه مسلم. وهيه، بكسر فسكون فكسر: أي قل، والثانية بمعنى: زد.

(٢) ولوصيته بقية ، وهي ".. وأطعمهم اللحم تشتد قلوبهم ، وجزّ شعورهم تشتد رقابهم، وجالس بهم علية الرجال يناقضوهم الكلام.

(٣) نخرات : اي باليات متفتتة.

يقولون إن ذاق الردى مات شعـــره وهيهات!! عمر الشعر طالت طوائله

سأقضي ببيت يحمد الناس أمـــره ويكثر مـــن أهل الروايـــة حامِلُه

يموت رديُ الشعر من قبل أهلـــه وجَيّـــده يبقـى وإن ماتَ قائلُـــه

ولابن الوردي: هو عنوان على الفضل، وما أحسن الشعر اذا لم يبتذل!

وكذلك الأمثال السائرة: فهي من أشرف ما وصَّل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو اشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلامُ سيدنا محمد رسول الله ﷺ عنها، وهو افصح العرب لسانا، واكملهم بيانا. كما ورد منها كثير في كلام العرب والمولّدين[١] والعامة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لنْ تَنالوا البِرَّ حتى تُنفقوا مِمَّا تُحبُّون﴾[٢]؛ ﴿الآنَ حَصْحصَ الحَقُّ﴾[٣]؛ ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَسْتفتِيان﴾[٤] ﴿أليسَ الصُّبحُ بقَريب﴾[٥]، ﴿أتامُرونَ الناسَ بالبِرِّ وتنسونَ أنفُسَكم﴾[٦]، ﴿قُلْ كُلٌّ يعمَلُ على شاكِلتِه﴾[٧]، ﴿ماعلى الرَّسُول الأ البَلاغُ﴾[٨]..

ومن الأمثال من الحديث النبوي: «إنما الأعمَالُ بالنِّيات، وإنما لكلِّ امرىءٍ ما نوى»[٩]،

---

(١) المولدون من الشعراء والادباء: جمع مولد بصيغة اسم المفعول فيهما اي المحدث، سموا بذلك لحدوثهم.

(٢) ال عمران: ٩٢.

(٣) يوسف: الآية ٥١.

(٤) يوسف: الآية ٤١.

(٥) هود: الآية ٨١.

(٦) البقرة: الآية ٤٤.

(٧) الاسراء: الآية ٨٤.

(٨) المائدة: الآية ٩٩.

(٩) حديث: إنما الأعمال بالنيات ..الخ رواه البخاري ومسلم.

«من حُسن اسلام المرءِ تركُه ما لا يَعنيه»[1] «اذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرمُوه»[2]، «أنزِلوا الناسَ منازلَهم»[3]، «اليَدُ العُليا خيرٌ من اليَدِ السفلى»[4]، «يَدُ الله مع الجماعَةِ»[5]، «حدِّثْ عن البحر ولا حرج».

ومن امثال العرب:"ان من البيان لسحرا"، "ان الجواد قد يعثر"، أيُّ الرجال المهذب؟"، آفة المروءة خلفُ الوعد"، " بلغ السيلُ الزبى"[6]، "رحم الله من هداني الى عيوبي"، "سبقَ السيف العذل"..

ومن أمثال العامة والمولّدين:"السلامة احدى الغنيمتيْن"، "الحرُّ حر وان مسه الضر، والعبد عبد وان ملك الدر"، "تعاشروا كالاخوان وتعاملوا كالاجانب"، "ريق العدو سمٌّ قاتل"، "صديق الوالد عمُّ الولَد"، "غش القلوب يظهر في فلتات الألسن وصفحات الوُجوه"، "لوكان المزاح فحلاً لم ينتج الا شَرا"..

والله تعالى اعلم.

---

(١) حديث : من حسن اسلام المرء ..الخ :اخرجه الترمذي وابن ماجه في سننهما من حديث ابي هريرة.

(٢) حديث اذا اتاكم..الخ: اخرجه ابن ماجه عن ابن عمر.

(٣) حديث: انزلوا الناس..الخ: اخرجه أبو داوود عن عائشة..

(٤) حديث: اليد العليا..الخ: رواه البخاري ومسلم وابو داوود عن عبد الله بن عمر.

(٥) حديث : يد الله ..الخ: رواه الترمذي عن ابن عباس.

(٦) جمع زبية وهي الرابية لا يعلوها الماء فاذا بلغها كان مجحفا جارفا. هذا مثل يضرب لاشتداد الامر وانتهائه الى غاية بعيدة.

وإنْ أسَا وَأحْسَنَ ابْنُ العَمِّ

فَانْشدْ له: «إذا احسَنَ ابنُ العَمِّ..»

بالشَّيْءِ جُدْ عَلَى العَشِيرِ عِفَّا

عَنْ شَيْئِهِمْ، وعَنْ أذَاهُمْ كُفَّا

«لَسْتُ لِقَوْمِي..» لِلزُّبيدي أنْشِدِ

«..............»

أساء اليه: ضد أحسن ؛ والعشير، والعشيرة: القبيلة. جمع الأول عشراء، وجمع الثاني عشائر وعشيرات؛ وعف عن الشيء، وتعفّف: كفّ عنه، وامتنع منه؛ والزبيدي نسبة الى زبيد بنِ ربيعة بن سلمة بن مازن، والمراد به هنا: الشاعر ذو الغارات المشهورة: عمْرو بن مَعدى كربَ الزبيدي، فالنسبة الى جده زبيد.

حثّ الناظمُ في البيت الأول على معاملة ابنِ العم ومن في معناه من ذوي القرابة بالبر والاحسان، وقبول الاحسان منه، والتجاوز عن زلاته مستشهدا على ذلك بقول الشاعر، وقد ضمَّنه الناظم في نظمه:

اذا أحسن ابنُ العمِّ بعد إساءةٍ　　فلستُ لشرِّيْ فعله بحَمولِ

يقول: اذا صدر اليك من ابن العم ـ مثلا ـ احسان واساءة فعامله بإحسانه واصفح عن اساءته متمثلا في ذلك ومنشدا لسانُ حالكَ قولَ الشاعر: اذا احسن ابن العم بعد اساءة ـ البيت . ثم حضّ على مواساة العشيرة بصفةٍ عامة، والعفافِ عما لديها، والكفُّ عن

أذاها مستشهداً على ذلك بقول عمرو بن معدى كرب الزبيدي:

ولستُ لقومي بعَيَّابة وشَرُّ العشيرة مَن عابَها
أعفُّ وابذلُ مالي لها ولا اتعلَّمُ ألقَابَها[1]

ثم ان الصفح والإعراض عن الأذى والتجاوز عن الزلات. وبذل المعروف من أحسن ما يتحلى به الانسان ، وقد ندب اليه القرءانُ والسنة المطهرة. فقال جل من قائل: ﴿فاصْفحْ الصَّفحَ الجميل﴾[2]؛ وقال: ﴿ وإذا خَاطَبَهم الجَاهلونَ قالوا سَلاما﴾[3]؛ وقال: ﴿ فَاصْفَح عَنهمْ وقل سلامٌ فسوفَ تعلمون﴾[4]؛ وقال: ﴿ فَاعْفوا واصفَحُوا حَتى ياتيَ اللهُ بأمْره﴾[5]؛ وقال: ﴿ وإذا سمعُوا اللّغوَ أعرضوا عَنه وقالوا لنَا أعمالُنا ولكُم أعمالُكم سَلامٌ عَليكم لا نبتَغي الجاهلين ﴾[6].

فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالصفح الجميل عمن أساء. والمراد بالصفح الحلم والاغضاء، أو هو الرضى بغير عتاب، او حسن المخالقة، وهي المعاملة بحسن الخلق؛ وأمرُه ﷺ أمرٌ لأمّته لأنه قدوة لهم، والمشرع لهم. وقال ﷺ :«أفضل الفضائل أن تصِلَ من قطعَكَ وتعطيَ من حرمك وتصفح عمن ظلمكَ»[7].

---

(١) اي لا اتتبع محلّ النبز منها واللمز. والمراد بالالقاب التي يكرهها المخاطب. ولبعض الفزاريين في هذا المعنى:

اكنيه حين اناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوءة اللقب
كذاك ادبت حتى صار من خُلقي أني رأيت ملاك الشيمة الأدب

(٢) الحجر: الآية ٨٥.

(٣) الفرقان: الآية ٦٣.

(٤) الزخرف: الآية ٨٩.

(٥) البقرة: الآية ١٠٩.

(٦) القصص: الآية ٥٥.

(٧) حديث: افضل الفضائل.. الخ : اخرجه احمد في مسنده والطبراني في الكبير عن معاذ بن انس، كما في الجامع الصغير

وقد ذكر غير واحد ان من حسن الخلق بذل المعروف للخلق، وكفّ الأذى عنهم والعفو عن الزالّين الا تأديبا واقامةً للحدّ، وكفّ الأذى عن كل مسلم او معاهد الا تغييراً لمنكر او اخذاً بمظلمة من غير تعدٍّ. وقد قالوا: أكرم الناس من وصل من قطعَه وعفا عمّن ظلمه، وواسَى من حرمه. ومما قيل في الصفح عن ذوي القرابة والتغاضي عن زلاتهم:

ولا أدَعُ ابنَ العمِّ يمشي على شفاً ... وان بلغتني من اذاه الجنادع[1]

ولكن أواسيه وأنسى ذنوبَه ... لِترجعَه يوماً اليَّ الرواجِع

وحسبكَ من ذلٍّ وسوء صَنيعَةٍ ... مناواةُ ذي القربى وان قيل قاطع

ولِحاتِم طيّئ :

وما من شيمَتي شتمُ ابن عمّي ... ولا أنا مخلفٌ من يرتجيني

وكِلمَةِ حاسد في غير جرم ... سمعتُ فقلت: مرى فانفذيني

فعابوها عليّ ولم تعبْني ... ولم يَعرَق لها أبداً جَبيني

وذو اللّونين يحسبني صديقاً ... وليس اذا تغيب يأتليني

سمعت بعيبه فصفحت عنه ... محافظة على حسبي وديني

ولعبيد بن الأبرص :

اذا أنت لم تعمل برأيٍ ولم تُطع ... اولى الرأي لم تركن الى رأي مرشدِ

ولم تجتنب ذمّ العشيرة كلّها ... وتدفع عنها باللسان وباليَدِ

وتحلم عن جهالها وتحوطها ... وتقمع عنها نخوةَ المتهدد

فلستَ، ولوعللتَ نفسك بالمُنى، ... بذي سؤددٍ بادٍ ولا قرب سؤدَدِ

---

(١) ما يسوء من القول.

وقال آخرُ :

ألا سامح أخاكَ اذا تعدى   وألقِ اليه في الحرب السلاحَا
فمن يَعتب على الإخوان يتعبْ   ومن لزمَ المسامحةَ استراحا

ومما يُنسب لعامر بن الطّفيل:

فلا يرهب ابن العم والجار صَولتي   ولا اختشي من صولة المتوعد
واني ان أوعدتُه أو وعَدتُه   لُمخلف إيعادي ومنجز موعدِي

وللمغيرة بن حبناء:

وخذ من أخيك العفوَ واغفر ذنوبَه   ولا تكُ في كل الأمور تعاتِبُهْ
فانكَ لا تلفي أخاك مهذباً   وأيُّ امرىءٍ ينجو من العيبِ صاحبُه؟
أخوكَ الذي لا ينقضُ النأي عهده   ولا عندَ ريب الدهر يَزْوَرُّ جانبه
وليس الذي يلقاكَ بالبُشر والرضى   وإن غبتَ عنه لسَّعتكَ عقارِبُه

وقال آخرُ :

وذي رحم قلّمتُ أظفارَ ضِغنه   بحلميَ عنه حين ليسَ له حلمُ
اذا سمتُه وصلَ القرابة سامَني   قطيعتَها تلك السفاهَةُ والإثم
فداوَيتُه بالحلم والمرءُ قادرٌ   على سهمه ماكان في كفِّه السهمُ

ومعلومٌ أن الناظم ما اقتصر في الحضّ على الصفح عن ابن العمّ الا على سبيل المثال. بل كذلك المعاملة بالنسبة لسائر الأقارب والاصدقاء والجار، والى الناس جميعا للحديث: «وخالق الناس بخُلقٍ حسن»[1]- الحديث/رواه الترمذى.

---

(١) الحديث بتمامه: عن ابي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» . رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح..

ولطاهر بن عبد العزيز:

اذا ما خَليلي أسَا مـــرة وقد كان فيمـا مضى مُجمـلا
ذكرتُ المقدم من فعلـــه ولم ينسني الآخــرُ الأولا

وقال آخـرُ :

خليلكَ مهمـا أسا غَطِّـه ولا تُخـفِ شيئاً إذا أحسَـنا
وكـن كالظلام مـع النارِ اذ يُـواري الدخانَ ويبـدي السَّنا

ويقـول المتنبي :

فان يكن الفعلُ الذي ساءَ واحداً فأفعالُـه اللائي سررنَ أُلُـوفُ

وقال آخـرُ :

واصفح عن ذنب الصديق وغيره لسكنايَ بيت الحق بين الصفائـح
وازهدْ في مدح الفتى عند صدقه فكيفَ قبولي كاذباتِ المدائـحِ؟

وقـد قـيل: اذا اردت أن تعـيشَ مع الناس فـسامح اخـوانَك وصِلْهم على مـا بهم من عيـوب، واذا اردت ان لا يزل عليك صديق فعش منفردا. ومن هذا المعنى أخذ بشـار بن بردقـولَه:

اذا كُنتَ في كـل الأمور معاتِبـاً صـديقكَ لم تُلفِ الذي لا تُعاتِبُـهْ
فعشْ واحداً أو صِل أخاك فإنـه مُقارفُ[1] ذنبٍ مـرةً ومجانِبُـه
اذا أنتَ لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأيُّ الناس تصفـو مشاربُه؟

ولأبي العتاهية:

---

(١) مقارف الذنب: مرتكبه.

الْبَس الناسَ ما استطعت على النقـــ ـــص والا لــمْ تستقم لك خُلّه
عِشْ وحيداً إن كنتَ لا تقبل العذْ رَ وان كنـــت لا تجاوز زلّــه

ومماقيل في الصفح والمسامحة والمعاشرة بالمعروف:

اذا شئتَ ان تحيا سليماً من الردى وديـنُــك موفورٌ وعِرضك صَينُ
لسانكَ لا تذكرْ به عـورةَ امــرىءٍ فكُلُّكَ عوراتٌ وللناس ألسُـنُ
وعينك ان أبـدت إليكَ مساوئـاً لقـومٍ فقـل: ياعينُ للناس أعيُن
وعاشر بمعروفٍ وسامح من اعتَدى ودافــعْ ولكن باللتي هي أحسنُ

وقال آخــرُ :

وعيبٌ على الإنسانِ ينسى عيـوبَه ويـذكرُ عيباً في أخيه قد اختفى
فلو كانَ ذا عقـل لما عابَ غيــرَه وفيـه عيوبٌ لـو رءاها قد اكتفي

وقال آخــرُ :

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستَــروا فيهتـكَ اللهُ ستراً عن مساويكا
واذكر محاسـن مافيهـم اذا ذكروا ولا تعِـب أحداً منهم بما فيكـا

ومما ورد في المعنى الثاني الذي ذكره الناظم، والذي هو مواساة الجميع، والتعفف عما لديه والكفُّ عن اذايَته قولُ الشاعر:

واذا رزقـتَ من النوافِـل ثــروة فامنح عشيرتك الأداني فضلَـها
واعلم بانك لن تُسوَّد فيهــم حتى ترى دمث(1) الخلائق سهلها

وقال آخــرُ :

---

(1) لينها، والدماثة: سهولة الخلق.

ولا تحرم المرء الكريم فإنـــــه اخـوك ولا تدري لعلّكَ سائلـه

ويقول آخـرُ:

لقد علمت عميرة أن جـــاري اذا ضـــنَّ المُنمي من عيالــي
فاني لا أضـنُّ على ابن عمـــي بنصـري في الخطوب ولا نَوالي
ولست بقائلٍ قولاً لأحظَـــى بقولٍ لا تصـــدقه فعالـــي

ويقول آخرُ :

وليـس المالُ فاعلمه بمالٍ وان أرضاكَ الا للـــذيٌّ
ينال به العلاء ويصطفيه لأقـربِ أقرَبيه وللقَصــيٌّ

ويقول آخـرُ:

اذا كنت ذا مال ولم يك نافعـــاً لمـن هو ذو قربى ومن هـو ذو فقـر
فمالك في الدنيا يجر مذمّـــة ولم يأت في الأخرى بشيءٍ من الأجر
ولا خير في ذكر الفتى بثرائـــه اذا لم يزد شيئاً علـــى أنه مثـرِ

أما الأحاديث بالاستعفاف عن مسألة الناس فكثيرة. فمن ذلك ما ورد في حديث سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلّني على عمل اذا عملته أحَبّني الله وأحبّني الناسُ . فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد في ما عند الناس يحبك الناس» ـ رواه ابن ماجه.

وكان عمر رضي الله عنه يقول في خطبته: "ان الطمع فقرٌ وان اليأس غنىً "؛ ومن كلام علي كرم الله وجهه: "اكثر مصارع العقول تحت بروق الأطماع"؛ وقال الحسن: لا يزال الرجل كريماً على الناس ما لم يطمع فيما في أيديهم، فحينئذ يستخفون به،

ويكرهون حديثه ويبغضونه. وقال أيوب السختيانيُّ : لا ينبلُ الرجل حتى يعفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم. وسأل ابنُ سلامٍ كعباً بحضرة عمر رضي الله عنهم: ما يذهب العلمَ من قلوب العلماء بعد أن حفظوه وعقّلوه؟ قال : يذهبه الطمع وشَرَه النفس وتطلب الحاجات الى الناس! قال: صدقت.

ولبعض الشعراء في المعنى :

ان الكريمَ ليُخفي عنكَ عسرته   حتى تراه غنيا وهو مجهودُ

ويقول آخرُ:

أراك اذا أيْسَرتَ خيَّمتَ عندنا   زماناً وإن أعسَرتَ زرتَ لِمَاما[1]

فما أنتَ إلا البدرُ ان قلَّ ضوؤهُ   أغبَّ ، وإن زادَ الضياءُ أقَاما

وقال آخرُ :

فوالله لا يُبدي لسانيَ حاجة   الى أحد حتى أغَيَّبَ في القبر

ومما قيل في الأمر بكف اللسان عما لا ينبغي :

احبسْ لسانكَ عن فضل الكلام سوى   ما ترتجي منه أجراً تجتني ثمَره

ومن قصيدةٍ للإمام علي رضي الله عنه:

وكفَّ الأذى واحفظ لسانكَ واتقي   فديتكَ، في ودِّ الخليل المساعدِ

وغضَّ عن المكروه طرفَكَ واجتنبْ   أذى الجار واستمسِكْ بحبل المحامد

ولبعضهم :

شرُّ الورى بمساوي الناس مشتغلٌ   مثل الذباب يُراعي موضعَ العللِ

(١) لماما: جمع لمة، أي أحيانا. يقال: هو يزور لماما ـ بالكسر، أي غبًا.

وقال آخـرُ :

وانى ليثنيني عن الجهل والخنـى ... وعن شتم ذي القربى خلائقُ أربع:
حياءٌ واسلامٌ وتقوى وأننـي ... كريم، ومثلي قد يضرُّ وينفـع

وقال آخـرُ :

إنا لقوم أبت أخلاقنا شـرفـاً ... أن نبتدي بالأذى من ليس يوذينا

تنبيه في التعريف بالزبيدي

هو أبو ثور عمرو بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن عاصم بن زبيدٍ الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن شيبة ـ وهو زبيد الأكبر ـ بن سعد العشيرة بن مذحج ، الزبيدي فارس اليمن المشهور، صاحب الغارات المذكورة في الجاهلية وله في الاسلام بالقادسية بلاءٌ حسن. وفد على النبي ﷺ سنة تسع في وفد من بني زبيد، فأسلم وأسلموا. ورجع الى قومه وأقام فيهم مسلما. ولما توفي رسول الله ﷺ ارتدَّ ثم أسلم، وشهد اليرموك، وذهبت فيها احدى عينيه. وشهد القادسية، وفتوحَ الشام، وفتوحَ العراق وابلى فيها بلاء حسنا. وأخبار شجاعته في الجاهلية والاسلام كثيرة. قتل رحمه الله بقرية رَوْذَةَ سنة ٢١ هـ. ولِدعبِل بن علي الخزاعي في ذلك:

لقد غادر الركبانُ حين تحمّلـوا ... بروذَةَ شخصاً لا جباناً ولا غَمـرا
فقل لزبيدٍ، بل لمذحج كلهـا ... رُزيتم أبا ثورٍ قريعَ الوغى عمرا

وكان رضي الله عنه شاعرا محسنا. ومما يستحسن من شعره قصيدته التي أولهـا:

أمن ريحانةَ الداعي السميـعُ ... يؤرقنـي وأصحابي هُجـوعُ
أشابَ الرأسَ أيام طـوالٌ ... وهمٌ ما تضمنه الضلـوع

وسوق كتيبة دلفت لأخـــرى كأنّ نهـارهـا رأسٌ صَـــــليعُ
اذا لم تستطع شيئاً فدعْـــهُ وجاوزهُ الى ما تَستطـــــــيع

ومن شعره في قيس بن مكشوح المرادي:

أعاذل عدتي بدني ورُمـــــحي وكـل مقلـص سلسُ القيـــادِ
أعاذلُ إنما أفنى شَبابـــــــــي إجابتيَ الصـريخَ الـى المنــادي
مع الأبطالِ حتى سل جسمـــــي وأقـرحَ عاتقي حمـلُ النجـــادِ
ويبقـى بعد حِلم القـومِ حلمـــي ويَفنَى قبـل زاد الركـــب زادي
تمنى أن يلاقيَـني قيَيْـــسٌ وددتُ وأينما منـــي ودادي ؟
فمن ذا عاذري من ذي سفـــاهٍ يـــرود بنفسه شـر المَـــراد
أريد حياته ويريد قتلـــي عذيرك من خليلك من مُـــراد

ومما ينسب اليه:

والمرء مادام ذا عين يقلبـــــها في أعين العِين موقوفٌ على الخطرِ
يسرُّ مقلته ما ساءَ مهجتـــه لا مرحباً بانتفاعٍ جاء بالضـــرر

والله تعالى أعلم.

هذا ولما حض الناظم رحمه الله على معاملة ذوي القربى بالبر والإحسان والتجاوز عن زلاتهم، ومـواسـاتهم والتـعـفف عـمـا لديهم والكف عن اذاهم، شـرع يحضُّ على الحلم والتحلي به فقال رحمه الله :

«. . . . .

ثُمَّ إلى الحِلْم ازْدَلِـفْ لِتَرشُــــــدِ
فالحِلمُ خيرُ ما ارْتَداهُ السَّيـــــدُ
«لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ.. » لِذاكَ يَشْهَدُ
فازْدَنْ بِـه، فالْحِلمُ زيْنُ الظُّــرَفَا

. . . .»

الحلم: هو الصفح والصبر والأناة والسكون مع القدرة والقوة، وضد الطيش. وقد يقابل به الجهل والسّفَه كقوله:

وانَّ سفاهَ الشيخ لا حِلم بعده وان الفتى بعد السفاهَة يحلمُ

وجمعه: أحلام، وحلوم. وهو مصدر حَلُمَ ، ككرم، حلماً فهو حليم، وجمعه حلماء؛ وازدلف، وتزلّف: تقدم وتقرب؛ والرشد: الاستقامة على طريق الحق؛ وارتداه: لبِسَه؛ وازدان بالشيئ ازديانا: بمعنى تزين به أي تحسن وتزخرف. والزين ضد الشين، وجمعه ازيانٌ؛ والظرفاء جمع ظريف، وهو الكيس الحسن الهيئة، والذكي البارع.

حثّ الناظم هنا رحمه الله، على التحلي بفضيلة الحلم، ورغّب في ذلك ذاكراً أنه زينةٌ للمرء مستشهداً على فضيلة الحلم، بقول عبد الرحمن بن عبيد الله بن حفص التيمي:

لن يدرك المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا حتــى يذِلوا ـ وان عزُّوا ـ لأقــوامِ

ويُشتموا فترى الأعناقُ خاضعةً لا صفحَ ذلٍّ ولكن صفح إكرامِ
وان دعا الجارُ لبّوا عند دعوته في النائبات باسراج والجام
مستلئمينَ لهم عند الوغى زَجَلٌ كأن أسيافهم أغرينَ بالهامِ

وقد فسر بعضهم الحلم فقال: هو ضبط النفس وسكونها عند ثورة الغضب حال وجود ما يدعو اليه، وتملك عنانها حذر الاسترسال في هياجها فيحدث ما لا يحمد عقباه. وقد سئل قيس بن عاصم عن الحلم فقال: أن تصل من قطعكَ، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك.

والتحلي بالحلم فضيلة محمودة، والتخلي عنه رذيلة مذمومة. فكم جر الغضب من الاضرار على اناسٍ ما لو ملكوا انفسهم وكبحوا جماحها لسلموا منه، وكانوا الى السيادة التي حرصوا عليها بما فعلوا اقرب، ولو علموا ان الحلم سيد الأخلاق وأنه يكمل صاحبه بجميل الخصال ويحببه الى الله تعالى، ويرفع قدره عند الناس، لما عرفوا للغضب سبيلاً ولا سلكوا له طريقا، فالحلم من اكرم الخلال وأتم الخصال وافضل شمائل الرجال، وأعلى مراتب الكمال، وهو أصل من أصول الدين وحصنٌ من حصون الإيمان معرب عن نزاهة النفس وبُعد الهمم، والفوز باوفر حظوظ الفضل والكرم.

وقد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ االى الصفح والعفو، قال تعالى: ﴿فاصْفَح الصَّفح الجَميل﴾(١)؛ وقال ﴿ والكَاظِمينَ الغَيْظَ والعافينَ عن النَّاس واللهُ يُحب المحْسِنين﴾(٢)؛ وقال: ﴿ ولَمَن صبرَ وغفَرَ إنَّ ذلك لَمن عَزْمِ الأُمُور﴾(٣). وقد وصف الله سبحانه به

---

(١) الحجر: الآية ٨٥.

(٢) ءال عمران: الآية ١٣٤.

(٣) الشورى: الآية ٤٣.

نبيه وخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿إنَّ ابرهيمَ لحَليمٌ أوَّاهٌ منيب﴾[1]؛ وقال: ﴿إنَّ ابراهيمَ لأوَّاهٌ حليم﴾[2]؛ وقال مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿خُذْ العَفوَ وأمُر بالعُرف وأعرِضْ عن الجاهلين﴾[3].

وقال ﷺ: «ان الله يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي»؛ وقال: «ليس الشديد بالصُّرَعة[4] انما الشديد من يملك نفسَه عند الغضب» ـ رواه البخاري ومسلم؛ وقال: «كاد الحليم أن يكون نبيا»[5].

وقال علي كرم الله وجهه: أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس انصاره على الجاهل. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما من جرعة أعظم عند الله اجرا من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله تعالى. وقال محمد بن علي: من حلم وقى عرضه، ومن كظم غيظه فشا احسانه. وقال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل، وان جُهل عليه، وتلا قوله تعالى: ﴿وإذا خاطَبهم الجاهلُونَ قالوا سلاما﴾[6]. وكان الليث بن سعد يقول لأصحابه: تعلموا الحلم قبل العلم. وقال بعضهم: ما قُرِنَ شيءٌ الى شيءٍ أفضل من حلمٍ الى علمٍ، ومن عفوٍ الى قدرة. وقال آخرُ: ما شيءٌ بأحسن من عقل زانه حلم، وحلم زانه علم، وعلم زانه صدق، وصدق زانه عمل، وعمل زانَه رفق.

---

(١) هود: الآية ٧٥.

(٢) التوبة: الآية ١١٤.

(٣) الأعراف: الآية ١٩٩.

(٤) الصرعة بضم الصاد وفتح الراء: المبالغ في الصراع الذي لا يغلب، فنقله الى الذي يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها. وقد اخرج الحديث ايضا ابو داوود واحمد في مسنده.

(٥) حديث: كاد الحليم.. الخ: اخرجه الخطيب في التاريخ عن انس كما في الجامع الصغير.

(٦) الفرقان: الآية ٦٣.

وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

العلم والحِلم حلتا كـــــــرم   للمـرء زين اذا هما اجتمعـــا
كم من وضيع سما به العلم والـ ـحلـــم فنال السموّ وارتفعـــا
صنوان لا يستتمُّ حسنهـــما   الا بجمـع لـذا وذاكَ معـــا
كل رفيع البنا أضاعهمـــا   أخمله ما أضـاع فاتضعـــا

وقال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلي بصورته، والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال آخـرُ : اذا سكتَّ عن الجاهل فقد اوسعته جواباً وأوجعته عقابا. وقال آخـر: في اغضائك راحة أعضائك. وقال بعض الأدباء: من غرس شجرة الحلم جَنى ثمرة السلم. وقال ء اخر: ما افحش حليم، ولا أوحش كريم. وقال بعض البلغاء: ما ذبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض. ويُروى أن رجلا شتم الشعبي فقال: له الشعبي: ان كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي، وان لم اكن كما قلتَ فغفر الله لك. وقال آخـر: الحليم مطيةُ الجهول. وقال بعضهم: ان افضل وادٍ تُرى به الحلم، فاذا لم تكن حليما فتحلَّم، واذا لم تكن عليماً فتعلم، فقلما تشبَّه رجل بقوم الا كان منهم. قال آخـــر: من حلم ساد ومن تفهم ازداد. وقال الاحنف بن قيس: وجدت الحلم انصرَ لي من الرجال؛ وقال: ما عاداني احد الا اخذت في امره باحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفتُ له قدره، وان كان دوني رفعت قدري عنه، وان كان نظيري تفضلت عليه.

وكان الاحنف مشهورا بين الناس بالحلم، وبذلك ساد عشيرته. وقد قيل له ممن تعلمت الحِلم؟ فقال: من قيس بن عاصم المِنْقَري، كنا نختلف اليه في الحلم كما يُختلف الى الفقهاء في الفقه. ولقد جئته يوما فوجدته قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه، حتى أوتي برجل مكتوفٍ ورجل مقتولٍ فقيل له هذا إبن اخيك قتل ابنكَ. فوالله ما

حلَّ حبوته ولا قطع كلامَه! ثم التفتَ الى ابن أخيه فقال له: يا ابن اخي اثمتَ بربك، ورميتَ نفسك بسهمكَ، وقتلتَ ابنَ عمك. ثم قال لابنٍ له ء اخر: قم يا بني فحُلّ كتاف ابن عمك، ووَارِأخاك، وسُقْ الى امه مائة ناقةٍ ديةً ابنها، فانها غريبة. ثم انشد:

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً ... احدى يديّ أصابتني ولم تردِ
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوهُ وذا ولدي

ولِهُدْبَة بن الخشرم في هذا المعنى:[1]

وكن معدِناً للخير واصفح عن الأذى ... فانكَ راءٍ ما حييتَ وسامعُ
واحببْ اذا أحببتَ حباً مقارباً ... فانكَ لا تدري متى انت نازعُ
وأبغض اذا ابغضتَ غير مباينٍ ... فانك لا تدري متى أنت راجعُ[2]

وقال آخرُ :

غضَّ ما اسطعتَ فالحليم الذيُّ ... يألف الحلم ان جفاه بذيُّ

ولعلي بن هشام:

لعمركَ ان الحلم زينٌ لأهله ... وما الحلمُ الا عادةٌ وتحلمُ
اذا لم يكن صمت الفتى عن ندامةٍ ... وعيٌّ فان الصمت أعلى وأسلم

وقال آخرُ :

---

(١) وقيل الأبيات للمقنع الكندي.

(٢) في البيتين اقتباس من الحديث الشريف الذي رواه ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما» اخرجه البخاري في الأدب المفرد، ورواه الترمذي، والبيهقي، والطبراني، وقال عمر بن الخطاب لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا، فقيل له : كيف ذلك؟ قال:"اذا احببت كلفت كلف الصبي، واذا ابغضت احببت لصاحبك التلف" ـ اهـ من الادب المفرد.

الم تر ان الحلم زينٌ مســــوَّدٌ لـصاحبـــه والجهـل للمـــرء شائنُ
فكن دافناً للجهـل بالحلم تسترح من الجهــل ان الحلم للجهــل دافنُ

وقال آخـــر :

وفي الحلم ردعٌ للسفيه عـن الأذى وفـــي الخرق اغـراءٌ فلا تك أخرقا
فتندمَ اذ لا تنفعنْكَ ندامـــــــةٌ كمـــا نــدم المغبـون لما تفرقـا

وقال آخـــر :

اذا نطـــق السفيه فلا تجبـــهُ فخيــرٌ من إجابتــه السكـــوتُ
حلمت عن السفيه فظنَّ أنـــي عيِيـــتُ عن الجـواب وما عيِيتُ
ولاكني اكتسيتُ بثوب حلــــم وجنبت السفاهـــــةَ ما حيِيـت

ولمحمود بن الحسن الوراق:

اني وهبـت لظالمي ظلمــــي وغفـرت ذاك لــه على علمـي
ورأيته أسدَى الي يــــدا لمـــا أبان بـجهلـه حلمـي
رجعت إساءته عليــه واحـــ ـــساني اليّ مضاعفَ الغنـــمِ
وغدوت ذا أجرٍ ومحـــــمدة وغـــدا بكسب الظلم والإثـم
وكانما الاحسان كان لـــــه وانا المسيء اليه في الحكــم
مازال يظلمنـي وأرحمـــه حتـى رثيتُ له من الظلــم!

وقال آخـــر :

الا ان حلم المرء أكـرم نسبـــة يسامـــي بها عند الفخاركريمُ
فيا ربُّ هــبْ لي منك حلماً فإنني أرى الحلــمَ لم يندم عليه حليمُ

وقال آخــرُ :

واذا غضبت فكن وقورا كاظماً للغيظ تبصــر ما تقول وتسمع
فكفَى به شرفاً تصبُّر ساعــة يرضَى بها عنـك الاله وترفـعُ

وقال آخــرُ :

أخمد بحلمكَ ما يُذكيه ذو سفــهٍ من نار غيظك واصفح ان جنى جانِ
فالحلم افضل ما ازدان اللبيب بــه والأخـذ بالعفو أحلى ما جنَى جـان

وقال آخــرُ :

وفي الحلم والإسلام للمـرء وازعٌ وفـي ترك أهــواء الفؤاد المتيـم
بصائر يرشدن الفتـى مستبينــة وأخلاق صدقٍ علمها بالتعلــم

ويكفي الحلم شرفا وفضلا أن الله تعالى اتصف به كما يليق بجلاله، وأن من اسمائه الحليم. ومن شرفه ايضا مقارنته بالعقل الذي هو أشرف ما يتحلى به الانسان، وهو ابرز مقوماته حيث تميز به عن غيره من الحيوان كما أشار اليه الشاعر بقوله:

حلم الحليم وعقلُ العاقـل اختلفـا مـن ذا الذي منهما قد احرزالشـرفا
فالحلم قال: انا أحرزت غايتَــه والعقــل قد قال: ان الله بي عـرفا
فافصحَ الحلم افصاحاً وقال لـــه بأيّـنا الله في تنزيله وُصــفا ؟
فبانَ للعقـل أن الحلم سيــــده فقبّل العقلُ رأسَ الحلم وانصـرفا!

جولــة ضــد الحلــم!

قــال في ديوان الانشــاء: من المعلوم ان لكل انســان غــرائز شتى مــخــتلفــة كــالحلم والغضب واللين والشدة والجود والبخل والسرور والحزن وهلمّ جرا... فينبغي للعاقل أن يضع كلا في موضعه لأن مَن بنى جميعَ أعماله على أحدهما القى بنفسه الى الهلاك والضلال وباءَ بالخسران والوبال. فما أحسن من وضع كلا منهما في موضعه وأنزل كلا في درجته وموقعه. وقد قالوا: لا يظهر الحلم الا مع الانتصار كما لا يظهر العفو الا مع الاقتدار. واذا كان الأصل في الحلم أن يكون محمودا كما تقدم فقد يعرض له ما يكون به مذموما، كما قال الشاعر:

اذا قيل ذا حلمٍ فللحلم موضــعٌ   وحلم الفتى في غير موضعه جهلُ

وقال آخــرُ :

لا يحسن الجهل الا في مواطنــه   ولا يليــــق الوفــا الا لمن شَكــرا

وقال آخــرُ :

اذا كنتَ بين الحلم والجهل ناشئــاً   وخيِّــــرت أنى شئت،فالحلم أفضلُ
ولكن اذاأنصفتَ من ليس منصفاً   ولم يــرضَ منك الحلمَ فالجهل أمثــلُ

وقالآخــرُ :

أبا حسنٍ ما اقبح الجهل بالفــتى   وللْحــــلم أحياناً من الجهــل أقبــحُ !
اذا كان حلم المرء عونَ عــــدوّه   عليــه فان الجهل أعفـــــى وأروَحُ
وفي العفو ضعفٌ والعقوبة قــوةٌ   اذاكنتَ تخشى كيدَ مــن عنه تصفحُ

كمــا انه لا يحسن الحلم وقت الحرب، فــقــد كــان الأحنف بن قــيس ســيــد بني تميم في

بعض الحروب يحملُ على العدو وهو يقول:

إن على كل رئيسٍ حــقا   أن يخضب الصعدةَ او تندقا[1]

فقيل له أين الحلم يا ابا بحر؟ فقال: عند عقد الحبى[2]، يريد أن الحلم انما يحسن فــي السلـم.

ويقول آخرُ:

وفي اللين ضعفٌ والشراسة[3] هيبةٌ   ومن لا يُهَب يُحمل على مركبٍ وعرِ
ولَلْفقرُ خيرٌ مـن غنىً فـي دناءةٍ   ولَلموتُ خيرٌ من حيـاة على صغر
و ما كلُّ حين ينفع الحلمُ أهـلَه   ولاكـل حال يُدفع الجهلُ بالصبر
وما بي على مَن لانَ لي مِن فظاظة   ولكنني فـظٌّ أبيٌّ على القَســرِ

ويقول آخرُ :

إني أصاحب حلمي وهو بي كرمٌ   ولا أصاحـب حلمي وهو بي جُبُنُ
ولا أقيم على حال أذل بهــا   ولا الذُّ بـا عـرضي بــه دَرِنُ[4]

وللنابغــة الجعـدي من قصيدة لــه يُروى أنـه أنشدَها بين يــدي رسـول الله ﷺ، وأنه دعـا له[5]:

ولا خير في حلم اذا لم تكن لـه   بــوادر تحمي صفوَه أن يُكدرا

---

(١) الصعدة: القناة المستوية المستقيمة؛ وتندق: تنكسر.

(٢) الحبي جمع حبوة: لما يحتبى به اي يشمتل به من ثوب او عمامة. يقال:«عقد حبوته» اي قعد، و«حل حبوته»، اي قام.

(٣) الشراسة: الجراءة وشدة الخلاق.

(٤) درِنٌ: متلطخ بالوسخ.

(٥) راجع شرح الناظم على نظم عمود النسب عند قول احمد البدوي:

«من كعبهم قشير بالعجلان ....» الخ

ولا خير في جهل اذا لم يكن لـه   حليـــــم اذا ما أورد الامر أصدرا

ويقول آخـرُ:

ولن يلبث الجهّال ان يتهَضَّمـــوا   أخا الحلـم ما لـم يستعِنْ بجَهـولِ

ويقول آخـرُ:

لئن كنتُ محتاجاً الى الحلم انـني   الى الجهــل في بعض الأحايين أحوجُ
وما كنت ارضى الجهـل خدْناً وصاحباً   ولكنني أرضــى به حين أحــرَجُ
ولي فرسٌ للحلم بالحلم ملجـــمٌ   ولي فــرسٌ للجهل بالجهل مُســرَج
فمن شاء تقويمي فإني مُقـــوّمٌ   ومن شاء تعويجي فإني معـــوّجُ

وللشريف الرضى:

وللحلم أوقات وللجهـل مثلُهــا   ولكـــنّ اوقاتي الى الحلم أقـربُ
يصول عليّ الجاهلون وأعتلـــي   ويُعجـــم في القائلون فأعـربُ

ثم انه ينبغي لمن لا يميز بين ما يقومه الحلم وما تقومه الشدة ان يسلك طريق الحلم واللّين فـقط اتقـاءً من شـدة الأخطار، والوقـوع في المصـاعب والمضـار لأن الحلم خـيـر الأمـرين، وأقـومُ الطريقـتين، قـال تعـالى: ﴿ ادفَعْ باللتى هي أحْـسَن فـإذا الذي بينكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حَـمِيمٌ ومـا يُلقـاها الا الذينَ صَبـروا ومـا يُلقّـاهــا إلا ذو حَظٍّ عَظِيم ﴾[1]. وقد قيل الماء مع رقته يفتت الحجرَ مع شدته.

ولما كـان الحلم اساس المجد، واسـتـشـهـد الناظم على ذلك بقـول الشـاعـر: «لـن يدركَ المجد ...» الخ، وكـان المجد صعبَ المنال وكـان من احسن ما يتطلبـه الانسان، وقـد نبّه

(١) فصلت: الآيتان ٣٤ و ٣٥.

الأدباءُ والحكماء على ذلك، تنشيطاً لذوي الهمم العليّة، كان من تمام الفائدة ان نذكر بعض ما ورد من ذلك. فمن ذلك قول ابي الطيب :

لا يدرك المجد الا سيدٌ فطنٌ لما يشق على السادات فعالٌ
لا وارثٌ جهلت يمناه ما وهبت ولا كسوبٌ بغير السيف سَئّالٌ

وقال ايضا:

ذريني أنل ما لا ينال من العُلى فصعب العُلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين ادراك المعالي رخيصةً ولا بدّ دون الشُّهد من إبَرِ النحلِ
ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يَخْطُبِ الحسناءَ يصبِر على البذلِ
ومن لم يذلَّ النفسَ في طلب العُلى يسيراً يعش دهراً طويلا أخا ذلِّ

فالعاقل هو من ملك سبيل الجد ووطن نفسه على احتمال المشاق في سبيل ادراك الغايات. وقد قال بعضهم: لا تُدرك الراحة الا بالتعب. وقالوا: المكارم لا تكون الا بالمكاره ولو كانت خفيفة لتناولتها السفلة بالغَلبة. ولأبي تمام:

بصرت بالراحة العليا فلم ترها تنال الا على جسرٍ من التعبِ

فَلِلمعالي سبيل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها الا المقدام الجسور، ولا يتغلب عل عقباتها الا الحر الصبور. ولصفي الدين الحلي[1]:

لا يمتطِي المجدَ من لم يركب الخطرا ولا ينال العُلى من قدم الحذرا

---

(١) هو عبدالعزيز بن سرايا بن علي بن ابي القاسم السنبسي الطائي. شاعر عصره. له ديوان شعر مطبوع، وله عدة كت ورسائل. ولد سنة ٦٧٧ ونشأ في الحلة(موضع بين الكوفة وبغداد) واشتغل بالتجارة وكان يرحل الى الشام ومص وغيرهما في تجارته، ويعود الى العراق، ومدح بعض ملوك عصره واجزلوا له عطاياهم. وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠. (ا الاعلام للزركلي باختصار).

ومن أراد العلى عفواً بلا تعَبٍ مضَى ولم يقض من ادراكه وطرا
لا بدَّ للشهد من نحل يمنعه لا يجتني النفعَ من لم يحمل الضررا
لا يُبلغُ السؤلُ الا بعد مؤلمة ولا يتم المنى الا لمن صبَرا

فالمجد لا ينال عفواً ولا يدرك من كثب فهو غاية محفوفة بالمكاره وامنية وعثة الطريق. قال الشاعر:

لا تطلبِ المجد واقنع فمطلب المجد صعب

وقال آخرُ :

لا تطلب المجد ان المجد سلمه صعب وعشْ مستريحاً ناعم البالِ

وقال آخرُ :

دنوت للمجد والساعون قد بلغوا جهدَ النفوس وشدُّوا دونَه الأزُرا
وساوروا المجدَ حتى ملَّ اكثرهم وعانقَ المجدَ من وفى ومن صَبرا
لا تحسب المجدَ تمراً أنتَ آكله لن تبلغ المجدَ حتى تلعقَ الصَّبرا[1]

ويقولُ آخرُ:

ما المجد زخرف أقوال تطالعه لا يدرك المجدَ الا كل فعالِ

فينبغي لمن منحه الله عقلا مرشدا ونفسا تواقة أن يطلب المجد، وأن يعلو بهمته الى أبعد مدىً، وأسمى غاية، وان لا تثنه عقبة تعترضه. او مشقة تلحقه عن درك امنيته ونيل بغيته. وقد قال الشاعر:

اذا أنا لم أعط المكارمَ حقها فلاعزني خالٌ ولا ضمّني أبُ

---

(١) الصبر. ككتف: عصارة شجر مرّ.

ومن تكن العلياءُ همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محببُ

وقال آخرُ :

سموت فادركتُ العلاءَ وانما يلقّى عليات العُلى مَن سما لها

وقال آخرُ :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فالعظيم لا تزيده المشقات الا مضيا في سبيله، وإقداما في طريقه لا يركن الى الراحة، فذلك هو طريق المجد، ومجال العظمة لمن ارادهما. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:" لا تصغرن همتك فاني لم أرَ اقعد بالرجل من سقوط همته".

ولبعض الشعراء:

ويصغر في عيني تلادي اذا انثنت يميني بادراك الذي كنتُ طالبا

وقال آخرُ :

حاول جسيمات الامور ولا تقل ان المحامد والعلى أرزاقُ

وارغب بنفسك أن تكون مقصراً عن غاية فيها الطلابُ سباقُ

وقال آخرُ :

ما ابيضَّ وجهٌ باكتساب كريمة حتى يغيره شحوب المطلب

ولأبي تمام:

قد علمنا ان ليس الا بشق النـ ـفس صارَ الكريم يدعَى كريما

طلب المجد يورث المرء خبلا وهموماً تقضقض الحيزوما[1]

(١) تقضقض: تكسر وتفرق؛ والحيزوم: الصدر او وسطه.

فتراه وهو الخَلــــيُّ شجيــا[1] وتــــراه وهــو الصحيح سقيــما

تَيَّمَتـهُ العُلــى فليس يعدّ الـــ ــبؤس بؤســاً ولا النعيمَ نعيما

ولما كان الحلم وزير العلم، وكان مِن احسن ما يَتحلى به الانسان فضيلتا الحلم والعلم فهما حلتا الكرم، وقد قيل: ما قُرنَ شيءٌ الى شيءٍ أفضل من حلمٍ الى علم، أشار الناظمُ الى ذلك فذكر العلم بعد أن ذكر الحلم، ووصله به حاضاً عليه فقال رحمه الله:

(١) الخلي، كغني: من كان خاليا من الهم؛ والشجي: الحزين المشغول البال. ومن امثالهم: «ويل للشجي من الخلي» يضرب لسوء مشاركة الرجل صاحبه لان الخلي لا يساعد الشجي على مابه ويلومه.

>> ....

والعِلْمُ نعمَ المُقْتَنى والمُقْتَفَى
طَلَبُه فَريضَةٌ، وأَفْرَضُه
عِلْمُ مُهِمِّكَ. بهِ ابْدَأْ تَقبِضُه
فَقُوتُهُ الفِقْهُ، ومِلْحُهُ الذي
يُصْلِحُهُ:النَّحْوُ، جَهُولَهُ انْبُذِ
وأُسُّهُ. .إِدامُهُ. .تَحْقِيقُهُ:
سِيرَةُ خَيْرٍ واجبٍ تَصْدِيقُهُ

المقتنَى: ما يجمعه الإنسانُ ويصطفيه لنفسه؛ والمقتفَى: المتبَعُ والمقتدَى به؛ وأفرضه: أوجبه وآكَده؛ والأسُّ: أصل البناء ومبتدأ كل شيء؛ والسيرة: السنة والطريقة، والمراد بـ«خير واجب تصديقه»: رسول الله ﷺ .

أشار الناظم رحمه الله في هذه الأبيات إلى أن العلمَ هو أهم ما ينبغي أن يتجه الإنسان الى تحصيله، والسعي إليه باعتباره خيرَ ما يُشغل العمرُ باقتنائه واقتفاء سبيل أهله. وبيّن أن طلبه فريضة. وقسم أولويةَ العلم على حسب ما هو متعارف في مجتمع "المحظرة" التي تنقسم فيها العلوم ، أساسا، الى علوم شرعية تشمل: العقائد، والمتون الفقهية؛ وعلومٍ لغوية أساسها النحو، والصرف، والشعر؛ وعلومٍ تاريخية محورها السيرة

النبوية، وأخبار الخلافة الإسلامية.. وصَوَّر مكانةَ هذه العلوم بالنسبة لغيرها، مع أن العلمَ غذاءُ الإنسان الروحي الذي لا غنى عنه، بأن جعل الفقهَ ـ باعتبار ما يقوم عليه من أصول وعقائد وما يتشعَّب اليه من فروعٍ ومسائل ـ الأساسَ الذي تقوم عليه "الوَجْبةُ" الغذائية ، وفيه تكمن قيمتُها المعبَّرُ عنها بـ«القُوت»، بينما تأتي العلومُ اللغوية وما يتفرع عنها من شعر وبلاغةٍ ومنطقٍ وبيانٍ بمثابة المواد الأساسية المضافة التي ـ رغم ثانويتها في الكَمّ ـ لا يمكن إعداد الوجبة دونها، كالملح والتوابل[1] التي دونها لا ينتفع بالطعام. ثم أضاف الناظم رحمه الله الى هذه الوجبة العلمية ما لا تُستساغُ دونه ولا تطيب بغيره، وهو السيرة النبوية التي لا بد من معرفتها للإقتداء بصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو يجعلها أهم من مجرد الإدام الذي قد ينتفع بالطعام دونه عند الضرورة فجعلها أساس العلم الذي يُبنى عليه وحقيقته، أي غايته وثمرته بقوله: «وأسّهُ إدامه تحقيقه.. » الخ.

فبما أن السيرة في مضمونها الأساسي الذي يجعلها مترادفةً لغةً ومعنىً مع السنة، عبّر عنها بأنها أساسُ العلم وغايته لأنها تُمكن من اتباع النبي ﷺ والإقتداء به ومحبته ، الذي هو أمر أساسي في الإيمان. وأكد ذلك حيث جعلها تحقيق العلم، أي حقيقته. فهي اذن أساس العلم وثمرته، وباعتبارها الشكلي كجزء أساسي من التاريخ، عبّر عنها بأنها في العلم بمنزلة الإدام للطعام فلا يُستساغ الا به.

وهذا التجسيم للعلم وتشبيهه بالطعام من حيث أنه غذاء روحي، تشبيه متداول. فقد قال بعض الحكماء: العقل يحتاج الى مادة الأدب كما تحتاج الأبدان الى قُوتِها من الطعام .

---

(١) جمع تابل: ابزار الطعام..

وفي ديوان الإنشاء لأحمد الهاشمي : "من المعلوم أن الانسان يفتقر الى ثلاثة أغذية: غذاء النفس، وهو العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى؛ وغذاء الجسد، وهو ما طاب وحلّ من نباتٍ وحيوان؛ وغذاء العقل وهو العلم والمعرفة. وهذا الغذاء الأخير مقدم على الغذاءين الأولين إذ به يُمهِّد السبيل اليهما، ويَقتدر المرء على اتقانهما، فضلا عما يستفيده من رفعة الشأن وحسن الحال في المبدأ والمآل.

ثم إن الناظم رحمه الله لم يعدد العلوم التي كانت تدرس، وهي كثيرة، وإنما اكتفَى بهذه العناوين الثلاثة باعتبارها المحاورَ الأساسيةَ التي تندرج ضمنها علوم كثيرة. ثم إن المراد بالعلم هنا العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته وما يجب له من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص.

قال في كتاب "جامع العلم وفضله": قال محمد بن الحسن: العلم على أربعة أوجه: ماكان في كتاب الله وما أشبهه ، وما كان في سنة رسول الله ﷺ المأثورة، وما أشبهها؛ وماكان فيما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم وما أشبهه، وكذلك ما اختلفوا فيه لا يخرج عن جميعه، فإن وقع الإختيار فيه على قول فهو علم نقيسُ عليه ما أشبهه؛ و ما استحسنه عامة فقهاء المسلمين وما أشبهه، وكان نظيراً له". قال: ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة. وينقسم طلب العلم الى قسمين: فرض على الأعيان، كالصلاة والزكاة والصيام. وفي هذا المعنى جاء الحديث عن أنس بن مالك: «طَلَبُ العلم فريضة على كل مسلم»[1]؛ وفرض على الكفاية كتحصيل الحقوق واقامة الحدود والفصل بين

(١) حديث: طلب العلم ..الخ رواه ابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان والطبراني في الكبير والاوسط والصغير، وابن عدي في الكامل، كما في الجامع الصغير.

الخصوم، إذ لا يصح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سواهم، وتنقص أو تبطل معايشهم، فتعين بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين"[1].

وللعلم رتبٌ تنبغي المحافظة عليها. قال أبو عمر: طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف، ومن تعدى سبيلَهم عامدا ضلّ، ومن تعداه مجتهـــداً زلّ.

فأول العلم: حفظ كتاب الله عزّ وجلّ، وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجبٌ طلبه معه. ثم ان فـــــرغ منه ومما يستعين به على فهمه من لسان العرب، ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ وفي سيرته ﷺ، ومن طلب السنن فليكن معوّله على حديث الأئمة الثقاة، كمالك بن أنس وأضرابه رحمهم الله تعالى.

وبعد هذا التقسيم للعلم الذي أشار اليه الناظم، والذي ذكرناه آنفا، فَمِن المفيد أن نشير الى فضل العلم الذي أشار اليه الناظم بقوله: «والعلم نعم المقتنى والمقتفى» فنقول وبالله التوفيق: قال بعضهم : لا يخفى أن العلم افضل مكتسب وأشرف منتسب وأنفس ذخيرة تقتنى، وأطيب ثمرة تجتنَى، به يتوصل الى معرفة الحقائق، ويُتوسل الى نيل رضى الخالق. وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها، وأكرم فروعه وأزكاها، لا يَضيع ابداً صاحبه، ولا يَفتقِر كاسبه، ولا يَخيب مُطالبه ولا تَنحط مَراتبه. وهو الدليل على الخير، والعون على المروءة، والصاحب في الغربة ، والمؤنس في الخَلوة، والشرف في النسب.. وبالجملة ففضل العلم أمر معروف شرعا وطبعا. والقرآن الكريم والسنة المطهرة ناطقان بذلك. فمن الآيات الدالة على فضل العلم قوله تعالى ﴿يُوتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ ومَنْ يُوتَ

---

(١) راجع القرطبي: ج ٨/ ص ٢٩٥.

الحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أولُوا الألْبابِ﴾[1]، وقال جَلَّ من قائل: ﴿شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ والملائِكَةُ وألوا العِلْمِ قَائماً بالقِسْطِ لا إلهَ إلا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إلا العَالِمُونَ﴾[3]، وقوله عز وجل: ﴿إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمُونَ والذينَ لا يَعْلَمُونَ إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أولُوا الألْبَابِ﴾[5]، وقوله جل شأنه: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ والذينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ واللهُ بِما تَعمَلونَ خَبِيرٌ﴾[6].

ففي الآية الأولى ذكر الله سبحانه وتعالى أن من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيراً، وكرَّر ذكر الحكمة ولم يضمرها اعتناءً بها وتنبيهاً على شرفها وفضلها. والمراد بالحكمة المعرفة بالقرءان: فقهه ونسخه ومُحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدَّمه ومؤخره.. كما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو المعرفة بدين الله تعالى والفقه فيه والاتباع له كما رويَ عن مالك بن أنس رحمه الله.

وفي الاية الثانية اعتدَّ الله سبحانه وتعالى بشهادة أولي العلم في وحدانيته وقرنها بشهادته وشهادة الملائكة، وفي هذا من رفع قدر أهل العلم مافيه ولوكان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته.

---

(١) البقرة: الآية ٢٦٩.

(٢) ءال عمران: الآية ١٨.

(٣) العنكبوت: الآية ٤٣.

(٤) فاطر: الآية ٢٨.

(٥) الزمر: الآية ٩.

(٦) المجادلة: الآية ١١.

وفي الآية الرابعة بيّن أن الخشية شرطها العلم والمعرفة، فمن اشتدت معرفته لربه كان أخشى له، ولذا ورد في الحديث: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له».

وفي الآية الخامسة من تشريف العلم ما فيها، إذ حكم الله تعالى بأن أهله يمتازون على سواهم. ثم حصر التذكر في أولي الألباب أي أصحاب العقول ولا مقوم للألباب غيرُ العلم.

وفي الاية الأخيرة صرح سبحانه وتعالى بأن العلماء لهم درجاتٌ عند ربهم يخصهم بها دون غيرهم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل. إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترفع الدرجات ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلوّ المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلوّ المنزلة في الجنة[1]. وقد بين سبحانه وتعالى أنه لا حدّ للعلم، ليخفف العلماء من كبريائهم ويطلبون المزيدَ من العلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وفَوقَ كلّ ذي علم عليمٌ﴾[2]؛ وقال جل من قائل:﴿ وقُلْ ربِّ زدني علماً﴾[3].

ثم إن كل ما ذكر من التنويه بشأن العلم إنما هو العلم النافع المؤدي الى العمل والخشية. أما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم فلم يكن علمه الا مجردَ شَقْشَقة اللسان التي لم تُورث القلب خشية، وتلك لا تسمى علماً بل يُعذب الانسان عليها ويُبعث جاهلا. وللإمام الشافعي رحمه الله:

إذا لم يزد علم الفتى قلبَه هدىً ... وسيرتَه عدلا وأخلاقَه حُسنا
فبشره أن الله أوْلاهُ نقمةً ... يُساء بها من قبل مَن عبدَ الوثنا

---

(١) راجع فتح البارى - ج١/ ص ١٤١.

(٢) يوسف: الآية ٧٦.

(٣) طه: الآية ١١٤.

وقد قال الحسن: العلم علمان: علمٌ في القلب فذاك العلم النافع، وعلمٌ في اللسان فذاك حجة الله على عباده. ولأحمد بن عبد العزيز الهلالي:

والعلم ما أكسَبَ خشيةَ العليمْ | فمن خلا منها فجاهلٌ مليم
لأنه ميراثُ الأنبياء | فلم ينله غيرُ الاتْقياء
لذاك قيل العلم يدعو العَملا | إن يلفه قرٌ والا ارتحلا
دليل ذاك "إنما يخشى" إلى | "العلماء" لدليل المجلى
فاعمل بما علمتَ تورثْ علمَ ما | لم تك تعلم وتُمنحْ مغنما

ولبعضهم في ذمّ علماء السوء من المسلمين والنصارى:

درسوا العلومَ ليملكوا بجدالهم | فيها صدور مراتب ومجالسِ
وتزهّدوا حتى أصابوا فرصةً | في أخذ مال مساجد وكنائس

ومن الأحاديث الدالة على فضل العلم ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «إن اللهَ وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحرها وحتى الحوت ليصلون على معلّم الناس الخيرَ» - رواه الترمذي. وعن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد فاذا هو بحلقتين إحداهما يقرأون القرآنَ ويدعون اللهَ ، والأخرى يتعلمون ويُعلمون، فقال النبي ﷺ: «كلٌّ على خير هؤلاء يقرأون القرآنَ ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثتُ معلما»، فجلس معهم - رواه ابن ماجه. وهذا شرف للعلماء عظيم ومحلٌ لهم في الدين خطير.

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بهذا العلم قبلَ أن يُقبضَ وقبضه أن

يرفع» وجمع بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام هكذا، ثم قال: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خيرَ في سائر الناس» ـ رواه ابن ماجه.

وقد قال بعضُ الحكماء: العلم في الصدركالمصباح في البيت. والى هذا المعنى أشار الهلالي بقوله:

العلمُ نورٌ والجهالة حَلَكْ   ومن سرى في ظُلمة الجهل هلكْ

وقال آخرُ: من اتخذ العلم لِجَاماً اتخذه الناس إماما، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار. وقال ء اخر: الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوكَ حتى تجلسه مجالسَ الملوك. وقد أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

العلم يَنهض بالخسيس الى العلى   والجهل يَقعد بالفتى المنسوبِ

وقال آخر: العلم خيرٌ من المال، لأن المال تحرسه والعلم يحرسك، والمالُ تُفنيه النفقةْ والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، مات خُزّانُ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقيَ الدهر، أعيانهم مفقودةٌ وآثارهم موجودةٌ. ومن هذا أخذ سابق البربريُّ قوله:

موتُ التقيِّ حياةٌ لا انقطاع لها   قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

وللعلامة محمذفال بن متالي :

خليلي أفْنِ العمرَ غيرَ المَدد   على نشبٍ إن منه واسَيْتَ يَزدَدِ

ولا تُفْنِينَّ العمرَ في جمعِ ما إذا   بخلتَ به تُذمم وإن جُدتَ يَنفَد

فحسبكَ من فقدان ذيَّاكَ أن تُرى   محليَّ بِدُر من حلى ذاك مُرتَدِ

فشتانَ ما بين الذي ان جمعته   ضللتَ وما إن منه أكثرتَ تهتدي

وقال أيضا:

واعلمْ بأن إلعلم والعِبـــــادة   هُما يقيناً سببا السعــــادة

وذا المُبقّى لك بعد المــــوتِ   فصفّــهِ والزَمْهُ قبل الفَــوتِ

وللشعراء في فضل العلم جولة بعيدة الشأو، فمن ذلك قول بكر بن حماد[1]:

رأيتُ العلم صاحبه شـــريف   وإن ولدتـــــه آباءٌ لِئــام

وليس يزال يرفعـــه الى أن   يُعــظم قدرَه القومُ الكـــرامُ

ويتّبعونه في كل أمــــر   كـراعي الضأن تتبعه السوام[2]

ويُحمل قوله في كل أفــــقٍ   ومن يــــك عالما فهو الإمام

فلولا العلم ما سعدت نفـوسٌ   ولا عُـــرف الحلال ولا الحرام

فبالعلم النجاةُ من المخـــازي   وبالجهـــل المذلةُ والرُّغامُ[3]

هو الهادي الدليل الى المعالـي   ومصـباح يضيـئ به الظـلام

كذاك عن الرسول أتى. عليـه   مــن الله التحيةُ والســلام

ولسابقٍ البلوي المعروف بالبربري[3]:

العلم فيه حياةٌ للقلوب كمـــا   تحيـا البلاد إذا ما مسَّــها المطرُ

والعلم يجلو العمَى عن قلب صاحبه كما يُجلي سوادَ الظلمة القمــرُ[5]

---

١) وقيل الأبيات للإمام الشافعي.

١) الماشية، والابل الراعية.

٢) أي القهر والمذلة.

٤) هو سابق بن عبدالله البربري شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقائق، وهو من موالى بني أمية. والبربري لقب له، ولم يكن من البربر. سكن الرقة وكان يفد على عمر بن عبدالعزيز فيستنشده عمر مواعظه. مات نحو سنة ١٠٠هـ/ انتهى من الاعلام للزركلي.

٤) يجلو العمى: يكشفه ويطرده؛ ويجلي سواد الظلمة: يظهرها ويوضحها.

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كاعمى ما له بصر

وقال آخرُ :

أجل ما يُبتغى دوماً ويُكتسبُ ويُقتنى من حلي الدنيا وينتخبُ
علم شريفٌ عميم النفع قد رفعت لمن يُزاوله بين الملا رتب
ان عاش عاش سعيدا سائدا أبداً لا يُستضام ولا يُشنا فيجتنبُ
وإن يمت فثناءٌ شائعٌ حسنٌ وبعده رحمةٌ تُرجى و ترتقبُ

وقال آخرُ :

العلم أفضل درعٍ أنتَ لابسه فاجعل له علمين الدينَ والأدبا

وقال آخرُ :

اقرأ تكن فوق السها ولا تكن ممن لها
من طلب العزة بالراحة لم يصل لها

ويقولُ آخرُ:

كن عالما في الناس أو متعلما أو سامعاً فالعلم ثوب فخار
واعمل بما عُلّمتَ فالعلماء إن لم يعملوا شجرٌ بلا ثمار
والعلم مهما صادفَ التقوى يكنْ كالريح إذ مرّت على الأزهار
قد يشفع العلم الشريف لأهله ويحل مبغضهم بدار بوار
هل يستوي العلماءُ والجهالُ في فضل فما الظلماتُ كالأنوار

وقال آخرُ :

العلم زين وتشريفٌ لصاحبه أتتْ الينا بذا الأنباء والكتبُ

والعلم يرفع اقواماً بلا شـــــرفٍ فكيف من كان ذا علم لـه حسب؟
فاطلب بعلمك وجهَ الله محتسـبًا فما سوى العلم فهو اللهوُ واللعب

ولمجد الدين:

أخو العلم حي خالد بعد موتـه وأوصـالُه تحت التراب رميم
وذو الجهل ميْتٌ وهو يمشي على الثـرى يُعَـدٌّ من الأحياء وهو عديمُ

ولأبي القاسم أحمد بن عمر بن عبدالله بن عصفور:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العـلمُ وعنـه فباحـث كل من عنده علم
ففيه جلاءٌ للقلوب من العمـى وعـونٌ على الدين الذي أمره حتمُ
فإني رأيتُ الجهل يُزرى بأهلـه وذو العلم في الأقوام يرفعه العلمُ
يُعَدُّ كبيرَ القـوم وهو صغيرهـم وينفـذ فيه منهمُ القول والحكـم
وأي رجاء في امرئٍ شابَ رأسـه وأفنى سنيه وهو مُستَعجِمٌ فَـدْمُ[1]
يروح ويغدو الدهرَ صاحبَ بِطْنـةٍ تركب في أحضانه[2] اللحم والشحمُ
إذا سُئلَ المسكينُ عن أمر دينـه بـدت رُحضاء[3] العِي في وجهـه تسمـو
وهل أبصرتْ عيناكَ أقبحَ منظـراً مـن أشيبَ لا علمٌ لديه ولا حِلمُ؟
هي السوءة السوءاءُ فاحـذر سِماتِهـا فأولهـا خـزيٌ وءاخرها ذمُّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارَهم فصحبتهـم زينٌ وخِلطَتُهم غنمُ
فلا تعدُون عيناكَ عنهم فإنهـم نجـومٌ إذا ما غاب نجمٌ بـدا نجمُ

(١) فدم: عيي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم.

(٢) جمع حضن: ما دون الإبط الى الكشح، أو الصدر والعضدان وما بينهما.

(٣) عرق يغسل الجلد كثرة.

فوالله لولا العلم ما اتضح الهـــدى   ولا لاحَ مـن غيـب الأمور لنا رسـمُ

واذا كان أمر العلم على ما ذكرنا فانه ينبغي التنبيه على خطر الجهل الذي هو ضد العلم للترغيب في العلم، والتنفير من ضده تكميلاً للفائدة فأقول:

تنبيه على خطر الجهـل

جاء في ديوان الإنشاء لأحمد الهاشمي:"أما الجهل فهو رأس الفضائح ومعدنِ القبائح ومِضمار العِثار ومعيار الشنّار وسبب الخمول وداعية المقت، إن نطق صاحبه تعرض للخزي والذم، وإن تصرف صاحبه في حالٍ سقطَ لليدين وللفم، وهو دليل على جمود الخاطر، واعتلال الذهنِ وكدر النفس. وقد عصم الله تعالى منه أنبياء ه وحذّرَ منه أولياء ه، وقد أبان الله عز وجل فضل العلم على الجهل بقوله: ﴿ هَل يَستوي الذين يَعلمُونَ والذين لا يَعْلمون ﴾[1]".

وفي الحديث: «خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشرُّ الدنيا والآخرة مع الجهل»، وفيه «لا فقر أشدُّ من الجهـل»[2]، وقـال ﷺ «الناس رجلان: عـالمٌ ومتـعلمٌ، ولا خيــرَ فـيـمـا سواهما»[3]. ويروى أن عـيـسى ابنَ مـريمَ قـال: عـالجت الأبرصَ والأكـمـهَ فـأبرأتهـمـا، وعالجتُ الجاهلَ فأعياني. فالجهل إذن هو الداء العضال. وقد قال الشاعر:

ليس من قالَ بالصواب كمن قا   لَ بجهـلٍ والجهل داءٌ عياء[4]

وقـال علي كـرم الله وجهَه: «أقل الناس قيـمـة اقلهم علمـا»؛ وقـال ابن المعتـز: نعـمـة

---

(١) الزمر: الآية ٩.

(٢) حديث: لا فقر اشد من الجهل. رواه ابن عساكر كما في " كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق".

(٣) حديث: الناس رجلان.. الخ اخرجه الطبراني في الكبير، كما في الجامع الصغير.

(٤) عياء: ثقيل وخم ـ لسان العرب

الجاهل كروضةٍ على مزبلةٍ.

وبالجملة فان من نظر في أحوال الأمم وتقلبات الدهور، وما حصل لها حتى ءالت الى الدثور رأى أن ذلك غالباً ما يكون نتيجةً للجهل. وقد قال الشاعر:

إني نظرتُ إلى الشعوب فلم أجد كالجهـــــل داءً للشعوب مُبيدا

ثم إن عدم العمل بالعلم أقبح من الجهل وأشدُّ خطورة، ففي الأثر إذا لم يعمل ذو العلم بعلمه، فعلمُه وجهله سيان.

ولبعضهم في المعنى:

لاخير في العلم إن لمْ يرقَ صاحبُه على أساسٍ من الأخلاق في الصِّغَر

كم عالمٍ فاسدٍ ضلّت مذاهبـــــه بعلمه قد غدا شرا من البشــــــر

إبليس أعلم أهل الأرضِ قاطبـــةٌ والناس تلعنـه في البدوِ والحضَـــر

العلم كالغيث والأخلاقُ مزرعـــةٌ إن تخبث الأرض تذهب نعمةُ المطَـر

والنفس تابى ورودَ الماء إن وجدت في الماء رجْساً ولو كانت على نهَـــر

والجهل أفضلُ من علمٍ يدنسـه نضح الرذيلة من أخلاق مقتــــدر

ثم إن الناظم بدأ في تقسيمه للعلم بالفقه واعتبره في الرُّتبة الأولى. ذلك أنه تتوقف عليه معرفة الأحكام الشرعية التي تتوقف عليها تصرفات العبد وواجباته الدينية ومعاملاته مع الناس.

والفقه في الأصل: الفهم (فقِه الرجل ـ بالكسر ـ يفقَه فقهاً: فهم، كقوله تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1]؛ وفقُه ـ بالضم ـ اذا صار فقيهاً عالما) وجعله العرفُ خاصا بعلم

(١) طه: الآية ٢٨.

الشريعة، ومخصصا بعلم الفروع، وانما خص علم الشريعة بالفقه لأنه مستنبَطٌ بالقوانين والأدلة والأقيسة، والنظر الدقيق بخلاف علم اللغة والنحو وغيرهما، كما في "إرشاد الساري"[1].

ولعلم الفقه مكانته التي يحددها الكتابُ العزيز والسنة المطهرة وأقوال العلماء الحكماء. فمما وردَ في الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَن يؤتَ الحِكْمةَ فقَد أوتِيَ خَيراً كَثيراً﴾[2]. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من يرد الله به خيراً يُفقِّهْه في الدين» - رواه ابن ماجه والترمذي؛ وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «فَقيهٌ واحدٌ أشدُّ[3]على الشيطان من ألفِ عابدٍ»[4] - رواه ابن ماجه والترمذي؛ وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي ولن تزالَ هذه الأمة قائمةً على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله» - رواه البخاري ومسلم؛ وقال ﷺ: «لكل شيء عمادٌ وعماد هذا الدين الفقه»؛ وقال ﷺ: «الأنبياء سادةٌ والفقهاءُ قادة ومجالسهم زيادة» - ذكره الراغب في محاضراته[5]. قال بعض الحكماء: الكمال كل الكمال التفقه في الدين والصبرعلى النائبة وتدبير المعيشة.قال وما موتُ أحد أحب الى ابليس من موت فقيه[6]؛

(١) راجع الجزء:١/ ص ١٧٠.

(٢) البقرة: الآية ٢٦٩.

(٣) اي اخوف واضر عليه.

(٤) لأن العابد مشتغل بنفسه فقط، واما العالم فإنه كلما رأى الشيطان أغوى الناس وأفسدهم لفت نظوهم فتنبهوا ورجعوا الى الله، فكلما بنى الشيطان هدم العالم فخاب مسعاه وضل مناه.

(٥) راجع حديقة ابن الونان.

(٦) راجع جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، ص/ ٧١ . ونسب الكلام لجعفر بن محمد.

وقال الشافعي: "من حفظ القرءان عظمت قيمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رقّ طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم". ولبعضهم في هذا المعنى:

تفقّهْ فإنّ الفقهَ زينٌ لأهلــــه وفخرٌ وعنوانٌ لكل المحامِـــدِ

وان فقيها واحداً متـــورعاً أشدُّ على الشيطان من ألف عابد

وقال آخـرُ :

كل العلوم سوى القرآن مشغـلةٌ الا الحديثَ والا الفقـــه في الدينِ

العلم ما كان فيه "قال حدثنا.." وما ســوى ذاك وسواسُ الشياطين

وقال آخـرُ :

من كل فنٍّ خذْ ولا تجهل بـــه فالحــــرُّ مطلع على الأســرارِ

وإذا فهمتَ الفقه عشت مصدرا في العالمين معظم المقــــدارِ

ثم ذكر الناظم علم النحو وجعله في المرتبة الثانية. والنحو هو العلم بأصول مستنبطة من استقراء كلام العرب يعرف بها أواخر الكلام إعراباً وبناءً. وفائدته معرفة صواب الكلام وخطئه، وغايته الإستعانة على فهم كلام الله ورسوله والإحتراز عن الخطأ في الكلام. قال عباس حسن في كتابه "النحو الوافي": النحو هو دَعامة العلوم العربية وقانونها الأعلى، منه تستمد العونَ وتستلهم القصد، وترجع اليه في جميع مسائلها وفروع تشريعاتها، ولن تجد علما منها يستقل بنفسه عن النحو او يستغني عن معونته، أو يسير بغير نوره. فهل ندرك كلام الله ونفهم دقائق التفسير وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وأصول العقائد وأدلة الأحكام، وما يتبع ذلك من مسائل فقهية وبحوث شرعية مختلفة قد ترقى بصاحبها الى مراتب الأئمة وتسمو به الى منازل

المجتهدين.. الا بإلهام النحو وإرشاده؟

ان النحو وسيلة المستعرب، وسلاح اللغوي، وعماد البلاغي، واداة المشرع والمجتهد، والمدخل الى العلوم العربية والاسلامية جميعا"[1].

فالنحو لا يُستغنى عنه ، يستعان به على فهم الكتاب العزيز وحديث الرسول ﷺ. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب الى الآفاق أن يتعلموا السُّنة والفرائض والنحو كما يتعلمون القرءان. وكتب الى أبي موسى: " أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية"؛ وعن نافع عن ابن عمر أنه كان يضرب ولدَه على اللحن. قال الشعبي: النحو في العلم كالملح في الطعام. ويقال: النحو في العلم بمنزلة الملح في القِدر، والرامك في الطيب. ولعلّ الناظم أخذ منه قوله: «.. وملحه الذي يصلحه النحو..»؛ وقال شعبة: مَثَل الذي يتعلم الحديث ولا يتعلم النحو مثل بُرْنس لا رأس له"[2] ؛ وقال الشافعي: "من نظر في النحو رقّ طبعه" وقال عبد الملك بن مروان: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق[3] في الثوب النفيس، والجُدري في الوجه؛ وقال: الإعراب جمالٌ للوضيع واللحن هجنة على الشريف؛ ويقال: الإعراب حلية الكلام ووشيُه.

وللنحو، والصرف بصورة خاصة، مكانة أساسية في كمال الشخصية العلمية في المجتمع الزاوي[*] لأن الجاهل بالنحو معرض للزلل واللحن إذا نطق وذلك من شيمة العوامّ والجهلة. بل إن الرجل الذي يلحن أو يقرأ الشعر مختلَّ الوزن تلحقه من ذلك

(١) النحو الوافي لعباس حسن - ج١/ص ٢ ومابعدها.

(٢) البرنس - بالضم: قلنسوة طويلة، أو كل ثوب رأسه منه.

(٣) أي التشقق.

(*) يعني بالمجتمع الزاوي: المجتمع الموريتاني - والصحراوي عامة - نسبة الى "الزوايا" وهو الإسم الخاص بالطوائف المتعلّمة والمُعلّمة في ذلك المجتمع. والأرجح أن أصلها نسبة الى الزاوية (الركن) في المسجد أو الثغر، حيث يقيم الطلاب، أو يتحلقون حول الشيخ أو المعلم. (الناشر)

معرةٌ كبيرة ولا ينفعه في ذلك مبلغ علمه بالفنون الأخرى، وحتى بعلم النحو نفسِه، وفي ذلك تقع المناظرات الطويلة. ولذلك أشار الناظم بقوله في النحو: «.. جهوله انبذي».

ومما قيل في الترغيب والحث على العلم وخاصة في علم النحو قول أبي حيان:

هو العلم لا كالعلم شيءٌ تـراوده لقـــد فاز باغيه وأفلحَ قاصدهْ
وما فضُل الإنسان الا لعلمـــه وما امتاز الا ثاقبُ الذهـن واقدهْ
وقد قصرت أعمارنا وعلومنـــا يطـول علينا حصـرها ونكابـده
وفي كلها خيرٌ ولكنَّ أصلهـــا هو النحوُ فاحذر من جَهولٍ يعانده
به يُعرفُ القرآن والسنة اللـذا هما أصـل دين الله مَن أنا عابده
وناهيك من علم عليٍّ مشيـــدٍ مبانيه أعــززْ بالذي هـو شاهده

ومنه قول إمام النحاة الخليل بن أحمد:

أي شيء من اللباس على ذي السّـ ـــرو[1] أبهى مـــن اللسان البهيِّ
ينظم الحجة الشتيتة فـــي السلـ ــك من القول مثـــل عقد الهديِّ
وترى اللحنَ بالحسيب أخي الهيـ ـــئة مثل الصـــدا على المشرفيِّ
فاطلب النحوَ للحجاج وللشعـــ ـــر مقيما و المسند المـــــروي
والخطاب البليغ عند جواب الـ ـــقول يُزهى بمثله في النــــديِّ

وقال آخــرُ :

النحو أفضل ما يُقنى ويقتبسُ لأنـــه لكتاب اللـه مُلتمس
اذا الفتى عرف الإعراب كان لـه مهابـــة في أناسٍ حوله جلسوا

---

(١) السرو: المروءة في شرف.

لا ينطقون حذاراً أن يلحنهـم كأنما بهـم من خوفه خَـرسُ

وقال علي بن بشار:

رأيت لسانَ المرء وافد عقلـه[1] وعنوانـه فانظر بما ذا تُعَنوَنُ

ولا تعدُ إصلاح اللسان فإنـه يخبر عما عنـده ويبين

ويعجبني زيُّ الفتى وجمالـه فيسقط من عيني ساعة يلحن

وقال آخـرُ:

وما حُسن الرجال لهم بحسن اذا ما أخطأ الحسنَ البيـانُ

كفى بالمرء عيبا أن تـراه له وجهٌ وليس له لسـان

وللأديب امْحَمَّدْ بن أحمد يوره الديماني:

اللّحن أنتَنُ من لحمٍ على وضـمٍ أتت عليه ليالٍ من جديـدان

لو كنت في الفقه كالنعمان أو زفر أو ابن ادريس أيضـا وابن شعبان

وفاتك النحوُ لم تُحسب ـ اذا ذُكرت أفاضل الناس ـ الا نصفَ إنسـان

ولإبراهيم بن خلفٍ المهراني:

النحو يُصلح من لسان الألكنِ والمـرء تُكرمه إذا لم يلحن

واذا طلبتَ من العلوم أجلهـا فأجلها منهـا مقيمُ الألسـنِ

وقال آخـرُ:

النحوُ قنطرة[2] الآداب هل أحـدٌ يجاوز البحـر إلا بالقناطير؟

لو تعلم الطيرُ ما في النحـو من أدبٍ حنَّتْ وأنَّتْ إليـه بالمناقيـر

---

(١) وافد عقله: رسوله ودليله.

(٢) القنطرة: الجسر، وما ارتفع من البنيان.

ان الكـلامَ بـلا نحوٍ يماثلـه نبـح الكلاب وأصوات السنانيرِ[1]

وقال آخـــــرُ :

قدم النحو على الفقه فقـد يبلـــغ النحويُّ بالنحوِ الشّـرف

إنما النحوي في مجلسـِــــه كهــــلال بانَ من تحت السُّدف[2]

تخرج الألفاظُ من فيهِ كمـا يخـرج الجَـوهرُ[3] من بطنِ الصُّدف

ويقـولُ آخـرُ:

هـو الجهل جهلُ الفقه ليس بجائـز وجاهــل علم النحــو ليس بفائـزِ

ولا تترك التوحيد ملغىً فإنـــه لخيمـة دين المــرء إحدى الركائــز

وجهلُ عروض الشعر شرٌّ غريـزة اذا عُدِّدت يوماً شــــرار الغرائز

ولا تتركوا علمَ الحساب فإنـــه قبيــحٌ على الفتيان عَدُّ العجائــز

ثم ذكر الناظم علم السيرة في المرتبة الثالثة.

والسيرة ـ بكسر السين: هيئة السير، وجمعها: سِيَرٌ. ثم غلبت على حاله ﷺ في غزواته ونحوها من جوانب حياته وما يتعلق بذلك. وقد قال البوطي في "فقه السيرة": إن علم السيرة مما يحتاج اليه بنو البشر في اخلاقهم ومعاملاتهم وعبادتهم، وفي معاشهم ومعادهم. وحياة الرسول ﷺ مَلأى بالمُثُلِ العليا الكفيلة بإنهاض بني الإنسان، وتهذيب نفوسهم، وتقويم أخلاقهم، وتثقيف عقولهم، وإصلاح شؤونهم. فقد كان صلوات الله عليه وسلامه خيرَ البرية طفلا، وأنجبها كهلا، وأطهرَ المطهرين شيمَةً. فهو خير إسوة للفرد في

---

(١) جمع سنور: وهو الهرّ.

(٢) جمع سدفة: الظلمة.

(٣) الجوهر: كل حجر يستخرج منه ما ينتفع به، وكثر استعماله في اللؤلؤ خاصة؛ والصدفة: غشاء الدر.

امته، والزوج مع زوجته، والأب مع ولده، والمربي مع تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والقائد مع جنده في خطته وفي ساحة القتال، والشارع في أحكام شريعته، والقاضي في قضائه، والمسالمِ لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والمحتسبِ على بلاء الله، والصابرِ على قضائه، والعابدِ في محرابه، والزاهدِ في قناعته: ﴿لقدْ كَانَ لكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إسْوَةٌ حَسنَةٌ لِمَن كانَ يَرْجُو اللهَ واليَومَ الآخِرَ﴾[1]، كل أولئك يجدون في حياته عليه الصلاة والسلام مثَلاً يقتدونَ به، وروحاً يسمون بها عن أدران الفساد والضلال، ومعراجاً يَرقَونَ به عن الأحقاد والشحناء، وإماماً يسيرون وراء ه في تحقيق أهدافهم، ومَرَداً يرجعون إليه عند حيرتهم؛ وإن اختلفت مشاربهم، وتباينت مطالبهم..

وبهذه الدرجة الشاملة لكل شؤون الحياة الفاضلة، اعتبره الناظم أساساً للعلوم تُبنى عليه، وتحقيقا لها تتضح فيه، فقال :

« وأسه إدامُه تحقيقــــه سيرةُ خير واجب تصديقه »

ومن المعلوم أن الفرع لا يثبت الا اذا كان الأصل يحمله، كما قال الشاعر:

لا يثبت الفرع اذا لم يكـن يقِلّه من تحته الأصـــــــل

كما أن الوصولَ للفرع لا يتم الا بالتدريج مع الأصل، قال الشاعر:

يا أيها الدارسُ علمـــا الا تلتمس العـــونَ على درسـه

لن تبلُغَ الفرع الذي رمتـــه الا ببحــث منك عن أســـــه

ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنه واجد كل ذلك في حياة رسول الله ﷺ على أعظم مايكون من الوضوح والكمال، ولذا جعله الله

---

(١) الأحزاب: الآية ٢١.

ندوة للانسانية كلها، إذ قال جلّ من قائل: ﴿لقدْ كَانَ لكُمْ في رَسُولِ اللهِ إسْوَةٌ حَسنَةٌ لِمَن كانَ يَرْجُواْ اللهَ واليَومَ الآخِرَ﴾[1]، كما تقدم.

ولما كان شرف كل علم إنما هو بحسب شرف المعلوم، كان الإهتمام بعلم السيرة النبوية فضله عظيمٌ وخطبه جسيم لأنه هو الكفيل ببيان أحوال نبينا ﷺ العلية، وأطواره الشريفة الزكية من لدن كان في بطن ء امنة الطاهرة حملاً الى انتقاله الى دار كرامته ولحوقه بالرفيق الأعلى، ولذا كان من اشرف العلوم قدرا، وأرفعها منزلةً، وأطيبها ذكرا، فإليه ترتاح الأنفس والطباع، وبه تلذ الأفواه، وتشنف الأسماع.

فهو حديث لا يمل منهُ   ياليتنا لم نلهَ قط عنه

ـ مما قيل في الترغيب فيه قول القاضي ابي عبدالله محمد بن عيسى بن محمد ابن أصبغ الأزدي:

وإن أولى ما تحلى المسلمُ   بعد كتاب اللـه، أو يُقدّمُ
علم بأيام رسول اللـهِ   من لدن النشء إلى التناهي
وحفظ ما يحق أن لا يجهلا   من أمره وحاله مفصلا
تعلو به الرتبة عن يقين   في شرف الدنيا وحكم الدين

... الخ

ثم قال رحمه الله :

(1) الأحزاب: الآية ٢١.

لَـهُ تَـغـرَّبْ، وتَـواضَــعْ، واتَّــبِــــعْ
وجُـعْ، وهُـنْ، واعْـصِ هَوَاكَ، واتَّرِعْ
حَـــتى تَــرى حَالَكَ حالَ المُـنشَــد:
«لَوْ أنَّ سَلْمَــى أبْصَرتْ تَخَــدُّدي»
واقصِدْ به وجْـهَ الــــذي أنْشَاكا
ولا تُمــارِ فيــهِ مَـــن نَّـاوَاكَــا

تغرب: نزح عن الوطن؛ وتواضع: تذلل وتخاشع (ضد تكبر)؛واتبع: انقاد للحق؛ واترع: اقتحم الأمر،(يقال: تَرِع الرجل ترعاً: اقتحم الأمور مرحا ونشاطا، كما في "لسان العرب"، وفي كلام بعض الحكماء: "اتبع لا تبتدع، واتضع لا ترتفع، واترع لا تتسع"؛ وخدد لحمه وتخدد: هزل ونقص (والمتخدد: المهزول، ورجل متخدد: مهزول، وامرأة متخددة)[1]؛ وماراه مماراةً: عارضه؛ وناواه: عاداه وخالفه، وأصله بالهمز.

حثّ الناظم ـ رحمه الله ـ في هذه الأبيات طالب العلم على الإغتراب عن الأهل والوطن، وعلى التواضع والعمل بما علم، واحتمال المشقــة في سبيل تحصيله، والصبر على الأذى، ومخالفة الهوى، واقتحام غمـرات الشدائد والسهر الدؤوب في الحصول على اكبــــــر

---

(١) لسان العرب ـ لابن منظور.

قدر ممكن منه حتى يرى لسان حاله منشدا قول الراجز:

لو أن سلمى أبصرت تخددي ودقةً في عظـــم ساقي ويَدي

وبُعدَ أهلي وجفاءَ عُـــودّي عضّتْ من الوجد باطراف اليدِ

فمن صبر على طلب العلم، واستحلى مرارة الطلب واحتمل ضيق المعيشَة فيه جنى ثمرة العلم وشرفه، وسعد سعادةً ابدية وحاز رتبة سَنية. قال الغزالي رحمه الله: "ومن وظائف طالب العلم أن يقلل علائقه من الإشتغال بالدنيا ويَبعُد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة، وماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذا قيل: العلم لا يعطيك بعضَه حتى تعطيَه كلّك فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطرا. والفكرة المتوزعة على أمور متعددةٍ كجدول تفرق ماؤه فشربت الأرض بعضَه واختطف الهواء بعضه؛ فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرعَ".

قالوا: والسِّرُّ في أنَّ ما يُلقّن للصبيان من مسائل العلم يكون أرسخ وأثبت مما يلقن للكبار ، لأن قلبَ الصبي فارغ، وقلبَ الكبير مشحون بهموم الدنيا وأغراضها، وإن كان فهم الكبير أسرعَ من فهم الصغير، لكمال عقل الكبير ونقصان عقل الصغير، فالكبير سريع الفهم كثير النسيان، والصغير بالعكس، وقد عرفتَ السرَّ في ذلك، ومن هذا المعنى أخذ سابقُ البربريُّ قوله:

قد ينفع الأدبُ الاحداث في مهل وليس ينفـــع عند الكبرة الأدبُ

إنَّ الغصون اذا قومتها اعتدلـتْ ولن تلينَ اذا قوّمتها الخُشُـــبُ

وقال آخـرُ:

ان الغلامَ مطيع من يؤدبـــه ولا يطيعك ذو شيب بتأديب

ولأجل فراغ قلوب السلف الصالح رضي الله عنهم من اشغال الدنيا وهمّ الرزق، وخوف الخلق، وجمع همهم على الآخرة لم يحتاجوا الى تدوين العلم اتكالا على حفظهم لرسوخ ما يُلقى اليهم في قلوبهم. وقد قال الشافعي رضي الله عنه: "لوكلفت شراء بصلة ما حفظتُ حديثا واحداً".

هذا وكان الناس - ولاسيما الزوايا- يربّون الأجيال على العلم وينشئون أطفالهم على طلبه وتقديمه على ما سواه، ويعتبرون الاشتغال بطلب العلم لا يضر معه فقر ولا خمول، والجهل لا ينفع معه - في ذلك المجتمع - وفرة مالٍ ولا حسب. وكان شعارهم قول الشاعر:

العِلم يرفع بيتاً لا عماد لـــــه والجهل يهدم بيت العزّ والشرفِ

ويقول بعضهم في مجال النصح:

تعلّم يافتى والعـود رطـــبٌ وذهنكَ طيب والفهم قابـــلْ

فإن الجهل واضع كل عـــالٍ وإن العلم رافع كل خامـــل

أما يكفيكَ من شرفٍ وعـــز سكوت السامعين وأنتَ قائلْ ؟

هذا وقد أمر الناظم رحمه الله طالبَ العلم بالتغرب عن الأهل والوطن في طلب العلم لأنه كلما تباعد منهما انقطع من الشواغل الصارفة عن تحصيله واجتمعت الفكرة لدرك حقائقه، وأعطى الطالبُ كلّه للعلم، وذلك هو الوسيلة لتحصيله، والسبب في الفوز بثمرته.

والرحلة في طلب العلم والتغرب له عن الأهل والوطن من الأمر المعمول به في القديم والحديث، ومن دأب السلف الصالح. وبسببه وصل المرتحلون الى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح؛ فرسخت لهم في العلوم الأقدام، وصح لهم من الذكر والأجر أفضل الأقسام. فقد قال البخاري رحمه الله: "رحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر أتى عبد الله بن أنيس في حديث"[1]. وقال سعيد بن المسيب: "إن كنت لأرحل في طلب العلم والحديث الواحد مسيرةَ الأيام والليالي". وبذلك ساد أهل عصره وكان يسمى: سيدَ التابعين. وأقام ابنُ القاسم متغربا عن بلده في رحلته الى مالك عشرين سنة، حتى مات مالكٌ رحمه الله. ورحل سحنونٌ الى ابن القاسم فكان مما قرأ عليه مسائل المدونة.

وللأديب المجلسي: محمد المامي بن الجكاني ـ علماً ـ في المعنى:

تغرَّب للعلوم وكن عليهـــــا   صبوراً لا تؤيِّسك الخطـوبُ
وقاس الدهرَ واجتنب المعاصـي   فإن العلم تمنعــه الذنوب

ومما ينسب للقاضي عبد الوهاب:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى   وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد:
تفرجُ هم واكتساب معيشـــة   وعلــم وء اداب وصحبة ماجــد
فان قيل في الأسفار هم وغـــربةٌ   وقطــع فيافٍ وارتكاب شــدائد
فموت الفتى خيرٌ له من مقامــه   بأرض عدو بين واشٍ وحاســد

وقد بيَّنت السنة المطهرة أن طلب العلم فضيلة عظيمة لا يوازيها عمل وضمنت لطالبه

---

(١) راجع تفسير القرطبي. ج١١/ ص ١١

الخير الجليل والأجر الجزيل، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» - رواه الترمذي.

ومما ورد في فضله والترغيب فيه ما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجَه: «من سلك طريقا يبتغي فيها علما سلك الله به طريقا الى الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم» - الحديث. أي اذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضاة الله، وكانت سائر أحواله مشاكلةً لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته وحملته عليها، فمن هناك يسلم، فلا يحفى ان كان ماشيا، ولا يعيا، وتقرب عليه الطريق البعيدة، ولا يصيبه ما يصيب المسافرَ من أنواع الضرر كالمرض، وذهاب المال، وضلال الطريق..

ثم أمره الناظم - أيضا - بالتواضع، وهو تجمل النفس بالخضوع، ومنعها عن الترفع على الناس والاستخفاف بهم، وحملها على احترامهم، مهما اختلفت درجاتهم، وعدم الكبر على أحد سواء في ذلك الوضيع والرفيع، والصغير والكبير، ليحافظ على منزلته في النفوس، ويأخذ مكانته من القلوب، والتواضع خصلة محمودة تدعو الى التوادد والتعاون وتدلُّ على طهارة النفس، وسلامة الذوق، فكم رفع التواضع أقواما فكانوا هم الألى فازوا برضى ربهم والفضل العظيم، وكم خفض الكِبرءاخرين فحلَّ عليهم غضب الرحمن وباءوا بالخسران المبين، قال تعالى:﴿ واخْفِضْ جَناحَكَ لِمَن اتبَعَكَ من المُومِنين﴾[1]، وقال ﷺ: «ما تواضع أحد لله الا رفعه». رواه مسلم والترمذي. وقد قيل: قلما تواضع

(١) الشعراء: الآية ٢١٥.

الا رفيعٌ، وتكبّر الا وضيع، بل الوضيع ان تواضع ارتفع، والرفيع ان تكبر اتضع. قال الشاعر:

فهذا بالتواضع في الثريا وهـذا بالترفع في الحضيضِ

وإنما أمر الناظم طالب العلم بالتواضع ليخضع للحق، وينقاد له ممن سمعه، ولو كان أجهل الناس لزمه أن يقبله منه. وفي الحديث «تواضعوا لمن تتعلمون منه»[1]، وقد قالوا: المتواضع من طلاب العلم اكثر علما كما أن المكان المنخفض اكثر البقاع ماء. وقد قال سفيانٌ: السفلة اذا تعلموا تكبروا واذا تموّلوا استطالوا، والكرام اذا تعلموا تواضعوا، واذا افتقروا استطالوا. وقال بعض الحكماء: التواضع من أخلاق الكرام، والكِبْر من أخلاق اللئام. وقد قيل: تاج المرء التواضع. وقال الشاعر:

وأحسن اخلاق الفتى وأجلها تواضعه للناس وهو رفيعُ

واقبح شيءٍ أن يرى المرء نفسه رفيعاً وعند العالمين وضيع

وقالوا: التواضعُ مع السخافةِ والبخل أحمدُ من الكِبر مع السخاء والأدب. فأعظِم بحسنة عفَت عن سيئتين، وأفظِع بعيبٍ أفسد من صاحبه حسَنتين !! ولله درُّ القائل:

تواضعْ لرب العرش علّكَ ترفع فما خاب عبدٌ للمهيمن يخضع

ويقول آخرُ:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه الى طبقات الجو وهو وضيع

---

(١) حديث: تواضعوا.. الخ أخرجه الخطيب في الجامع. كما في الجامع الصغير.

ويقول آخـرُ:

اذا شئت أن تزداد قدراً ورفعـــــةً   فَلِن وتواضَع واترك الكِبرَ والعُجبا

ثم أمر الناظمُ ايضا طالب العلم بالاتباع لأنه شرط في اعتبار العلم والاعتداد به، والمراد به العمل، وهو أمر لا بد منه والا كان العلم حجة على صاحبه ـ نسأل الله السلامة والتوفيق ـ قال الإمام الغزالي: من وظائف طالب العلم: تقديم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف. إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى . وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة الا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم الا بعد طهارته من خبائث الأخلاق، وأنجاس الأوصاف. ولله در القائل:

شكَوتُ الى وكيعٍ سوءَ حفظي   فأرشـــدني الى ترك المعاصي
ونبّهني لأن العلم نـــــورٌ   ونـــــور الله لا يوتى لعاص

وللهلالي:

واعلم بأن كَدَر الذنــــوبِ   يكسف نورَ العلم في القلوبِ
أما ترى الذبالَ في المصبـــاح   إذا صفا أرضاكَ في استصباح
وإن يكن بوسخ ملطخـــــا   كسف نـــــوره لذلك الطخا
فاحذر على النور الذي وهبتا   وان تضـــع نـورَ الاله خبتا
وزين العلم بزينة الـــــورع   واقنع فخدن الحرص في الذل كرع

ثم أمره ايضا بالجوع والهوان ومخالفة الهوى واقتحام الأمور والشدائد التي تعترض

في سبيل تحصيل العلم، وذلك لأن العلم لا يحصل الا بالعناية والملازمة، والبحث والنصب والصبر على الطلب كما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال للخضر: ﴿سَتَجدني إن شَاءَ اللهُ صَابِراً ولا أعصي لكَ أمراً﴾(1)، وانه قال لفتاه: ﴿ءاتِنا غَداءَ نا لَقد لقينا مِن سَفرنا هذا نَصَباً﴾(2).

وروي عن ابن القاسم أنه قال: قال مالك: لا يُنال هذا العلم حتى يُذاق فيه طعم الفقر. وذكر ما نزل بربيعةً من الفقر حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم وقال سحنون: لا يحسن العلم لمن يأكل حتى يشبع، ولا لمن يهتم بغسل ثوبه(3). وقال مالك رحمه الله: أقمت خمس عشرة سنة اغدو من منزلي الى منزل ابن هرمز واقيم عنده الى صلاة الظهر، مع ملازمته لغيره، وكثرة عنايته. وبذلك فاق أهل عصره، وسميَ إمام دار الهجرة. ومما روي من كلام أحمد الصاوي: من يطلب العلم فليطلبه بجد واجتهاد لا بتراخٍ وكسل، فان العلم لا ياتي إلا لِمُجدٍّ او مشتاقٍ كسبيا كان أو وهبيّاً. فلا بد لمتعاطي العلم من الكدّ والتعب ومخالفة النفس. وقد قال بعض الحكماء: طالب العلم كالغائص في البحر لا يصل الى الجوهرة الكريمة الا بالمخاطرة العظيمة. وقال ءاخر: لا يُنال العلم براحة البدن. وقالوا من لم يتحمل ذُلّ التعلم ساعةً بقي في ذُلّ الجهل أبداً. وقيل: بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى. وقد قيل: من طلب شيئاً وجَدَّ وجَد، ومن قرع الباب ولَجَّ ولَجَ. وقال ابن عباس: ذللت طالبا فعززت مطلوبا. وقيل: لا يُدرِك العلمَ من لا يطليل درسَه،

---

(1) الكهف: الآية ٦٩.

(2) الكهف: الآية ٦٢.

(3) راجع الرهوني - ج١/ص ١١.

ولا يكد في تفهمه نفسَه. وقد قيل: العلوم أقفالٌ والأسئلة مفاتيحها. قال الشاعر:

قالت مسائل سحنونٍ لقارئهـــا بالكد يدرك مني كل ما استَتَرا
لا يدرك العلمَ بطالٌ ولا كســلٌ ولا ملـــولٌ ولا من يألف البشـرا

ومما قيل في تحمل المشقة في طلب العلم، والحصول على ثمرته قول الشاعر:

الذلُّ في طلب الإفادة عــــزةٌ فاحرص على نيل الإفادة ترشـد
إن التعزز في الذي تحتاجـــه كبر وكبر المرء أقبح مقصــــــد

وقال آخــــــرُ :

العلم أوله مرٌّ مذاقتُـــــه لكنَّ ء اخره أحلى من العسلٌ

وقال آخــــــرُ :

العلم أهل الفتى في حال غربتــه والجهل غربته في الأهل والوطـــنِ
وليس حسن الفتى في حسن صورتــــه وإنما حسنه من فعله الحســــــن

وقال آخـــــرُ :

تلوم على أن رحت للعلم طالبــاً وأجمـع من علم الرواة فنونــــه
فيا لائــمي دعني أغالي بمهجتـــــي فقيمـــة كل الناس ما يحسنونـــه

وللعلامة محمد عالي بن نعمه المجلسي رحمه الله:

إلى العِلم بادر واصحبنّ مواصله فكل مقام ما عــدا العلمَ نافلــه
وإياك واللأحِينَ حين طلابــــه فكـم عاذلٍ يَثنيك عنه وعاذلــه
فذو العلم في خير بعاجل سعيه ويحمــد إن شاء المهيمنُ ء اجله

وذو الجهل إن زانته دنياهُ عمرَه فزينته للشر لابـــد ء ائلـه

وقال آخــر:

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ما كان يبقى في البرية جاهل

فاجهَد ولا تكسَل ولا تك غافلا فندامة العقبى لمن يتكاسَلُ

وقال آخـرُ :

كن كاتماً للضر والبؤس تنَلْ قصداً وتعلو الجيل يا متعلمُ

لا تكثر الشكوى فكن متجلدا حتى يظن الناس أنك منعم

لا تشتغل بالرزق إذ ربُّ الورى متكفل رزقَ الــذي يتعلم

واخش الالهَ لدينه متحفظا إذ لا ينال العلمَ عاصٍ مجرم

نَائِي الكواعبَ والفوانيَ واعتزل ان تدن منها من ردىً لا تسلم

لا تشترِ الدنيا بالاخرى يافتى من باع نوراً بالدجى فسيندم

ولابن المبارك:

يا طالب العلم بادر الورَعا وهاجر النوم واهجُر الشبعا

يا أيها الناس أنتمُ عشب يحصده المــوت كلما طلعا

لا يحصد المرءُ عند فاقته الا الــذي في حياته زرعا

وقد قال بعض الحكماء: العلم يفتقر الى خمسة اشياء، متى نقص منها شيء نقص من علمه بقدر ذلك، وهي: ذهنٌ ثاقب، وشهوةٌ باعثةٌ، وعمر طويلٌ، وجدةٌ، واستاذٌ.

وجعلها الشافعي ـ فيما ينسب اليه ـ ستة بزيادة الإجتهاد فقال:

أخي لن تنال العلم الا بستةٍ سأنبئ عن تفصيلها ببَيانِ
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة[1] وصحبة استاذ وطول زمان

وله خمس مراتب أولاها: أن تنصت وتسمع، ثم أن تسأل فتفهم ما تسمع، ثم أن تحفظ ما تفهم، ثم أن تعمل بما تعلم، ثم أن تُعلّم ما تعلم. وقال بعضهم: أول العلم الصمت، والثاني الإستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره.

وقد قسم بعضهم مراتب أخذ العلم الى ست. ونظمها العلامة محمذفال بن متالي بقوله:

كتب إجازة وحفظ الرسم قراءة تدريس أخذ العلمِ
ومَن يقدم رتبةً عن المحَل من المراتب المرامَ لم يَنَل

ثمَّ أمر الناظم رحمه الله تعالى طالبَ العِلم أن يبتغي بطلبه وجه الله تعالى، وأن لا يقصد بعلمه مباهاة العلماء، ولا مماراة السفهاء، لما رُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « مَن طلب العلمَ لغير الله أو أراد به غير الله فليَتَبوأ مقعده من النار» - رواه ابن ماجَه والترمذي؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله لا يتعلمه الا ليصيب به عرضا[2] من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»، يعني ريحها. رواه ابو داوود وابن ماجه؛ وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ

(١) البلغة: ما يكتفى به من العيش ولا يفضل.

(٢) عرضا: أي متاعا.

«لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا تخيروا[1] به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار». رواه ابن ماجه والترمذي. وقال العباس لابنه عبد الله: "يا بني لا تعلم العلم لثلاث خصال: لا ترائِ به، ولا تمارِ به، ولا تباهِ به، ولا تدعه لثلاث خصال: رضىً بالجهل، وزهادة في العلم، واستحياء من التعلم.

وقال سفيان الثوري: إنما يتعلم العلم ليُتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لانه يتقى به الله. وعن ميمون بن مُهرانَ قال: لا تمارِ عالماً ولا جاهلا، فانك اذا ماريْتَ عالما خزن عنك علمه، وإن ماريت جاهلا خشن بصدرك. وقال مالك: المراء يقسي القلب ويورث الضغن، وقال: إن حقّاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينةٌ وخشيةٌ، وأن يكون متبعاً آثار من مضى قبله. وقال عبد الله بن حسن: المراء يُفسد الصداقة القديمة ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة[2] وقالوا: لا تناظر جاهلا ولا لجوجا فإنه يجعل المناظرة ذريعة الى التعلم بغير شكر. وقد قال الشاعر:

وإذا جلست إلى الرجال وأشرقت   في جـــو باطنكَ العلوم الشرَّدُ
فاحذر مناضلةَ الحسود فإنمـــــا   تغتاظ أنتَ ويستفيد ويجحــدُ

وفي هذا المعنى يقول مسعر بن كدام الهلالي يخاطب ابنه قداماً:

إني منحتك يا قدام نصيحتـــي   فاسمـــع لقول أبٍ عليك شفيقُ

(١) ولا تخيروا: أي لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها، وفي رواية: أو لتصرفوا وجوه الناس اليكم فمن فعل .. الخ

(٢) راجع كتاب: جامع العلم وفضله - ج٢/ص ١٢١.

أما المزاحة والمراء فدعهمـــا خلقان لا أرضاهما لِصــديق
انــي بلوتهما فلم أحمَدهمــا لمجــاورٍ جاورته ورفيـــق
والجهل يزري بالفتى في قومـه وعروقـه في الناس أي عـروق

ثم انه لا يزهد في العلم كونه طُلب أولا لغير الله، فإنه يقودُ الى الله عز وجلّ على كل حال. فعن الربيع بن صبيح قال: سمعت الحسن يقول "كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا الى الآخرة"، وقال: لقد طلب أقوام هذا العلم ما أرادوا به الله وما عنده فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده!!. وكان معمر يقول: من طلب العلم لغير الله يابى عليه العلم حتى يصير الى الله. وعنه قال:كان يُقال ان الرجل ليتعلم العلم لغيرالله فيأبى العلم عليه حتى يكون لله. وعن حبيب بن ابي ثابت قال: طلبنا هذا الأمر وليس فيه نيةٌ،ثم جاءت النيـة بعد[1].

ثم إن العلم ليس من الممكن الإحاطة به، وطالبه لا يشبع فينبغي له اذا اشتغل بطلبه أن يقدم الأهم فالأهمّ، وقد قال الهلالي رحمه الله:

وقدم الأهمَّ ان العلمَ جَـــمْ والعمرُ طيفٌ زار أو ضيفٌ ألَمْ
أهمه عقائدٌ ثم فـــروع تصـــوف وء الةٌ بها الشروع

وقال ابن عباس: العلم اكثر من أن يحاط به فخذ منه أحسنَه. وأنشد محمد بن مصعب:

ما اكثر العلم وما أوسعــه من ذا الذي يقدر أن يجمعه؟
إن كنتَ لابد له طالبــاً محاولا فالتمسْ أنفعَــه

(١) راجع كتاب "جامع بيان العلم" ج:٢/ص ٢٧ فما بعدها

ويقـولُ آخــرُ:

لن ينال العلم طراً أحــــد لا ولو حاولـــــه الفَ سنـةْ

إنما العلم كبحرٍ زاخــــــرٍ فالتمس من كل علم أحسنه

وقـد قـيل: العـالم النبـيل الذي يكتب أحسن مـا يسـمع ويحـفظ أحـسن مـا يكتب، ويحدث بأحسن ما يحفظ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من الأدب أن تروي الشاهدَ والمثلَ. قال الشاعر:

وما من كاتب الا ستبقـــــى كتابتــــــه وإن فنيت يـــداهُ

فلا تكتب بكفك غــــير شيئٍ يسرُّكَ في القيامة أن تـــــراهُ

وقال بعض الحكماء: اقصد من اصناف العلم الى ما هو اشهى لنفسك، وأخفٌ على قلبك،فان نفاذك فيه على حسب شهوتك له، وسهولته عليك.والله تعالى اعلم. ثم قال رحمه الله :

لِلضَّيْفِ هَيِّئْ مَنزِلاً رَحِيبــــا

ولاقِيَنْــهُ البِشْـــرَ والتَّرحيبــا

عَنْه اكْتُمِ الأكْدارَ والمَصَائــــبْ

وازْجُرْ أهَالِيـكَ عَنِ التَّصَاخُبْ

إلى مَسِيــــرِه. وشَيِّــــع، زَوِّد

بِما تَيَسَّرَ. وفي السُّؤْرِ ازْهَـد

واخدِمْه نفسَكَ،رُوي أنَّ الخَليـلْ

أوحَى بذَا إليهِ ربُّـهُ الجَليـــلْ

الضيف في اللغة: الميْل، وفي الاصطلاح: الشخص النازل عندك طلبا للقِرى. وسُمي ضيفاً لميله إليك وإضافته لك ونزوله عندك. والضيف اسمٌ يستوي فيه المفرد والتثنية والجمع، والمذكر والمؤنث، مع أنه قد يثنى ويجمع؛ والمنزل: هو مكان النزول، ويقال للدار أيضا؛ والرحيب: الواسع؛ والبشر. بكسر فسكون: بشاشة الوجه؛ والترحيب: أن يدعوه الى الرحب ويقول له: «مرحبا». وقد يقال مرحباً، وأهلاً وسهلاً. ومعنى مرحبا: أي لك عندنا مرحب، وهو السعة في القلب والمكان. ومعنى أهلا: أي لك عندنا أهلٌ تأنس بهم بلا وحشة لك منا. ومعنى سهلا: أي لك عندنا سهولة في ذلك كله، أي لا يشتد علينا شيئ مما تريد.

وقوله «عنه» أي الضيف، اكتم الاكدار: كل ما ينغص من الهموم والمصائب التي ربما كانت لدى المضيف؛ والزجر عن الشيئ: النهي عنه، والإنذار بوقوعه؛ والتصاخب: التصايح واختلاط الأصوات؛ وشيّعه: خرج معه ليودعه، أو يبلّغه منزله؛ وزوّده: أعطاه الزاد، وهو ما يتخذ من الطعام للسفر؛ والسؤر:مايبقى في الإناء من الماء وغيره؛ والزهد في الشيئ: الاعراض عنه وتركه احتقاراً له (وزهد كمنع، وسمع، وكرم).

تناول الناظم رحمه الله في هذه الأبيات الضيافة وآدابها ، وما يجب للضيف من حق الإكرام وحسن المجاملة. وأشار الى أهمها وهو تهيئة المكان للضيف وتمهيده، وإظهار السرور والسعادة بزيارته، والترحيب به، وإخفاء كل ما يُنغص من المشاكل والهموم التي لدى المضيف، وربما يسوء الضيفَ الاطلاع عليها، وكذا الزام الاهل بالهدوء من حول الضيف، وعدم ازعاجه بالتخاصم والثرثرة، واستمرار هذا الجو حتى تنتهي الضيافة ويسافر الضيف وسط هذا الاكرام، وذلك بتشييعه وتزويده بما تيسر مما يحتاج اليه من زادٍ ومساعدة، ولا يرغب فيما بقي عنه مما قُدِّم اليه بل يكون مسروراً بأكله، غيرَ مسرور بتركه الطعامَ.

والضيافة من مكارم الأخلاق والتكافل الاجتماعي والتعاون بين الناس لأن سببها يكون في الغالب ظروفا خاصة طارئة تضطر الشخص الى طلب الاستراحة والايواء مؤقتا حتى يقضي حاجته أو يستريح فيواصل طلبه. وقد جعلها الله تعالى من ء اداب الاسلام، وسنن المرسلين وخُلق النبيئين والصالحين. فقد وردت في القرءان العظيم حيث قصَّ الله تعالى علينا قصة ضيف ابراهيم عليه السلام مراراً، وما ذلك الا لحكمة بالغة، وتنويه بشأن حسن الضيافة. وورد الحثُّ عليها في السنة المطهرة. ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فليكرم ضيفَه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيرً أو ليصمت» ـ رواه البخاري ومسلم؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل الى النبي ﷺ ليضيفه فلم يكن عنده ما يضيفه به فقال: «ألا رجلٌ يضيف هذا رحمه الله»؟ فقام ابو طلحة الانصاري فانطلق به الى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قُوت صبياني، قال فعَلّليهم بشيءٍ فاذا دخل ضيفنا فاطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي الى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف.فلما اصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب[1] الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»! ـ رواه مسلم. قال فنزلت هذه الآية: ﴿ويُوثِرُونَ على أنفُسِهم ولو كانَ بهمْ خَصاصَةٌ ومَنْ يوقَ شُحَّ نفسِه فأولئكَ هُم المُفْلِحُون﴾[2].

وأول من قرى الضيف سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، وكان يكنى ابا الضيفان، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوتَه أحد، وكان يخرج لتلقي الضيفان من مسافة فرسخ، فإن وجدهم أكرمهم وأكل معهم والا نوى الصوم. وقد أمر ﷺ باتباعه، وأمْره ﷺ أمرٌ لأمّته. والضيافة ـ وإن كان الشرع أمر بها ـ ليست بواجبة عند جمهور أهل العلم لقوله ﷺ «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته»، قيل: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» ـ الحديث ـ رواه البخاري. والجائزة العطية والصلة التي أصلها على الندب. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم

---

(١) أي عظم ذلك عنده ، واطلاق العجب عليه تعالى مجاز لأنه لايخفى عليه اسباب الأشياء

(٢) الحشر: الآية ٩.

ضيفـــه»[1]، واكرام الجار ليس بواجب فالضيافة مثله. والله تعالى اعلم.

وقد أوجب الامام احمد وطائفة من العلماء الضيافةَ للنَّزيل، وكذلك مذهب الليث، تمسكاً بقوله ﷺ «ليلة الضيف حقٌ على كل مسلم فان اصبح بفنائه فهو دين عليه فإن شاء اقتضى وان شاء ترك» ـ رواه ابن ماجه وابو داوود. قال في «عمدة القاري»: والأمر بالإكرام يختلف بحسب المقامات وربما يكون فَرضَ عين او فرض كفاية، وأقله أنه من مكارم الأخلاق. واختلف العلماء في من يُخاطب بالضيافة فذهب الشافعي ومحمد بن عبد الحكم الى أنه أهل الحضر والبادية معاً. وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة. وقال سحنون: إنما الضيافة على أهل القرى، وأما أهل الحضر فالفندق ينزل فيه المسافر، وقد قال ابن العربي: إنها فرض على الكفاية واجبة في القُرى حيث لا طعام ولا مأوى، بخلاف الحواضر فانها مشحونة بالمأوي والأقوات. ولعل هذا القول هو أصوب الأقوال، والله أعلم.

وعلى كل حال فهي من الخصال المحمودة. ولعظم مكانتها وكونها مما يَتَبارى المحسنون وأهل المروءة في ءادابه صارت معدودةً في المفاخر ومقاصد المدح، وبات التقصير فيها وعدم القيام بواجبها من المثالب والنواقص المؤدية للذم عادةً، كما تدل لذلك الأشعار والقصص المطردة في آداب الأمم والشعوب.

وإكرام الضيف من الاخلاق القديمة التي كانت العربُ تتمسك بها وتفتخر بها. فمن ذلك ما ذكره النعمان بن المنذر في مناظرته لكسرى في شأن العرب حيث يقول:"وأما سخاؤها (العرب) فإن أدناهم رجلا الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن

(١) حديث: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.. الخ رواه ابو داوود والبخاري في الأدب المفرد.

يخرج عن دنياه كلِّها فيما يُكسبه حُسنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر".

وكانت العرب تفتخر باكرامها الضيف في أشعارها، وتذكر استقبالها له بكل أنواع الإكرام بل كانوا يرغبون في اتيان الضيف لإكرامه فيوقدون النار في الأماكن المرتفعة ليهتديَ بها من أضلَّ الطريق ليلاً ، ويتلقونه بالبشر والسرور، ونَحْر الجزور، والترحيب. ومن خير ما يُمثل ذلك قول حاتم طيِّئٍ لغلامه:

أوقِد فإن الليلَ ليلٌ قَر[1] والريح يا واقِدُ ريحٌ صِرُّ
علَّ يرى نارَكَ من يمر ان جلبت ضيفاً فأنتَ حرُّ

ولأبي النجم:

لقد علمت عرسي أميمة أنني طويل سَنا ناري بعيدٌ خمودُها
اذا حلَّ ضيفي بالفلاة ولم أجد سوى منبت الأطناب شبٌّ وقودُها

وقال آخرُ :

ويدل ضيفي في الظلام على القِرى إشراقُ ناري أو نباحُ كلابي
حتى إذا واجهنه ولقينه حيينه ببصائم الأذناب[2]
وتكاد من عرفان ما عودنه من ذاك أن يفصحن بالتَّرحاب

ولأبي العلاء:

الموقدون بنجد نارَ أوديةٍ لا يحضرون وفقد العز في الحضرِ
إذا هَمَى القطر شبَّتها عبيدهم تحت الغمائم للسارين بالنظر

وقال الأعشى:

---

(١) القر: البارد: وريح صر، بالكسر: شديدة البرد، أو الصوت.
(٢) أي أطرافها.

لعمري لقد لاحَتْ عيونٌ كثيـرةٌ الى ضـــوء نار في يَفَاعٍ[1] تَحرَّقُ

تُشَبُّ لِمقرورَيْن يصطليانهــــا وبات على النـار الندى والمحلق[2]

رضيعيْ لبان ثـدي أمٍّ تَحالفــا بأسحـــم داجٍ عوْضُ لا نتفرق[3]

وقال آخـــــرُ :

له نارٌ تشبُّ علـى يَفـاعٍ إذا النيـران ألبست القناعا

ولم يَك أكثر الفتيان مـالاً ولكـــن كان أرحبَهم ذراعا

ولعبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري:

وإذا تراء ى شخصُ ضيف مقبلٍ متَسَربـــلٍ أثوابَ محـلٍ أغبرِ

أوما الى الكَوْماء: هـــذا طارقٌ نحـــرتنيَ الأعداء إن لم تُنحَرِي!

وقال آخـــــرُ :

عـودت نفسي إذا ما الضيف نبَّهني عقرَ العشار على عـسري وإيساري

ولأرطاة بن سمية:

وإني لقوّامٌ الى الضيفِ مـــوهناً اذا أغـدق السترَ البخيل المواكل[4]

---

(١) اليفاع ـ بالفتح: التل المشرف، أوما ارتفع من الأرض.

(٢) المقرور: المصاب بالقر ـ بالضم ـ وهو البرد. والندى الجود، والفضل. والمحلق: هو الممدوح بهذه الأبيات، واسمه عبد العزى بن حنتم من بني عامر بن صعصعة.

(٣) باسحم داج: اي ليل مظلم، والباء ظرفية، أي تحالفا في ليل شديد السواد. وقيل هو الرحم، أي في ظلمة الأحشاء قبل الولادة. وعوض ـ مثلثة الآخر، ومبنية : ظرف لاستغراق المستقبل مختص بالنفي، يقال: لا أفارقك عوض أي أبداً. ولا نتفرق: جواب القسم، وجيئ به على حكاية لفظ المتحالفين الذي نطقا به عند التحالف، ولو جيئ به على لفظ الاخبار عنهما لقيل: لايفترقان.

(٤) أغدق: اسبل. والمواكل: العاجز الذي يكل أمره الى غيره ويتكل عليه.

دعا فأجابته كلابٌ كثيـــــــرةٌ   على ثقــة مني بما أنا فاعــــلُ
وما دون ضيفي من تلادٍ تحـــوزه   لي النفسُ الا أن تصانَ الحلائــلُ

ولآخر:

وإنا لمشّاؤون بين رحالـــــــنا   الى الضيــف منّا لاحفٌ ومنيمُ
فذو الحلم منا جاهــلٌ دون ضيفه   وذو الجهـــل منا عن أذاه حليم

وقال آخـــرُ :

سريع الى الأضياف في ليلة الدجى   اذا اجتمع الشّفانُ[1] والبلد الجدبُ

وقال آخـــرُ :

وسارٍ تحلى أنجمَ الليل زينـــةً   ويلبس مــن ظلمائها ثـوب ثاكـل[2]
رفعتُ له ناري فآنسَ ضــــوءَ ها   كما آنسَ الظمآنُ بـردَ المناهـــل
أتانا فحيانا فكان جوابُـــــه   صليلَ شفار السّيفِ في ساق بازل[3]
وما أنا من سؤّاله: ممّن الفتـــى؟   وتلك سجايا كــلِّ أطلسَ باخل[4]
فذاك الذي أودى بما كسبت يــدي   وإن عادَ وَفْــري عُدتُ غير مواكل

ولليلى الأخيلية في توبةَ بن الحُميِّر:

وكان اذا ما الضيفُ أرغى بعيره   لديــه أتاه نيلُه وفــواضله
يبيت قرير العين من كان جــاره   ويضـحى بخير ضيفه ومُنازله

---

(١) الشفان: الريح الباردة مع المطر.

(٢) اي المصاب بفقدان احبته او ولده.

(٣) صليل: صوت؛ شفار: حد السيف؛ بازل: مسنة من النوق.

(٤) أطلس: دنس الثياب. (ورجل عليه ثوب اطلس: اذا رمي بقبيح)؛ والباخل: اللئيم.. اهـ من لسان العرب.

ومن خير ما يمثل الكرم وحسن الضيافة قول عتبة بن بجير:

فقالوا غريب طارق طوحت بـــــه   متونُ الفيافي والخطوب الطوائح[1]

نقمت ولم أجثم مكاني ولم تقـــم   مع النفس علات البخيل الفواضح

وناديتُ شبلاً فاستجاب وربمـــا   ضمنا قـــرى عشر لمن لا نُصافح[2]

فقام أبو ضيف كريمٌ كأنـــــه   وقد جـــدَّ من فرط الفكاهة مازح

الى جِذم[3] مال قد نهكنا سوامــه   وأعــراضنا فيه بــواقٍ صحائــح

جعلناه دونَ الذم حتى كأنــــه   اذا عـــدَّ مالُ المكثرين المنائـــح

لنا حمد أرباب المئين ولا يُـــرى   الى بيتنا مالٌ مع الليل رائـــح[4]

ولحاتم طيئ في مجال البشر والسرور بالضيف:

سلي الطارق المعتر[5] يا أمّ مالـــك   اذا ما أتانـــي بين ناري ومجزري

أأبسُط وجهـــي، انه أول القـــرى   وأبـــذل معروفي له دون منكري

وقال آخـــــرُ :

أهلا بضيف أتى ما استفتح البابا   مجلببٍ في ســـواد الليل جلبابا

وقال عمرو بن الأهتم التميمي المنقري:

ذريني فان الشُّحَّ يا أمّ مـــالك   لصالـــح اخلاق الرجال سروق

---

(١) الخطوب الطوائح: المصائب المهلكة.

(٢) شبلا: اسم ابنه؛ وقرى عشر: ضيافة عشر ليال لمن ليس بينهم وبينه مصادقة توجب مصافحته.

(٣) جذم مال: أصله.

(٤) يقول: ان مالنا قليل، فإبلنا باركة بفناء الدار انتظارا للضيف. وهي ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة، ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للمكثرين أصحاب المئين.

(٥) المعتر: الذي يطوف بك يطلب ما عندك سائلا كان أو ساكتا.

ذريني وحظي في هواي فانني   على الحسب العالي الرفيق شفيقُ
ومُستنبحٍ بعد الهدوء أجبته   وقد حان من ساري الشتاء طُروق
فقلت له: أهلا وسهلا ومرحباً   فهذا مبيت صالح وصديق
أضفت ولم أفحِشْ عليه ولم اقل   لأحرمه: انّ الفناء يضيق
لعمركَ ما ضاقتْ بلاد بأهلها   ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق

ولقيس بن عاصم في مجال خدمة الضيف:

أيا ابنة عبد الله وابنة ذي الندى   بُجيرٍ وذي الرمحين والفرسِ الورد
اذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له   أكيلاً فإني لستُ آكلَه وحدي
قَصيا كريماً أو قريباً فإنني   أخاف مذمّات الأحاديث من بعدي
واني لعبد الضيف ما دام نازلاً   وما فيَ الا تلك من شيمة العبدِ

وقال آخرُ :

لعمر أبيك الخير اني لخادم   لضيفي واني ان ركبت لفارسُ

ولعتبة بن بجير في مجال الحديث عند المواكلة:

طعامي طعام الضيف والبيتُ بيته   ولم يُلهني عنه الغزال المقنع[1]
أحدثه ، ان الحديث من القرى   وتكلؤ عيني عينَه حين يهجع

وللشماخ في عبدالله بن جعفر بن ابي طالب:

انكَ يا ابن جعفر خير الفتى   وخيرهم لطارق إذا أتى
ورب نضوٍ طرق الحي سُرى   صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى

---

(١) يعني امرأته.

وقال آخــــرُ :

وضيفَك قابِله ببشركَ وليكن　　لــه منك أبكارُ الحديث وعونُهُ

وللضيافة في الإسلام آداب ومحاسن ذكر الناظم بعضها، وقد وردت الاشارة اليها في قصة ضيف ابراهيم عليه السلام التي وردت في القرآن الكريم مكررة في غيرما موضع. وسنعرض لذكر بعض تلك الآداب التي تضمنتها. ومن آداب الضيافة وتمام المروءة إظهار المُضيف لضيفه الطلاقة وبسطَ الوجه عند اول وهلة، وإظهار السعادة والسرور بزيارته، وأن يرحب به. فقد قيل البشاشة في الوجه خير من القرى. ولشمس الدين البديوي:

اذا المرء وافى منزلا لكَ قاصداً　　قــراكَ ترامتهُ اليك المسالكُ

فكن باسماً في وجهه متهللاً　　وقل: مرحبا، أهلاً، ويوم مبارك

وقدم له ما تستطيع من القِرى　　عجولاً ولا تبخل بما هو هالك

فقد قيل بيتٌ سالفٌ متقدمٌ　　تداوله زيدٌ وعمرو ومالك:

«بَشاشة وجه المرء خيرٌ من القِرى　　فكيف بمَن ياتي به وهو ضاحكُ؟»

ولعاصم بن وائل:

وانا لنقري الضيفَ قبل نزوله　　ونُشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ويقولُ آخرُ:

اللهُ يعلمُ أنه ما سرَّنــــي　　شيءٌ كطارقة الضيوف النُّزَّلِ

وللخريمي في كرم الضيافة:

أضاحكُ[1] ضيفي قبل إنزال رحلـــه ويُخصـــب عندي والمحل جديبُ

وما الخصب للاضياف ان يكثر القـــرى ولاكنما وجــــه الكريم خصيبُ

ولستُ بقوّالٍ اذا الضيف حلَّ بـــي: تـــرحّل فإن الحيَّ منـــك قريب

ومما قيل في الترحيب:

هلمّ وفي رحبٍ نزلتم وفي سهــــل ونفسي قليلٌ في قراكم وفي النزل

لئن أذنبت قدماً ليالي فراقنــــا لقد شفعت في ذنبها ليلةُ الوصل

ومن المبالغة في اكرام الضيف زيادةً على الترحيب والبشر به استشعار المضيف ان منزله بما فيه ملك له ولضيفه على حد السواء كما قال الشاعر:

منزلنا رحبٌ لمـــــن زاره نحن سواء فيه والطارقُ

وكل ما فيه حلالٌ لــــه الا الذي حَــرّمه الخالقُ

وابلغ منه قول الآخر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنــــا نحـن الضيوفَ وأنتَ ربُّ المنزل

ومن آداب الضيافة أيضا أن يناول المضيفُ ضيفَه إناءَ الشراب. واذا كان الضيف جماعةً يتناول الإناءَ من كل واحد فيدفعه الى الذي يليه، ولا يدع الضيف يناول رفيقه لما في ذلك من استخدامه.

ومنها: ان يُخفي المضيفُ عن ضيفه ما يريد تحصيله حذرا من أن يظهر عليه فيمنعه منه. ومنها: ان يَخرج عن الضيف بعدما يقدم اليه ما يحتاجه ويتركه وحده قليلاً حتى يستريحَ ويتمدد. ومنها: أن يريَه مكانَ الخلاء، وأن يتفقد دابته ويكرمها قبل اكرامه.

---

(١) الضحك: انكشاف الأسنان، ويحتمل أن يكون المراد به هنا: اشراق الوجه، يقال: رأيت فلانا ضاحكا: أي مشرقا. وأتيت على روضة تضحك: أي مشرقة.

ولبعض الشعراء فـي ذلك:

مطيـة الضيف عندي تلو صاحبها   لن تُكرم الضيفَ حتى تكرمَ الفرَسا

ومنها: تعجيل القِرى، وأن يختار أفضله تأسيا بابراهيم عليه السلام كما جاء في القرءان الكريم: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1]. وقد قال الشاعر: «واكرم أضيافاً قراها طروقُها..» أي عجل لها القرى فكأن طروقها هو الذي قراها. فينبغي للمضيف أن يقدم لضيفه الموجودَ الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره ـ ان كان له جدة ـ ولا يتكلف ما يضر به. ومنها: الاتيان بالطعام اليه في مكانه بطريقة العرض والتماس الأكل، لا الأمر به والإلحاح عليه، كما يدل عليه قوله تعالى في نفس القصة: ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾[2]، ثم عليه أن يأكل معهم بطريقةٍ تشجعهم على الأكل، لا رغبةً في الأكل نفسه.

كما أن من السنة للضيف إذا قُدم اليه الطعامُ أن يبادر بالأكل. فإن كرامةَ الضيف تعجيل التقديم، وكرامةَ صاحب المنزل المبادرةُ بالقبول. ومنها: اظهار العذر عند الإمساك عن الأكل، ثم تحسين العبارة في العذر، كأن يقول: لي مانع من أكل الطعام، ولا يقول: هذا طعام من أمره كذا وكذا، لا يصلح لي.

ومن آداب المضيف ان يلاحظ ضيفه هل يأكل أم لا، ويكون ذلك بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر. وقد قال اعرابي في ذلك:

ولَلموتُ خيرٌ من ضيافة باخـــل   يلاحـظ أطراف الأكيل على عَمدِ

ومن الإحسان الى الضيف وتكريمه كذلك أن يخدمه المضيف بنفسه، أو يظهر

---

(١) هود: الاية ٦٩.

(٢) الذاريات: الآية ٢٧.

استعداده لذلك ان كان له خدم، فقد كان ابراهيم عليه السلام يخدم ضيفه بنفسه وأهله. قال مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أتاكَ حَديثُ ضَيفِ ابراهِيمَ المُكْرَمِينَ﴾[1]: "قيل سمَّاهم مكرمين لخدمة ابراهيم اياهم بنفسه". ويقال انه كان اذا اراد أن يُكرم اضيافَه أقام سارةَ تخدمهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وامْرَأتُه قَائِمَةٌ﴾[2]أي قائمة في خدمتهم. وكانت عادة العرب ان لا تتحاشى نساؤهم خدمة الضيوف.

وروي أن ابراهيم عليه السلام أوحى الله اليه أن أكرم ضيفَك فبالغ في الاكرام، ثم أوحى الله اليه أن أكرم ضيفك، فأعد لكل ضيف شاة، ثم أوحى الله اليه أن أكرم ضيفَك، فعلم أنه لا يريد القرى فخدم ضيفه، فأوحى الله اليه: الآن اكرمتَ ضيفكَ يا ابراهيم.

والى هذا أشار الناظم بقوله: «... روي أن الخليل أوحى بذا إليه ربه الجليل».

وروي عن سهل بن سعد قال: دعا أبو أسيد الساعديُّ النبي ﷺ في عرسه فكانت امرأته حينئذ خادمَهم. وأخذ منه جواز خدمة العروس زوجَها وأصحابَه في عرسها. وفيه: أنه لا بأس أن يعرض الرجلُ أهلَه على صالح إخوانه ويستخدمها لهم.

ومن ءاداب المضيف ـ ايضا ـ ان يحدث أضيافَه بما تميل إليه نفوسهم من لذيذ المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطُّرف ـ ان كان من أهل ذلك ـ وأن يسهر معهم ولا ينامَ قبلهم، ولا يشكوَ الزمان بحضورهم، وأن لا يُحدث بما يروعهم، وأن يراعي خواطرهم كيفما أمكن، ولا يغضب على أحد بحضورهم، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه، ولا يظهر نكدا، ولا ينهر احداً ولا يشتمه بحضرتهم، بل يُدخل على قلوبهم السرورَ بكل ما أمكن. وعليه أن يأمر غلمانه

(١) الذاريات: الاية ٢٤.

(٢) هود: الآية ٧١.

بحفظ نعالهم.

ومن إكرام الضيف ـ ايضا ـ إظهار التأسف عند وداعه وابداء الرغبة في بقائه، وحثه على التريث، وعدم العجلة. ولا يسكت عند خروجه مخافة ان يكون سكوته يوهم الاستثقال به. ومن الإحسان اليه واكرامه: إعطاؤه، وارفاقه، وهدايته، وإرشاده. ففي الحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه الى باب الدار» ـ رواه ابن ماجه.

ولبعضهم في هذا المعنى:

ونُكرم ضيفَنا ما دام فينا ونُتبعه الكرامةَ حيث مالا

وقد أشار الناظم الى ذلك بقوله: «... وشيع، زوِّدِ بما تيسر...».

والله سبحانه وتعالى أعلم. ثم قال رحمه الله :

وأجْمِلْ إنْ أرَدْتَ أنْ تمـــولا
"إجْمالَ مَنْ تجَمُّـلاً تَجَمَّـــلا"
فإنْ أبتْ عنكَ فأنتَ الأعـــلى
ليهْنِكَ الإبا وهِـــيَ النُّـــزلى
قَولُ الزَّمَخشَري: «وَمُذْ أفلحَ» لا
تعدلْ بـهِ فهوَ يُضاهي المثَـلا

أجمل في الطلب: اعتدل ولم يُفرط؛ وتموّل: اتخذ مالا، أو كثُر ماله؛ والتجمل: تكلف الجميل، والصبر على الدهر. وعدم اظهار الذل على النفس ؛ وليهنك: أي ليسُرَّك (يقال: هنَّأه بالشيئ تهنيئاً وتهنئة: ضدُّ عزَّاه)؛ والإباء: الإمتناع ـ وقصره ضرورة ـ والضمير في قوله «هي النزلى» عائدٌ الى الدنيا المفهومة من قوله: «ان تمولا». والنزلى: هي المنحدرة من علوٍ الى سُفل؛ والزمخشري: نسبة الى "زمخشر" وهي قرية كبيرة من قرى خَوارَزْمَ. والمراد به هنا: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري. وسياتي التعريف به إن شاء الله تعالى.

وقوله «لا تعدل به» أي لا تعدل عنه فهو معبر عن الواقع بحيث اصبح يضاهي (أي يحاكي) المثل في بلاغته وصدقه. فالضمير في «به» عائد على قول الزمخشري. والمراد به قوله: "ومذ أفلح الجهال أيقنتُ أنني ....الخ»؛ والمثل: هو القول السائر بين الناس الممثل بمضربه، أي الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام. وقوله: «إجمال»: مصدر

فعله أجمل أولَ البيت؛ وتجملا (بضم الميم مشددة): مصدر من تجمل (بفتح الميم) ءاخر البيت. وأتى بالمصدر فيهما تأكيداً لفعليهما، لأن المصدر يجاء به لتقوية عامله وتقرير معناه. وفي تكرير اللفظ دلالة أخرى على التأكيد. وهذا كما في قول الشاعر:

إن كنتَ طالب حاجة فتجمـــل   فيها بأحسن ما طلبت وأجمـلِ

إن الكريم أخا المروءةِ والنهـى   من ليس في حاجاته بمثقـــل

وتقرير البيت: وإذا أردت الحصول على المال فأجمل إجمال من تجمّل تجمّلاً، أي بالغ في الإجمال. والشطر الأخير ضمنه من ألفية ابن مالك في النحو(*)، والتضمين من المحسّنات اللفظية مع ما فيه من الاستغلال المعرفي، وهو أمر معروف عند الموريتانيين وغيرهم.

وقدشرع الناظم هنا في الحث على الإجمال في طلب الدنيا، وبعد الأمر بالاجمال طرح احتمالَيْن عقليَيْن مترتبين على الطلب؛ لأن المتكسب لا يخلو اما أن يساعده الحظ في تحصيل الدنيا فتقبلَ عليه، وإما ان لا يساعده فيفشلَ في اكتسابه. وبدأ بهذا الاحتمال الأخير مشيراً اليه بقوله: «فان أبت عنك فأنت الاعلى ..» وطفِقَ يهنىء صاحبَ هذا الاحتمال ويحثه على عدم التأسُّف على فواتها، ذاكراً له أن إعراضها عنه ربما كان دليلا على حسن حظه وارتفاع رتبته، وعلى خِسّتها وانحطاط درجتها، مستشهداً بكثرة من ينزلق في حضيضها من الناس المفتونين بها وكثرة مساعدتها لأدنياء النفوس وعوامِّ الناس والجهال الذين يغترون بزهرتها وبهجتها، ولا يتحرزون في جمعها، ولا يبالون في اكتسابها من غير حلّها ولا يقومون بحقوقها. والى ذلك أشار بقوله: «قول الزمخشري: ومذ أفلح..» يشير الناظم بذلك إلى أبيات الزمخشري المشهورة وهـي:

(*) يعني قول محمد بن مالك في أبنية المصادر: وزكّهِ تزكيةً وأجملا   إجمال من تجملا تجملا.

وأخرني دهري وقدَّمَ مَعشــــراً　علـى أنهم لا يعلمون وأعلـمُ
ومُذْ أفلحَ الجهّالُ أيْقنتُ أنّنــي　أنا "الميـم" والأيامُ أفلحُ أعلمُ[1]

وفي هذا المعنى يقول الشافعي رحمه الله:

أهلُ الفواضل في الدنيا وزينتها　أهــل الفضائل مرذولون عندهمُ
يا ليتهمْ سألونا كيْ نُخَبِّرهــم　بقـــدرهمْ عندنا ولو دَرَوْه هــمُ
لهم مُريحان من جهلٍ وفرط غنىً　وعنــدنا المُتعبان: العلم والعَدم

وله أيضا:

عتبتُ على الدنيا لتقديم جاهـل　وتأخير ذي علم فقالت: خذ العذرا
بنو الجهل أبنائي لذاك رفعتهـم　وأهل التقى أبناء ضَرَّتيَ الأخرى

وقال آخــــرُ :

صار الأسافلُ بعد الذلّ أسنِمــةً　وصارت الرُّوسُ[2] بعد العزّ أذنابا
لم تبقَ مأثرة يعتدها رجـــــلٌ　الا التكاثـــر أوراقاً وأذهـــابا

وللقاضي عبد الوهاب من أبيات:

وإنّ ترفُّع الوضعاء يـــــوماً　على الرُّفعاء من احـــدى البَلايا
اذا استوتْ الأسافـل والأعالـي　فقـــــد طابت منادمةُ المنايــا

وقال آخــــرُ :

(١) الأفلح: مشقوق الشفة السفلى؛ والأعلم: مشقوق الشفة العليا، وكلاهما لا يمكنه النطق بـ(حرف) الميم، لأن مخرجها من بين الشفتين، فكيف بمن اجتمع فيه الوصفان ؟

(٢) أي الرؤوس (مخففة).

هذا زمان به أهل العلى سفُلوا والقـــولُ فيه مقالُ الزّنج والـرومِ[1]

وأفضلُ الناس فيه اليوم مؤتِمـرٌ للـــروم يرفـل في ثوبٍ من الروم[2]

وقال آخرُ:

لقد جار صرفُ الدهر من كل جانب مــن الأرض واستولتِ علينا الأراذل

هل المسخُ الا أن ترى العرفَ منــكرا او الخسفُ الا حين تعلـو الأسافل؟[3]

وقد حضَّ الناظم رحمه الله على الإجمال في الطلب انطلاقا مما ورد في الحديث النبوي الشريف. فقدرُوي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فان نفساً لن تموت حتى تستوفيَ رزقها وان ابطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حَلّ ودعوا ما حَرُم». وعن أبي حميد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ «أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما خلق له» ـ روى الحديثين ابن ماجه. وقال عليه الصلاة والسلام: «ان روحَ القدس نفث في روعي ان نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب»[4]. وفي الحديث ايضا: «ان الرزق ليطلب العبدَ اكثر مما يطلبه أجلُه».[5] وقد قال عمر رضي الله عنه: ليس من عبد الا وبينه وبين رزقه حجاب، فان اقتصد أتاه رزقه وان اقتحم هتك الحجاب ولم

(١) الزنج والزنوج: جيل من السودان ، واحدهم زنجي؛ والروم: جيل من ولد الروم بن عيصو بن اسحاق عليه السلام ، سموا باسم جدهم.

(٢) يعني بالروم: ضربا من الثياب.

(٣) المسخ: تحويل الصورة الى اخرى اقبح منها؛ والخسف: عمق ظاهر الأرض.

(٤) حديث ان روح القدس..الخ اخرجه ابو نعيم في الحلية عن ابي امامة كما في الجامع الصغير.

(٥) حديث ان الرزق..الخ اخرجه الطبراني في الكبير، وابن عدي في الكامل عن ابي الدرداء، وهو حديث حسن كما في الجامع الصغير.

يُزَد في رزقه»[1].

وإنما امر طالب الدنيا بالاجمال في طلبها لانه اذا اقتصد في طلبها وجمعها ولم يحمله الحرصُ على اخذها بغير حقها ولم يغترَّ بزهرتها ترجى له النجاة من وَبالها والفلاح في صرفها على الوجه الشرعي المطلوب. وأما اذا أفرط في جمعها وحمله الحرص على أخذها من غير حلها ومنعها مستحقها فقد تعرض للهلاك في الاخرى بدخول النار وفي الدنيا باذى الناس له وحسدهم اياه فيكون حظه منها الهم الدائم والكد، فيوشك أن يبيع اخرته بدنياه بتعريض عرضه، وعدم امتثال أوامر الشرع.

ثم ان مسألة تحصيل الرزق مسألة مهمة تجعل المؤمن يستهون مصائب الفقر، ويتحمل ألم الحرمان كما تجعله يقدر المال حق قدره، ويصرفه في مصارفه فلا يفرح بغناه، ولا يسرف في التبذير، ولا يبالغ في التقتير لأنه في النهاية ـ ومهما كان الأمر ـ لن ينال الا حظا مقدوراً ونصيبا معلوما هو رزقه.

ومن هناك فان واجب المسلم ان يُسلم الأمر لله ويطلب رزقه ويتخذَ الأسباب فان نال الغنى فواجبه الشكرُ لله والإنفاق في سبيله، وإن لم ينله فواجبه الحمد والصبر والتعفف مع العمل على سدِّ الخَلة. ثم ان اكتسابَ المال بالوجه المطلوب شرعاً أمر به الشرع، وفتح الأبواب اليه بالأوجه اللائقة، كالتجارة وغيرها، كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُم جُناحٌ أن تَبْتغوا فَضلاً مِن ربِّكُم﴾[2]، وقال جلّ من قائل: ﴿فإذَا قُضِيَّت الصَّلاةُ فانتَشِروا في الأرضِ وابْتَغوا مِن فَضْل الله﴾[3]، وقال: ﴿عَلِمَ أن سَيكونُ مِنكمْ

---

(١) راجع عيون الأخبار لابن قتيبة.

(٢) البقرة: الآية ١٩٨.

(٣) الجمعة: الآية ١٠.

مرضَى وءاخَرون يَضْرِبونَ في الأرضِ يَبْتَغونَ مِن فضْلِ الله﴾"[1].

وقد أرشد الشرع الانسان الى العمل للدنيا والآخرة معاً، بحيث لا ينكب على الدنيا ويفرط في الحب لها والولوع بها فيسوقه ذلك للتغالي في لذّاتها والانهماك في شهواتها، فينسى عاقبته ويخسر ءاخرته، ولا يترك الدنيا مطلقا ويرغب عنها كلية فيضيعها ويقضي على الحكمة منها، بل أمر بالتكسب فيها وتحصيل الرزق بالوجه المشروع حتى لا يمدّ يده للناس، فقد قال تعالى في مقام الثناء على المتعففين الذين لا يسألون الناس شيئاً ﴿لا يَسْألُونَ الناسَ إلحَافا﴾"[2]

وقال ﷺ «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا ءاخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعا فإن الدنيا بلاغٌ الى الآخرة ولا تكونوا كَلاً على الناس»"[3]. وقال: «أعظم الناس هما المؤمن الذي يهم بأمر دنياه وأمر ءاخرته» - رواه ابن ماجه. وقال «خيركم من لم يترك ءاخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كَلا على الناس»"[4]، وفي الحديث أيضا «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناسَ أعطوه أو منعوه» - رواه البخاري ومسلم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» وعن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة»، وعن ابن عمر

---

(١) المزمل: الاية ٢٠

(٢) البقرة: الآية ٢٧٣.

(٣) حديث: ليس بخيركم..الخ اخرجه ابن عساكر عن انس بن مالك، كما في الجامع الصغير.

(٤) حديث: خيركم من لم يترك .. الخ رواه الخطيب عن أنس بن مالك، كما في "مختارات الأحاديث النبوية". قيل انه حديث ضعيف، وقيل موضوع.

قال: قال رسول الله ﷺ «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يقوم الليلَ ويصوم النهار» . روى الأحاديث الأربعة ابن ماجه. وفي الحديث أيضا : «ان الله تعالى يحب العبدَ المؤمن المحترف»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من بات كالا من طلب الحلال بات مغفوراً له»[2] وقال: «باكروا في طلب الرزق والحوائج فان الغدوَّ بركة ونجاح»[3].

وقال علي كرم الله وجهه: من أطاع التوانيَ ضيَّع الحقوق ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه. وقال بعض الحكماء: من الخذلان مسامرة الأماني، ومن التوفيق بغض التواني. وقال ءاخر: الحركة بركة والتواني هلكة، والكسل شؤم. وقال اعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التواني في صورة التوكل، ويريه الهوينا بإحالته على القدَر. وقال لقمان لابنه: يابني إياك والكسلَ والضجرَ فانك اذا كسلت لم تؤد حقا، واذا ضجرت لم تصبر على حق. وقد قال بعضهم: ما أقبح بالإنسان أن يميل الى حب الراحة والهوينا، وأن يتعود الضجر والكسلَ فلم يؤدِّ حقا ولم يصبر على عمل ولم يتوصل الا الى الفقر والفاقة. وقد خَلق الحقُّ سبحانه الإنسان وقومه في احسن تقويم وجعل له فضلا على سائر المخلوقات في نفسه وجسمه ثم حكم عليه بالسعي والعمل للحصول على ما يُقوِّم وجوده ويطيب عيشه ويدفع عنه عوادي الحوادث.. فحق الانسان ان لا يُذهبَ عامة اوقاته الا في إصلاح أمر دينه ودنياه وذلك لا يكون الا

---

(١) حديث: ان الله تعالى يحب العبد المؤمن .. الخ أخرجه الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر.

(٢) حديث: من بات كالا.. الخ أخرجه ابن عساكر عن أنس، والطبراني في الأوسط وهو صحيح كما في الجامع الصغير.

(٣) حديث: باكروا... الخ أخرجه الطبراني في الأوسط، و ابن عدي في الكامل عن عائشة كما في الجامع الصغير.

بالعمل واتقانه لتتم الفائدة ويعم النفع ويرضى الخالق عليه.

وينبغي للإنسان أن يَقرُن عمله بتذكار لقاء مولاه فيعملَ عمله الدنيوي مع ملاحظة أمره الأخروي وبذلك يكون في الزمن الواحد قد عمل عملين وفاز بمزيتين، وقد قال الشاعر:

ما أحسن الدينَ والدنيا اذا اجتمعا وأقبح الكفرَ والإفلاسَ بالرجُلِ

وقال آخرُ:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغلهْ

وقد صحَّ عن أحمد مع ما اشتهر من زهده وورعه: أنه سئل: هل الأولى لمن لا شيء له أن يَتكسَّب للصون عن ذل السؤال او يترك منتظراً ما يفتح عليه من غير مسألة؟ فقال للسائل: "الزَم السوق". وقال لآخر: "استغنِ عن الناس فلم أر مثل الغنى عنهم". وقال: ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله وأن يعودوا أنفسهم التكسب. ومن قال بترك التكسب فهو أحمق يريد تعطيل الدنيا. وقال أيضا: " من جلس ولم يحترف دعته نفسه الى ما في أيدي الناس.

وقيل لمحمد بن مهران: إن هاهنا أقواما يقولون لجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا. فقال: هولاء قوم حمقى! إن كان لهم مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن فليفعلوا.

وكان ابراهيم بن أدهم مع ما اشتهر به من الزهد يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل. وقد قال علي رضي الله عنه لابنه الحسن يوصيه: "يابني ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره، وإن كان كل منه". وقال بعض الحكماء: اطلب تظفر. وقال ءاخر: من عجز عن

زاده اتكل على زاد غيره. وقال ءاخر: من العجز نتجت الفاقة وقد قال بعضهم: إنه لا يحفظ عن أحد من الصحابة والتابعين أنه ترك تعاطي الرزق مقتصرا على ما يفتح عليه[1]. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

لعمر الله ما عودت نفسي خضوعاً لامرئٍ فيه ابتذال
أيرضى من له عقل ورأيٌ تعاطيَ ما عليه به وبالُ

وقال آخرُ:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمةً ان الجلوسَ مع العيال قبيحُ
فالمال فيه تجِلّة ومهابة والفقر فيه مذلة وفضوح

ولعروة بن الورد العبسي:

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب غنيمة ومبلغ نفسٍ عذرها مثلُ مُنجح

وله أيضا:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكا الفقرَ أو لام الصديقَ فأكثرا
وصار على الأدنين كَلا وأوشكت صِلات ذوي القربى له أن تَنَكّرا
فسِرْ في بلاد الله والتمسْ الغنى تعشْ ذا يسار أو تموت فتعذرا

وقال آخرُ:

إذا المرء لم يطلُب معاشاً لنفسِه وهَى نعلُه أو باع في السوق خُفّه
ولم يك ماموناً على مال جاره إذا ما ر ءاهُ خاليا أن يلُفّهُ

(١) راجع "فتح الباري"- ج:١١/ ص ٢٧٦.

وقال آخــــرُ :

احتَل لنفسك أيها المُحتــالُ   فمن المــروء ة أن يُرى لك مالُ
إني رأيتُ الموسرينَ أعـــزّةً   والمقتريـــــن عليهم الإذلالُ

وقال آخــــرُ :

خاطر بنفسك لا تقعُد بِمَعجَزَةٍ   فليس حُــرٌّ على عجز بمعـــذورِ
إن لم تنل في مقامٍ ما تطالبـــه   فابل عـــذراً بإدلاجٍ وتهجـــير
لن يبلغ المرء بالإحجام همّتــه   حتى يباشـــرها منه بتغـــرير

ولأبي العتاهية:

إذا وضع الراعي على الأرض بطنه   فحقٌّ على المعــــزى بأن تتبـــددا

وقال آخــــرُ :

رأيتُ التّواني أنكح العجزَ بنتَه   وســـاقَ إليها حين زوجهـــا مهـرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لهـــا اتّكي   رويداً كما لا شكَّ أن تَلِدي فقـــرا

وقال آخــــرُ :

على المرء أن يسعى ويبذل جهدَه   ويقضي الهُ العـرش ما كان قاضيا

وقال آخــــرُ :

وعاجز الرأيِ مضياعٌ لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القـــدرا

فالأخذ بالأسباب مما أمر به ذوو الألباب. وقد جاء في الحديث النبوي عن الأعرابي الذي أراد دخول مسجد النبي ﷺ وناقته بيده فقال: يا رسول الله أأرسل ناقتي توكلاً

على الله عزّ وجلّ أم أعقلها؟ فقال النبي ﷺ «أعقلها وتوكل»[1]. ويروى أنه مما جاء في التوراة: " ابن ءادم امدد يديك الى بابٍ من العمل افتحْ لك بابا من الرزق". وقال بعض الحكماء هل يجوز في وهمٍ، أو يتمثل في عقلٍ، أو يصح في قياسٍ أن يحصد زرع بغير بذر؟ أو تجنى ثمرة بغير غرس؟ أو يورى زَنْدٌ بغير قدح؟ أو يثمر مال بغير طلب ؟؟

وإذا أخذ في الأسباب فلا يعتمد عليها، بل يثق بالله ويعتمد عليه، وليكن أخذه بالأسباب امتثالا لأمر الله تعالى. وقد قال بعض الشعراء:

توكّل على الرحمن في الأمر كلــه ... ولا ترغبن في العجز يوماً عن الطلبْ
ألم تر أن اللهَ قال لمريـــــــــــم: ... وهُـزي إليك الجذعَ يسّاقط الرطب؟
ولو شاء أن تجنيَهُ دونَ هـــــــزِّه ... جَنَتـــــــه، ولكن كل رزقٍ له سببْ

ويقـولُ آخـرُ:

وما طلب المعيشة بالتمنـــــي ... ولكن ألــــقِ دلوك في الدلاء
تجيئُ بمائها طوراً وطـــــوراً ... تجيئُ بحَمَـــــأة[2] وقليل ماء
ولا تقعد على كسل التمنـــي ... تحيل على المقـــــدَّر والقضاء
فإن مقادرَ الرحمن تجـــــري ... بأرزاق الرجال مـــــن السماء
مقدرة بقبض أو ببســــــطٍ ... وعجــــز المرء أسباب البلاء

ثم انه لا بد من معرفة حكم الله في التكسب، لأن الله جلَّ لم يُبح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعضَ الطرق وحرَّم بعضها كما قال تعالى

(١) حديث: اعقلها وتوكل، رواه الترمذي عن أنس.

(٢) حمأة: طين أسود منتن.

﴿ وأحلّ اللهُ البيع وحَرَّمَ الربا﴾[1]. فمعرفة حكم الله في اكتساب المال أمرٌ ضروري لا بد منه لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسبه من وجه حرام. والمال المكتسب من وجهٍ حرام لا خير فيه ولا بركة كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ويُربي الصَّدَقَاتِ﴾[2] ؛ وقال تعالى: ﴿قُلْ لا يَسْتَوي الخَبيثُ والطَّيبُ ولوْ أعْجبكَ كَثرةُ الخَبيث﴾[3] ـ الآية.

هذا وقد كان بعضهم يفضل للانسان الفقر وترك التكسب فينتظر ما يفتح عليه من غير مسألة. وأجاب عما ورد من أدلة تفضيل الغنى بأنه لا مانع ان يكون الغنى في جانب أفضلَ من الفقر في حالة مخصوصة. ولا يستلزم أن يكون افضلَ مطلقا. وربما كان هذا البعض من الزهّاد أصحاب التصوف الذين يقولون: إن الحكمة في ذلك ليتفرغ قلبُ الإنسان من الشواغل، وينال لذةَ المناجاة، ولا ينهمكَ في الإكتساب ليستريحَ من طول الحساب. وقد قال العلقمي[4]: إن الاهتمام والتهافت على استزادة العبد لا أثر له الا شغل القلوب عن خدمة عَلاّم الغيوب. وقد قالوا: مضرة الفقر دون مضرة الغنى، لأن مضرة الفقر دنيوية غالبا، ومضرة الغنى دينية غالبا. ولبعضهم في هذا المعنى:

دليلُك أن الفقر خيرٌ من الغنـــى وأن قليلَ المال خير مــــــن المُثرِ
وُجودُكَ مخلوقاً عصى اللهَ بالغنى ولن ترى مخلوقاً عصى اللهَ بالفقرِ

ولمحمود الوراق:

يا عائب الفقر ألا تزدَجِــــر؟ عيــبُ الغني أكبر لـــو تعتبرْ

---

(١) البقرة: الاية ٢٧٥.

(٢) البقرة: الاية ٢٧٦.

(٣) المائدة: الاية ١٠٠.

(٤) العلقمي: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر كان فقيها شافعيا عارفا بالحديث من بيوتات العلم بالقاهرة. أخذ عن السيوطي. ومن مؤلفاته: "الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير".(راجع كتاب الأعلام ـ ج ٦/ ص ١٩٥).

من شرف الفقر ومن فضلـــــه   على الغنى - إن صحَّ منك النظر-
أنكَ تَعصي كي تنالَ الغنـــــــى   وليـــس تعصى اللهَ كي تفتقـر

وقد قال بعض الصلحاء: "يا ابن ءادم لا تخش ضيق الرزق ما دامت خزائن الله ملأى وخزائنه لا تنفد أبدا. ولا تأنس بغير الله فإن أنستَ بغيره تعالى فاتك الخير كله، وارضَ بما قسم الله لك ترح قلبك وبدنك، ولا تطالبه برزق غدٍ كما لا يطالبك لعمل غدٍ فإنه لا ينسى من عصاه فكيف ينسى من أطاعه وهو على كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ محيط".

وللشافعي رحمه الله:

اذا أصبحت عندي قوتُ يومي   فخل الهـــمَّ عني يا سعـيد
ولا تخطر هموم غد ببالـــــي   فإن غـــداً لــــه رزقٌ جديد
أسَلـِّمُ إن أراد الله أمـــــراً   وأتــــرك ما أريد لما يـريد

وله أيضا:

ومتعَبِ النفس مرتاحٌ إلى بلـــدٍ   والمــــوت يطلبـه في ذلك البلدِ
وضاحك والمنايا فـوق مفرقــــه   لوكان يعلم غيـباً مات من كمد
مَن كان لم يوتَ علماً في بقاء غدٍ   ماذا تفكره فـي الرزق بعد غـد؟!

ويقـولُ آخـرُ:

لا تعجلنَّ فليس الرزق بالعجـــلِ   الرزق في اللوح مكتوبٌ مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنـــا   لكنــــه: {خُلِقَ الإنسَانُ من عَجَلٍ}

ولآخر:

يا طالب الرزق في الدنيا بقوّتـــه   تــــدور من بلدٍ فيها الـى بلدِ

أتعبتَ نفسكَ فيما لست تدركـــــه   وضـــاع عمركَ في همٍّ وفي نَكدِ
لوطرتَ بين السما والأرض مجتهداً   فـــي شربة الماء غير الرزق لم تجدِ
أقصر عِنانَكَ إن الرزقَ منقَســـــمٌ   ياتـــي اليكَ ولو في جبهة الأسَدِ

وقد قيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرحى يأتيها بالطحين، والذي شدق الأشداق هو خالق الأرزاق، وروي عن ابراهيم بن أدهم انه قال: سألت راهباً: من أين تأكل؟ قال: ليس هذا العلم عندي، ولكن سَل ربي من أينَ يُطعمني؟!

وفي هذا المعنى يقول عروة بن أذينة:

لقد علمت ـ وما الإشراف[1] من خلقي   أن الذي هـــو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيُعييني تطلبـــــــه   وان قعـــدت أتانـــي لا يُعَنيني[2]
لا أبتغي وصلَ من يبغي مفارقتـــي   ولا ألينُ لمـــــن لا يبتغي ليني
ولا أذلُّ لمخلوقٍ على طَمـــــــعٍ   هــلا سألتُ الذي أعطاه يعطيني
فلقمةٌ من شَعير الخبــز تشبعُنـــي   وجــرعةٌ من نمير[3] الماء تسقيني
وجُبّة من لباسِ الصُّــوف تكفينــي   حيّاً وإن مــتُّ تَكفيني لتَكفيني

ولبعضهم:

وكيف أخافُ الفقرَ والله رازقـــي   ورازقُ هـــذا الخلق في العسر واليسر
تكفل بالأرزاق للخلق كلّهـــــم   وللضب في البيداء[4] والحوت في البحر

(١) الاشراف: التطلع والتعرض للشيئ وتمنيه.

(٢) أي لا يتعبني.

(٣) نمير الماء: أي خالصه.

(٤) البيداء: الفلاة، جمعه بيد.

وقد مال بعضهم الى تفضيل الكفاف: وهو ما يكف عن الحاجات ويدفع الضرورات ولا يلحق بأهل الترفهات، فهو حالة سليمة من الغنى المطغي والفقر المؤلم وصاحبه معدود في الفقراء، لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف فلم يَفُته من حال الفقر الا السلامة من قهر الحاجة وذلّ المسألة. وقد قال ﷺ : «قد أفلح من هدي الى الاسلام ورزق الكفاف وقنع به» ـ رواه ابن ماجه، وقال: «طوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافا»[1]، وقال: «خير الأمور أوساطها»[2].

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

أقسمتُ بالبيت العتيق وركنـــه والطائفين ومنـــــزل الفرقان

ما العيش في المال الكثير وجمعه بل في الكفاف وصحة الأبدان

ولابن الرومي[3]:

مرحباً بالكفاف يأتـــي هنيئاً وعلـــى المتعبين ذيلُ العفاء

ضلة لامرئٍ يُشمّر فـي الجمـــع لعيشٍ مشمّرٍ للفنـــاء

دائباً يكنز القناطر للـــوا رثِ والعمر دائبا في انقضاء

يحسب الحظ كلّه في يديـــه وهـو منه على مدى الجوزاء[4]

ليس في ء اجل النعيم له حظ وما ذاقَ عاجل النعمـــاء

---

(١) حديث: طوبى .. الخ رواه الترمذي وابن حبان والحاكم عن فضالة بن عبيد كما في الجامع الصغير.

(٢) حديث: خير الامور اوساطها، رواه البيهقي في الشعب مرسلا.

(٣) هو ابو الحسن: علي بن العباس بن جريج شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي. له ديوان شعر. وهو رومي الأصل، وكان جده من موالي بني العباس. ولد سنة ٢٢١ ببغداد ونشأ بها ومات مسموما سنة ٢٨٣ هـ.

(٤) الجوزاء: برج في السماء.

ذلك الخائب الشقـــــي وإن كا   ن يــــــرى أنه من السعـداء

حسْبُ ذي اربة ورأي جلــــي   . نظـــــرتْ عينه بلا غلـواء .[1]

صحة الدين والجوارح والعــــر   ض وإحـراز مسكة الحــــوباء[2]

تلك خير لعارف المجد ممــــا   يجـزع الناس من فضول الثـراء

ولأبي العتاهية:

لئن كنت في الدنيا بصيراً فانما   بـــلاغــك منها مثل زاد المسافـرِ

إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه   فمـــا فاتَه منها فليس بضائـر

وقال آخــــرُ :

أيها المرء إن دنياك بحــــر   طافــــح موجه فلا تأمَنَنْهــا

وسبيل النجاة فيها مبيــــنٌ   وهو أخذ الكفاف والقوت منها

ولآخر:

ترى الدنيا وزينتها فتصبـــو   وما يخلـو من الشهوات قلـبُ

فضول العيش اكثرها همــوم   وأكثر ما يضـــــرك ما تحـب

فلا يغررك زخرف ما تـــراه   وعيش ليِّنٌ الأطــــراف رطبُ

اذا ما بلغةٌ جاءتك عفـــواً   فخـذها فالغني مرعىً وشـربُ

إذا اتفق القليل وفيه سلـــمٌ   فلا تـــرد الكثير وفيه حـربُ

وقال آخــــرُ :

النفس تجزع أن تكون فقيـرةً   والفقـــر خيرٌ من غنىً يطغيـها

---

(١) ذو إربة: أي ذكاء وفطنة. وغلواء: أي غلو ومجاوزة حد.

(٢) مسكة: ما يمسك البدن من الغذاء والشراب؛ والحوباء: النفس.

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع مافي الأرض لا يكفيها

ولآخر:

نزداد هما كلما ازددنا غنىً والفقر كلُّ الفقر في الإكثارِ

ما زادفوق الزاد خلف ضائعاً في حادثٍ أو وارثٍ أو عارِ

وقال آخرُ :

فاكرمُ ما تكون عليّ نفسي اذا ما قل في الأزمات مالي

فتحسُن سيرتي وأصون عرضي ويجمُل عند أهل الرأي حالي

ولأبي عبد الله الصوري:

لما رأيت الناسَ قد أصبحوا وهمة الإنسان ما يجمع

قنعتُ بالقوت فنلت المنى والفاضل العاقل من يقنع

ولم أنافس في طلاب الغنى علما بأن الحرص لا ينفع

ولقد كان الناظم رحمه الله يميل الى رأي هذا البعض الذي يفضل الكفاف. فقد روينا عمّن نثق به أنه كان على جانب عظيم من الزهد والقناعة. ومن أحسن ما يشهد على ذلك أبياته التي يعبر فيها عن أمنيته وهمته وهي قوله:

يا لهفَ نفسي على شيئيْن لو جُمِعا عندي لكنتُ ـ اذن ـ من أسعد البشرِ

كفاف عيشٍ يقيني ذلّ مسألةٍ وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

وثالثٌ أتمنى لو ظفرتُ به : كون السعادة لي في سابق القدرِ

ثم ان الغنى الحقيقيّ هو غنى النفس الذي هو القناعة وهي الرضا بما قسم للمرء من متاع الحياة الدنيا، وعدم النظر الى مال الغير. وقال ابن حبيب: القناعة ترك التشوف

للمفقود والرضى بالموجود[1]. هذا وليس الغنى الحقيقي غنى اليد، فلم تكن للحياة بدون قناعةٍ لذة، ولا من غير رضىً قيمة، وما عاش سعيداً الا من كان الرضى حليفه، والزهد قرينه. فقد قال تعالى: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَينيْكَ إلى ما مَتَّعنا بهِ أزْواجاً منْهُمْ زَهْرَةَ الحياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فِيه ورِزقُ ربِّكَ خَيْرٌ وأبْقى﴾[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «القناعة مالٌ لا ينفد وكنز لا يفنى»[3]وقال: «ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكن الغنى غنى النفس»[4]- رواه ابن ماجه.

وقال علي كرم الله وجهه: "من رضي بما قسم الله له استراح قلبه وبدنه". وقال سعد بن ابي وقاص: "يا بني اذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مالٌ لا ينفد، وإياك والطمعَ فإنه فقر حاضرٌ". وسئل اعرابي: أي الأسباب أعون على تذكية العقل؟ وأيها أعون على صلاح السيرة؟ فقال: أعونها على تذكية العقل التعلم، وأعونها على صلاح السيرة القناعة. وقال أكثم بن صيفي: من باع الحرصَ بالقناعة ظفر بالغنى والثروة. وقال بعض الحكماء: من قنع كان غنيا، وإن كان مقترا. ومن لم يقنع كان فقيرا وإن كان مكثرا. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

من كان ذا مال كثير ولم ... يقنع فذاك الموسرُ المعسرُ
وكل من كان قنوعاً وان ... كان مقلا فهو المكثر
الفقر في النفس وفيها الغنى ... وفي غنى النفس الغنى الأكبرُ

(١) راجع "إحكام المقال في أحكام السؤال".

(٢) طه: الاية ١٣١.

(٣) حديث: القناعة مال ... الخ أخرجه الطبراني كما في كنوز الحقائق لعبد الرزاق المناوي.

(٤) النووي: العرض محركة: متاع الدنيا وحطامها. وغنى النفس: هو أن لا يكون لها طمع الى ما في أيدي الناس. وقد اخرج الحديث ايضا الترمذي واحمد في مسنده.

وقال بعض الحكماء أيضا: القناعة عز المعسر، والصدقة حرز الموسر. وقال ء اخر: اشترِ ماء وجهك بالقناعة. وتسلّ عن الدنيا بتجافيها عن الكرام. وقال ء اخر: اذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضّده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد به شرا حبّبَ إليه المالَ وبسطَ منه الآمال وشغله بدنياه، ووكله الى هواه فركب الفساد وظلم العبادَ. وقال ءاخر: الثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل. ولمالك ابن أنس رحمه الله في هذا المعنى:

هي القناعة لا تطلب بها بـدلا   فيها النعيم وفيهـا راحة البدن

فانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راحَ منها بغيرِ القطن والكفَن؟

ويقـولُ آخـرُ:

إن القنوعَ نفيس النفس راشدها   وهـو الغني الـذي يحيا بلا نصب

وذو المطامع مغرور ومفتقـر   ولـو حوى ملك سلطان وعلم نبي

وقال آخـر:

اذا المرء عوفي في جسمـه   وملّكـه اللهُ قلباً قـنوعا

وألغى المطامعَ عن نفسـه   فـذاك الغني ولو مات جوعا

ولعثمان بن سعدان الموصلي:

تمتع بما يكفيك واستعمـل الرضى   فإنك لا تـدري أتصبـح أم تمسي

فليس الغنَى من كثرة المال إنمـا   يكـون الغنى والفقر من قبل النفسِ

ويقـولُ آخـرُ:

ماذاق طعمَ الغنى من لا قُنوع لـه   ولـن ترى قانعا ما عاش مفتقرا

والعرف من ياته يحمد مغبتَه   ما ضاع عرف وإن أوليتَه حجرا

وقد قيل لبعضهم: ما مالُك؟ فقال: الرضى عن الله، والغنى عن الناس. وقد أخذ هذا المعنى ابن حازم فقال:

للناس مالٌ ولي مالان ما لهما   اذا تحارس اهلُ المال أحراسُ

مالي الرضى بالذي أصبحت أملكه   ومالِيَ اليأس مما يملك الناسُ

ولبعضهم:

العبد حُر إن قنع   والحر عبد إن طمع

فاقنع ولا تطمع فما   شيئ يشين كالطمع

والحق أن كل ما يراد لغيره ولا يراد لعينه ينبغي أن يضاف الى مقصوده فبه يظهر فضله. فالمال ليس محذوراً لعينه بل لكونه قد يعوق عن الله وكذا العكس، فكم من غنيٍ لم يشغله غناه عن الله، وكم من فقيرٍ شغله فقرُه عن الله. وقد قال علي رضي الله عنه: لو أخذ رجل ما على الأرض وأراد به الله تعالى سُميَ زاهدا. ولو ترك جميع مافيها ولم يرد وجه الله لم يُسمَّ زاهداً ولا عابداً. وقال أحمد بن نصر الداودي: الفقر والغنى محنتان من الله يختبر بهما عباده في الشكر والصبر كما قال تعالى: ﴿إنَّا جَعلنا ما عَلى الأرْضِ زينةً لها لِنَبْلُوهُم أيُّهم أحْسَنُ عَمَلا﴾(1)؛ وقال: ﴿ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ و الخَيْرِ فِتْنَةً﴾(2).

وجاء في الخبر: أن إعطاء هذا المال فتنة وإمساكه فتنة ، أي اختبار للمعطى هل يشكر الله تعالى او يصبر على الطغوى، وللممنوع هل يصبر عن الاعتراض والشكوى.

(1) الكهف: الآية ٧.

(2) الانبياء: الآية ٣٥.

وقد ثبت أنه ﷺ كان يستعيذ من شر فتنة الفقر، ومن شرٍّ فتنة الغنى. والفقير والغني متقابلان لما يعرض لكل منهما من فقره وغناه من العوارض فيمدح أو يذم، والله تعالى أعلم.

وقول الناظم: «ليهنكَ الابا وهي النزلى ..» يعني أن إعراض الدنيا عمّن أجمل في طلبها ينبغي أن يسر به ولا يحزن على فواتها له واعراضها عنه لان الغالب في العاقل أن يكون محروما في هذه الحياة لأن حسن الحظ والذكاء من النادر اجتماعهما. وقد قال ﷺ : «وكل الله عز وجل الحرمانَ بالعقل، ووكل الرزقَ بالجهل ليعتبر العاقل فيعلم أن ليس له في الرزق حيلة»[1]. قال الشاعر:

لعمرك ما بالعقل يكتسب الغنى ... ولا باكتساب المال يُكتسبُ العقل

وقال آخرُ :

وما الجمع بين الماء والنار في يدٍ ... بأصعب من أن أجمع الجَدّ[2] والفهما

ومما ينسب للشافعي رحمه الله:

الجَدُّ يُدني كل أمر شاسع ... والجد يفتح كلّ باب مغلقِ

ومن الدليل على القضاء وحكمه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

لكن من رزق الحجا حُرم الغنى ... ضدان مُفترقان أيَّ تفرق

ولآخر:

ليس الزمان وان حرصت مسالماً ... خُلُقُ الزمان عداوةُ الأحرار

وقال آخرُ :

---

(١) انظر العقد الفريد: ج٢/ ص ٢٤٧.

(٢) الجد ـ بفتح الجيم : الحظ.

وقد يحرم الله الفتى وهو عاقل ويُعطي الفتى مالاً وليس بذي عقل
وذلك عدلٌ من حكومة ربنا يجود ويعطي وهو ذو النائل الجزل

ولآخر:

كم من قويٍّ قويٍّ في تصرفه مهذبِ الرأي عنه الرزق منحرفُ
وكم ضعيف ضعيفٍ في تقلبه كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له في الخلق سرٌّ خفي ليس ينكشف

ولأبي تمّام:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاق تجري على الحجى هَلَكنَ - إذن - من جهلهنّ البهائم

ولبكر بن حماد:

للناس حرصٌ على الدنيا بتدبير وصفوها لك ممزوج بتكدير
فمن مكبٍّ عليها لا تساعده وعاجز نال دنياه بتقصير
لم يرزقوها بعقل بعدما قسمت لكنهم رزقوها بالمقادير
لو كان عن قوة أو عن مغالبة طار البُزاة بأرزاق العصافير

وقال محمد بن زريق:

وما مجاهدة الإنسان توصله رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسّم بين الخلق رزقهمُ لم يخلق الله مخلوقاً يضيعُه
لكنهم مُلئوا حرصاً فلستَ ترى مسترزقاً وسوى الغايات يقنعه
والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغيٌ ألا إن بغي المرء يصرعه

والدهـــر يعطي الفتى ما ليس يطلبـه   يـــوماً ويمنعه من حيث يُطمعـه

ومما يُسلي عن الدنيا ويدل على حقارتها وانحطاط درجتها أن من نظر إليها بعين الحقيقة يعلم حقارتها. ولذلك لم يرضها الله سبحانه وتعالى دار جزاء لأنبيائه وأوليائه. وقد قال رسول الله ﷺ «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناحَ بعوضة ما سَقَى الكافرَ منها شربة ماء». رواه الترمذي. وقيل لمحمد بن واسع: إنك لترضى بالدون؟ فقال: إنما رضي بالدون من رضيَ بالدنيا. ولبعض الشعراء في هذا المعنى :

فلو كانت الدنيا ثواباً لمحسنٍ   إذن لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة   وقد شبعت فيها بطون البهائم

فينبغي للعاقل التجافي عنها ويأخذ منها قدر ما يوصله الى الآخرة. وقد أحسن من قال:

تأمّل في الوجود بعين فكرٍ   ترى الدنيا الدنيةَ كالخيالِ

ومَن فيها جميعا سوفَ يفنى   {ويبقى وجه ربكَ ذو الجلال}

ويقولُ آخرُ:

بنو الدنيا بجهل عظّموها   فجلت عندهم وهي الحقيره

يُهارش بعضهم بعضاً عليها   مهارشةَ الكلاب على العقيره[1]

وللشافعي رحمه الله:

إن لله عباداً فطنا   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا   أنها ليست لحيٍّ وطنا

---

(١) مهارشة الكلاب: تقاتلها؛ والعقيرة: ما عقر من صيد أو غيره.

جعلوها لجّة واتخـــــذوا صـــالحَ الأعمال فيها سفنا

وقال آخــــرُ :

أرى الدنيا إذا نُظِــرتْ كآلٍ[1] يَغُرّ الغِـــر[2] أوطيــــف الخيالِ
فمن ينظر حقيقتها يُشاهِــــدْ مشيدَ القصـــر كالدمن البوال
وان وجودها كوجُود ظــــل فعـــن قرب يصير الى الزوال
تميل الى اليمين او الشمـــال وليست تستقيم على اعتـــدال
مصاحبها يُعدُّ قليلَ عقـــلٍ إذا لم يستعـدّ للارتحـــال

وللشافعي:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتهــــا وسيـــــقَ إلينا عذبُها وعذابها
فلم أرها الا غروراً وباطِـــــلاً كمـــا لاحَ في ظهـر الفلاة سَرابها
وما هي الا جيفة مستحيلـــــة[3] عليـــــها كـــلابٌ هَمُهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلماً من أهلها وإن تجتذبهــــــا نازعتك كلابُها
فدع عنك فضلات[4] الأمور فإنهـــا حـــرام على نفس التقي ارتكابها

ولابن الرومي:

لعمركَ ما الدنيا بدارِ إقامَـــــة إذا زالَ عــــن عين اللبيب غطاؤها
فكيفَ بقاء الناس فيها وإنمــــا ينـال بأســـباب الفناء بقاؤهـــا؟

---

(١) الآل: السراب.

(٢) الغِر، بالكسر: الذي لا تجربة له.

(٣) أي متغيرة منتنة.

(٤) في رواية "سوءات" وهي ساقطها وقبيحها.

ويقولُ آخـرُ:

هَب الدنيا تساق إليك عفـواً أليس مصـــير ذاك الى انتقال؟
وما دنياك إلا مثـل فـيءٍ أظلـك ثـم ءاذن بالـزوال

وقال آخـــرُ :

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت وتحـدُث من بعد الأمور أمورُ
وتجري الليالي باجتماع وفرقـة وتطلـع فيها أنجمٌ وتغـور
فمن ظن أن الدهر باق سـروره فـذاك محالٌ، لا يـدوم سرور
عفا الله عمن صير الهمّ واحـدا وأيقـن أن الدائرات تـدور

وقال آخرُ:

عجبت للمرء في دنياه تطمعـه في العيش والأجل المحتوم يقطعه
يمسي ويصبح في عشواء يخبطها أعمـى البصيرة والآمال تخدعه[1]
يغترّ بالدهر مسرورا بصحبتـه وقـد تيقن أن الدهر يصرعه
ويجمع المالَ حرصاً لا يفارقـه ومـا درى انه للغير يجمعه
تراه يُشفق من تضييع درهمـه وليـس يُشفق من دين يُضيعه
وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبـة مَـن أنفق العمرَ فيما ليس ينفعه

ويقول آخرُ:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمـت أن السلامـة منها تـركُ ما فيـها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها الا التي كان قبـل الموت بانيـها

(١) يقال: "هو يخبط خبط عشواء"، أي يتصرف في الأمور على غير بصيرة، وهم في عشـواء من أمرهم: أي حيـرة وقلـة هداية.

فان بناها بخير طاب مسكنهـا   وإن بناها بشـــــرٍّ خاب بانيها

ويقول آخرُ:

لا تبك للدنيا ولا أهلهـــــا   وابك ليومٍ تسكن الحافـــــرَه[1]

وابكِ اذا صِيحَ بأهل الثـــرى   فاجتمعـوا في ساحة الساهره[2]

ويلك يا دنيا لقد قصَّـــرت   آمالَ مَن يسكنك الآخــــره

ويقول آخرُ :

ألا إنما الدنيا نضارةُ أيكـــة[3]   إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

هي الدار ما الآمال إلا فجائـع   عليها ولا اللـــذات الا مصائب

فلا تكتحل عيناكَ فيها بعبرة   على ذاهبٍ منها فإنـــكَ ذاهب

ولقد أحسن من قال:

هي الدار دار الأذى والقـــذى   ودار الفنـــاء ودار الغِيَـــرْ

فلو نلتها بحذافيرهــــــا   لمتّ ولـم تقض منها الـوطرْ

أيا من يؤمل طول الخلــود   وطـــولُ الخلود عليه ضرر

إذا أنتَ شبتَ وبان الشبــاب   فلا خير في العيش بعد الكبرْ

تنبيــه في التعريف بالزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري صاحب التآليف

---

(١) الحافرة: الأرض التي يحفر فيها القبر، بمعنى المحفورة.

(٢) الساهرة: أرض يجددها الله تعالى يوم القيامة، أو هي الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض.

(٣) النضارة: شدة الخضرة، والأيكة: الاراكة.

الزاهرة والتصانيف الباهرة. كان من أئمّة العلم بالدين والتفسير والنحو واللغة والأدب و المعاني والبيان وغيرها.. أخذ الأدب عن شيخه منصورٍ أبي مضر. وُلد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ بزمخشر[1] من قرى خوارزم. وسافر الى مكّةَ المكرّمةِ حرسها الله تعالى وجاور بها زماناً، فصار يعرف ب«جار الله».

من أشهر مؤلفاته: الكشاف عن حقائق التنزيل في تفسير القرآن، والفائق في غريب الحديث، والمفصّل في النحو والمستقصي في الأمثال. وأساس البلاغة، وأطواق الذهب وغير ذلك ... وله ديوان شعر. وكان معتزليّاً مجاهراً شديدَ الإنكار على المتصوفة. توفي رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨ عن ٧١ سنة بجُرجانية[2] بعد رجوعه من مكة المكرمة. ورثاه بعضهم بأبيات من جملتها:

فأرض مكة تذري الدمعَ مقلتُها حـــزناً لفرقة جار اللهِ محمودِ

ومن شعــره:

زمانٌ كلّ حِبٌ فيه خَـــبٌّ وطعـــم الخِل خَل لو يُذاقُ
لهم سوق بضاعته نـــفاقٌ فنافـــق فالنفاق لـــه نَفَاقُ

ومن شعره ايضا ابياته المشهورة التي يذكر فيها سوء معاملة الناس التي أشار اليهـا الناظـــم وهي:

تعجّبتُ من هذا الزمان وأهلـــه فمـــا أحدٌ فيه من الناس يَسلـم
إذا سألوا عن مذهبي لم أبح بـــه وأكتمـــــه، كتمانه لي أسلـم

(١) زمخشر بفتح الزاي والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وبعدها راء : قرية كبيرة من قرى خوارزم، يقول بعضهم:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فـــداء زمخشـــرا
وأحرِ بأن تزهى زمخشر بامـــرئٍ إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرى

(٢) جرجانية ـ بضم الجيم وسكون الراء وكسر النون: هي قصبة خوارزم وهي على شاطئ جيحون.

فإن حنفياً قلت، قالوا بأنني أبيح الطّلا وهو الشراب المحرّم
وإن مالكيا قلت، قالوا بأنني أبيح لهم لحمَ الكلاب وهُم هُمُ
وإن شافعياً قلت، قالوا بأنني أبيح نكاح البنت. والبنت تحرم
وإن حنبليا قلت، قالوا بأنني ثقيل حُلولي بغيضٌ مجسّمُ
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه يقولون تيس ليس يدري ويفهم
وأخرني دهري وقدم معشرا على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومُذ أفلح الجهّالُ أيقنت إنني أنا الميم. والأيام أفلح أعلم

وفي هذا المعنى أيضا يقول بعض الحكماء: لا سبيل الى السلامة من ألسُن العامة. وقال آخر: رضى الناس غاية لا تدرك. وقال آخر: الناس شجرة بغي. وقال أبو الدرداء: إن قارضت الناس قارضوك وإن تركتهم لم يتركوك[1]. وللشافعي رحمه الله في هذا المعنى:

الناس داء دفين لا دواء له تحير العقل منهم فهو منذهلُ
إن كنتَ منبسطا ساموكَ مخسرة أو كنت منقبضاً قالوا به ثقل
وإن تخالطهم قالوا به طمع وإن تجانبهم قالوا به ملل
وإن تعففت عن أموالهم كرماً قالوا غنيا وإن تسألهمُ بخلوا
إني تحيرت في أمري وأمرهم شبه النعامة لا طيرٌ ولا جمل!!

ولأبي العتاهية:

فيا ربّ ان الناس لا ينصفونني فكيف ولو أنصفتهم ظلموني

(١) قارضت الناس: طعنت عليهم، أي إن فعلت بهم سوءاً فعلوا بك مثله، وإن تركتهم لم تسلم منهم، ولم يدعوك.

وإن كان لي شيءٌ تصدوا لأخــذه وإن جئت أبغي سَيبهم منعوني[1]

وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهـم وإن أنا لـم أبذل لهم شتمـوني

وإن طرقتني نقمة فرحوا بهـــا وإن صحبتني نعمـــة حسدوني

سأمنع قلبي أن يحنّ إليهـــم وأحجب عنهم ناظـري وجفوني

وقال آخر:

ولستَ بناجٍ من مقالة طاعــــن ولــو كنتَ في غارٍ على جبل وعرِ

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما ولـــو غاب عنهم بين خافيتي نَسر

فاذا كان الأمر كذلك في عصر هؤلاء فكيف الأمر بالعصر الحاضر؟! نسأل الله تعالى العافيةَ والسلامةَ والتوفيق. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم أشار الناظم رحمه الله الى الإحتمال الثاني الذي تقدمت الإشارة اليه، والذي هو مساعدة الدنيا لطالبها، وإقبالها عليه بعد الإجمال في طلبها. وجدد له النصح في هذه الحالة بالاقتصاد في جمع المال، والتحذير من الشُّبَه في الاكتساب، والتحري لطلب الحلال، وصرف المال في أداء الحقوق امتثالا لأمره تعالى، فقال:

---

(١) سيبهم: عطاؤهم.

أوْ سَاعَدَتْكَ، فَاقتَصدْ في المَال

واعْدُ عَنِ الشُّبَه للْحَلالِ

واصْرِفْهُ في حُقُوقِهِ مُمْتَثِلا

لقَوله سُبْحَانَه :«وَلا.. ولا»

قوله:«ساعدتك»: أي ساعفتك ، واقبلت عليك؛ و«اقتصد في المال»: أي توسط في انفاقه بين الإفراط والتقتير؛ و«اعدُ»: أي جاوز عن الشبه، جمع شبهة: وهي ما التبَس فيه الحلال بالحرام؛ وقوله: «للحلال»: أي لطلبه، والحلال ضد الحرام؛ «واصرفه» (أي المال): أي انفقه، «في حقوقه ممتثلا»: أي متبعا عاملا بقوله سبحانه وتعالى: «ولا. ولا» إشارة الى قوله تعالى: ﴿ولا تَجعَلْ يدكَ مَغلولةً إلى عُنُقكَ ولا تَبسُطها كلَّ البسط﴾[1]. والخطاب للنبي ﷺ، وخطابه خطابٌ لأمته.

لمّا هنّأ الناظمُ طالبَ الدنيا في حال اعراضها عنه، ورغّبه في ترك التأسف عليها، أمره بالاقتصاد فيها حال إقبالها عليه لأن إقبال الدنيا ومساعدتها تترتب عليه أمور وأحكام في الإنفاق. حيث يحرم الإسراف والتبذير. وفي الإكتساب والتنمية، حيث تكثر الشبه، ويجب الابتعاد عنها الى ما لا شبهة فيه من الحلال. فالشُّبَه، وإن جاز الإكتساب بها - لأنها خير من السؤال، كما في الحديث - فإن الإبتعاد منها واجب عند زوال ذلك السبب بالغنى. فالشبه مفاوز وأوديّة يوشك الراتع فيها أن يقع في الحرام.كما

---

(١) الإسراء: الآية ٢٩.

يترتب عليه ـ زيادة على ما ذكرناه من الاقتصاد واتقاء الشبه ـ صرفه في حقوقه، ومصارفه الشرعية، لأن الإنسان يُسأل عن كل درهمٍ من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ ويُعاقب إن اكتسبه من غير حِلٍّ، أو صرفه في غير حقّ. ففي الخبر: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه فيمَ عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»[1].

فعلى من له اعتناء بدينه أن يبذل جهده في تصحيح لقمة عيشه لقوله ﷺ : «من أكل الحلال أطاع الله أحبّ أم كره، ومن أكل الحرام عصى اللهَ أحبّ أم كره». وقد قيل في معناه: أنه يكون بصدد العصيان والطاعة، فالجوارح تبع للُّقمَة، فهي تخرج على الجوارح كما وقعت في البطن[2] فمن أكل الطيبات عمل الصالحات ومن أكل الشبَه عمل الشبه، ومن أكل الحرام عمل المعاصيَ. وقد قال ﷺ: «كل لحم نبت من حرام ـ وفي رواية: من سحت ـ فالنار أولى به» وقد استْقاءَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه جرعة من لبن سقاه اياها مولىً فتبين له أنها حرام، فأجهده ذلك، فقيل له: أكُلّ هذا من جرعة لبن؟ فقال: والله لو لم تخرج الا بنفسي لأخرجتها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[3]. وعن ابن عبدوس: عماد الدين وقوامهُ طيب المطعم فمن طيّب المطعمَ قُبل عمله وزكا، ومن لم يطب كسبه خيفَ عليه أن لا تقبل له صلاة ولا غيرها ﴿ إنما يتقبل الله منَ المُتّقين﴾[4]، وقد ورد أن متعاطي الحلال الصرف

---

(١) أخرجه والترمذي.

(٢) انظر "قرة العين في تمييز فرض العين" لابن احمذي.

(٣) السحت ـ بالضم وضمتين : الحرام او ما خبث من المكاسب.

(٤) المائدة: الآية ٢٧.

الذي لم تخالطه شبهة من جملة الذين لم تسلط الأرض على أجسامهم"[1]، وقد قال وهب بن منبه: أزهد الناس في الدنيا ـ وإن كان منكبا عليها حريصا ـ من لم يرض منها الا بكسب حلال، وأرغبهم فيها من لم يبال من أين كان مكسبه حلالاً أم حراما.

ولقد أحسن من قال:

المال ينفد حله وحرامه   يوما وتبقى في غدٍ آثامُه

ليس التقي بمتقٍ لإلهه   حتى يطيب شرابُه وطعامه

ويطيب ما يَجني ويُكسب أهله   ويطيب من لفظ الحديث كلامُه

تنبيه في شأن الحلال والحرام والمشتبه

ولما حض الناظم رحمه الله تعالى على التحرز من الشبه، وحث على طلب الحلال، كان من تمام الفائدة أن نذكر بعض التعريف بالحرام والحلال والشُّبَه، وما يتعلق بذلك. فنقول وبالله التوفيق:

أما الحرام: فهو ما نصّ، أو أجمع على تحريمه بعينه، أو جنسه، أو على أن فيه حداً أو تعزيراً أو وعيداً.

وأما الحلال: فهو ما نصّ الله ورسوله، أو أجمع المسلمون على تحليله بعينه او جنسه. ومنه ايضا ما لم يُعلم فيه منع على أشهر قولين.

فقد فسر الإمام مالك والشافعي الحلال بما لم يرد لتحريمه دليل، وأبو حنيفة بما دل دليل على حله. وثمرة الخلاف تظهر في المسكوت عنه الذي جهل أصله، فعند مالك والشافعي هو من الحلال اذ هو الأشبه بيسر الدين، وعند ابي حنيفة من الحرام. ويعضد

---

(١) راجع "فتح المبين".

لأول قوله تعالى: ﴿قل لا أجدُ في ما أوحِيَ إليّ مَحَرما على طاعمٍ يطعمه﴾
وقوله ﷺ «وسكت عن أشياء رحمةً لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» ـ الحديث، أخرجه البخاري.

وأما الشبه فهي كل ما ليس بواضح الحل والحرمة مما تنازعته الأدلة، فبعضها يعضد دليلَ الحرام، وبعضها يعضد دليل الحلال. وفسرها الإمام أحمد باختلاط الحلال والحرام. والحصر في الثلاثة صحيح لأنه ان نص او اجمع على الفعل فالحلال، أو على المنع ـ جازما ـ فالحرام، أو سكت عنه، او تعارض فيه نصان ولم يعلم المتأخر منهما فالمشتبه. والورع ترك الشبَه خوف الوقوع في الحرام.وترك معاملة من في ماله حرام ـ وإن جازت.

ومن الأدلة على أنّ ترك الشبهات ورعٌ قوله ﷺ لمن تزوج امرأةً فقالت له امرأةٌ سوداء: قد ارضعتكما. قال: «دعها عنك»، كما في صحيح البخاري. وكما تنزه ﷺ عن تمرة ساقطة في الطريق. وقال «لولا أني أخاف ان تكون من الصدقة لأكلتها»[2]؛ وكقوله: «دع ما يُريبك الى ما لا يريبك»[3]. وقد جاء في الحديث: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىً ألا وان حمى الله محارمُه» ـ الحديث رواه البخاري ومسلم.

ومحارم الله: المعاصي التي حرمها، مثل: الربا، وأكل اموال الناس بالباطل،

---

(١) الأنعام: الآية ١٤٥.

(٢) حديث: لولا أني أخاف...الخ رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك.

(٣) رواه النسائي عن الحسن بن علي، وأحمد في المسند عن أنس، والطبراني في الكبير عن وابصة بن معبد، والخطيب عن ابن عمر. وهو حديث صحيح كما في الجامع الصغير.

والسرقة، والجناية على النفس والعرض والمال، والقتل، والزنى، والقذف، والخمر، والكذب، والغيبة، والنميمة... وأشباه ذلك.

فمن دخل حمى الله بارتكابه شيئا من المعاصي استحق العقوبة، ومن قاربه يوشك ان يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه ولم يتعلق به شيئ يقربه من المعصية، ولا يدخل في شيئ من الشبهات.

والوقوع في الحرام يحتمل ثلاثة معانٍ أحدها: أن من أكثر من تعاطي الشبهات كان بصدد الوقوع في الحرام، فتارة يقع فيه وتارة لا؛ والثاني: أنه يصادف الحرام وهو لا يشعر به؛ والثالث: أنه يعتاد التساهل، ويتمرن عليه، ويجسر على شبهة أخرى أغلظ منها.. وهكذا حتى يقع في الحرام عمدا، ومن ثم قيل الصغيرة تجرُّ للكبيرة، وهي تجر للكفر..الخ.

ولكون الشبهة هي أشكل الثلاثة، زاد بعضهم في بيانها فقسّمها الى أربعة أقسام وبين حكمها فقال: الاول: الشك في المحلل والمحرم، فان تعادلا استصحب السابق، وان كان أحدهما أقوى، لصدوره عن دلالة معتبرة في العين، فالحكم له . الثاني: الشك في طروّ مُحرِّم على الحلّ المتيقّن، فالاصل الحلّ. الثالث: أن يكون الاصل التحريم، ثم يطرأ ما يقتضي الحلّ بظنٍّ غالب، فان اعتبر سبب الظن شرعا حلّ وألغيَ النظر لذلك الاصل، والا فلا. الرابع: أن يعلم الحل، ويغلب على الظن طروّ محرِّم، فان لم تستند غلبته لعلامة تتعلق بعينه لم تعتبر.

ثم ان أخذ المال ينقسم الى الأنواع التالية: لأنه إما أن يكون باختيار المكلّف، او بغير اختياره كالارث. والذي باختياره اما أن يكون من غير مالك كالأشياء المباحة التي لم يسبِق عليها ملك، أو يكون من مالك؛ والذي لم يؤخذ من مالك: إما أن يوخذ كرهاً أو

تراضياً؛ والمأخوذ كرها إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم، والاستحقاق للأخذ كالزكاة من الممتنعين. ومن المأخوذ كرها: النفقات الواجبات؛ والمأخوذ تراضيا، إما بعوضٍ كالبيع والصداق، أو بغير عوض كالهبة والصدقة. وجميع هذه الأقسام حلال ـ اذا رُوعيت شروط الشرع في تحصيلها[1] ـ والله تعالى أعلم.

أما الاقتصاد في صرف المال في حقوقه الذي حضّ الناظم عليه والذي هو محمود شرعا وطبعا، فقد أمر الله به نبيه ﷺ حيث قال سبحانه وتعالى مخاطبا له: ﴿ولا تَجعَل يدكَ مغْلولَةً الى عُنُقك ولا تَبسُطهَا كُلَّ البسطِ فتَقعُدَ مَلوماً محْسُوراً﴾[2]. فقوله تعالى: {ولا تجعل يدكَ مغلولةً الى عنقك} مجازٌ عبَّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيءٍ من ماله، فضرب له مثلَ الغل الذي يمنع من التصرف باليد. وقوله جل {ولا تبسطها كل البسط} ضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال، فإن قبض الكفّ يحبس ما فيها، وبسطَها يُذهب ما فيها. يقول: لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعا عن النفقة والتصرف كما يكون البعير الحسير: وهو الذي ذهبت قوّته فلا انبعاثَ به[3]. فقد نهى الله نبيه ﷺ عن التقتير، كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسط الحالين.

وقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في انفاقهم، فلا يجاوزون الحدّ بالإسراف في الإنفاق، ولا يضيقون فيبخلون بانفاق القدر اللازم، فقال عزّ وجلّ: ﴿ والذينَ إذَا أنفَقوا لم يُسْرفوا ولم يُقْترِوا وكانَ بينَ ذلكَ قَواما﴾[4]، أي عدلا وسطا سالما من عيب الاسراف والتقتير. والظاهر أن التوسط في الإنفاق الذي مدحهم الله به شامل لإنفاقهم على

---

(١) راجع "فتح المبين بشرح الاربعين" لابن حجر الهيثمي، وحاشية العلامة المدابغي عليه.

(٢) الاسراء: الآية ٢٩.

(٣) راجع القرطبي: ج١٠/ ص ٢٥٠.

(٤) الفرقان: الاية ٦٧.

أهليهم، وإنفاقهم المالَ في أوجه الخير[1]. وقال جلّ من قائل: ﴿وكُلوا واشْرَبوا ولا تُسْرِفوا إنّه لا يُحبُّ المُسْرفينَ﴾[2]، وقال ﷺ «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة»[3]، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما عال مقتصد ولا يعيل. وقال: إني لأبغض أهلَ بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد. وقال علي كرم الله وجهه: دع الإسراف مقتصدا واذكر في اليوم غداً. وقال معاوية رضي الله عنه: ما رأيت تبذيراً الا وإلى جنبه حق مضيع، وقال سفيان الثوري: من كان في يده مال فليصلحه فإنه في زمان ان احتاج اليه فأول ما يبذل فيه دينه، وقال بعضهم: اذا أعطيتَ مالك في غير الحق يوشك أن يجيئ الحق وليس عندك ما تعطي منه. ويقال خمس من العقل: لا يتكلف ما لا يطيق، ولا يسعى لما لا يدرك، ولا ينظر فيما لا يعنيه، ولا ينفق الا بقدر ما يكسب، ولا يطلب من الحق الا بقدر ما عنده من الغنى. ويقال ثلاث من حقائق الإيمان: الاقتصاد في الانفاق، والإنصاف من نفسك، والابتداء بالسلام.

وقد قال بعض الحكماء: ما وقع تبذير في كثير الا هدمه، ولا دخل تدبير في قليل الا ثمره. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

قليل المال تُصلحه فيبقى ولا يَبقى الكثير مع الفسادِ
وحفظُ المالِ خيرٌ من بغاه وسير في البلاد بغير زاد

ويقول آخرُ:

أنفق بقدر ما استفدتَ ولا تسرف وعش فيه عيشَ مقتصد

---

(١) راجع " أضواء البيان ".

(٢) الأعراف: الآية ٣١.

(٣) اخرجه الطبراني عن ابن عمر.

من كان فيما استفاد مقتصداً لم يفتقر بعدها الى أحد

وقال آخرُ :

توسّط بين تبذير وبخل ولا تسرف بما تلقاه نزرا
وكُن في كل أمر ذا اعتدال فرب حلاوة توذيك ضرا
فما من باخلٍ أحياه مالٌ وما من مسرفٍ يعتز دهرا

وقال آخرُ :

ودع عنك اسراف العطاء ولا تكن لكفيك في الإنفاق إمساكَ مقترِ
ألا انّ أوساط الأمور خيارها مقال نبي عن هدى الله مُخبرِ

ولآخر:

وقم بوُسعك في كسب الحلال وكن في صرفه بين تبذير وإقتارِ

فالفضائل أوساط بين طرفي الإفراط والتفريط كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير، وكالعفة فهي وسط بين الشره والجمود، وكالشجاعة فهي وسط بين الجُبن والتهور. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفيها ذميم، وما توسط فضيلةٌ. قال الشاعر:

عليكَ بأوساطِ الأمور فإنها نجاةٌ ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ويقول آخرُ:

ولا تغل في شيئٍ من الأمر واقتصد كِلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

فالمال - وإن كثر- من جملة الخير، وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه، والاسراف في انفاقه في مالم يُشْرع. فهو زينة الحياة الدنيا، والنفقة الى الدار الآخرة. فيلزم صرفه وإنفاقه في أعمال البر والطاعة، وفيما يُكسب الإنسان المجدَ

حيا وحسنَ الذكر ميتا.

وقد قال بعضهم: نفقة المال على ستة أوجه، ثلاثة منها إضاعة له: إنفاقه في سرف، أو سَفه، أو حرام؛ وثلاثة غير إضاعة: الواجب، والتطوع، ونفقته لوجوه الناس رغبة في اكتساب الحمد والثناء. قال بعض الحكماء :

وماضاع مالٌ أورث المجدَ أهلَه   ولكنَّ أموال البخيل تضيع

وحقوقه التي يصرف فيها شرعا كثيرة، رغّب الشارع فيها، ووعد بالأجر عليها للمنفق. فمنها ما هو واجب كالزكاة.. ومنها ما نَدب الشرع له ـ لا على سبيل الوجوب ـ كالصدقة والوقف وصلة الرحم وسَد الخَلة والتبرع بالاحسان وإعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم الى الإنفاق وقرى الضيف، وحملِ الكَل، ومواساةِ المحروم، والمعونة بكل وجه. ومنها: ما انفق على أهله. فقد جاء في الحديث: «نفقة الرجل على أهله صدقة» ـ رواه الترمذي. وفي تفسير القرطبي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عزّ وجل وديناريننفقه على أصحابه في سبيل الله».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أربعة دنانير دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمُها أجرا الذي أنفقته على أهلك». وعن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسُق من التمر بقِنوٍ يعلق في المسجد للمساكين. وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» قال أبو سعيد: حتى ظنناَ أنه لا حقّ لأحد منا في الفضل. رواهما أبو داوود. وقال ﷺ لأبي هريرة ـ لما سأله: ما حق الإبل: فقال:

«تعطي الكريمة وتمنح الغزيرة وتفقر الظهر وتطرق الفحل وتسقي اللبن» - رواه أبو داوود.

ومن حقوقه أيضا توفير العرض. ففي الحديث: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[1]، قال ابن حجر- في عطف العرض على الدين: دليل أن طلب براء ته مطلوب ممدوح كطلب براءة الدين. ومن ثم ورد: ما وقي به العرض فهو صدقة. وعن نجيد بن عمران بن حصين الخزاعي قال: جاء شاعر الى عمران بن حصين فأعطاه، فقيل له: تعطي شاعرا؟! فقال أبقي على عرضي[2]. وأعطى الحسن بن علي شاعرا فقيل له: تعطي من يقول البهتان ويعصي الرحمن؟! فقال: ان خير ما بذلت من مالكَ ما وقيت به عرضك، ومن ابتغى الخيرَ اتقى الشرّ.

وقد روى عن ابن شهاب مثل ذلك في شاعر مدحه فاعطاه. وقد كان يقال: إعطاء الشاعر من برّ الوالدين[3] ولبعض الشعراء:

فخيرُ مال الفتى مالٌ يصون بـه   عرضا وينفقه في أشرف السّبلِ
وافضل البرّ ما لا منٌّ يتبعـه   ولا تقدمـه شيئٌ من المطـل
وإنما الجود بذلٌ لم تكافِ بـه   صنعا ولم تنظرن فيه جزا رجل
إن الصنائع أطواق اذا شكـرت   وإن كفـرن فأغلال لمنتحـل

---

(١) حديث: فمن اتقى الشبهات.. الخ رواه البخاري ومسلم. والعرض - بالكسر: موضع المدح واللم من الانسان، فاذا قيل: ذكر عرض فلان فمعناه: ذكر ما يرتفع به او ما يسقط بذكره. ولمسكين الدارمي:

رب مهزول سمين عرضه   وسمين الجسم مهزول الحسب

فالعرض أحوج الى الصيانة عن الدنس والرين من الثوب الموشى المزين.

(٢) كما في الأدب المفرد.

(٣) راجع "بهجة المجالس وانس المُجالس" - ج٢/ ص ٤٣٤.

ولبعضهم:

اذا اكتسب المالَ الفتى من وجوهه وأحسن تدبيراً له حين يجمعُ

وميز في إنفاقه بين مصلح معيشته فيما يضر وينفع

وأرضى به أهل الحقوق ولم يضع به الذخر زاداً للتي هي أنفعُ

فذاك الفتى لا جامع المال ذاخراً لأولاد سوءٍ حيث جاءوا وأرضعوا

ولحسان بن ثابت رضي الله عنه:

أصون عرضي بما لي لا أدنّسه لا بارك الله بعد العرض في المالِ

أحتال للمال إن أودى فأكسبه ولست للعرض إن أودى بمحتال

ولأبي العباس الصولي:

لنا إبل كُومٌ يضيق بها الفضا وتفترُ عنها أرضها وسماؤها

فمن دونها أن تستباح دماؤنا ومن دوننا أن نستَذِمَّ دماؤها

حمىً وقرىً فالموت دون مرامها وأهون خطب في الحقوق بناؤها

ولآخر:

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكُهْ

ألا إنما مالي الذي أنا منفق وليس لي المال الذي أنا تاركه

ثم ان صرف المال في مصارفه لا بد من معرفة حكم الله فيه لأن الله عز وجل لم يبح صرفه في كل شيء، بل أباح بعض الصرف وحرّم بعضه، كما قال تعالى ﴿مثَل الذينَ يُنفقُونَ أمْوَالَهُم في سَبيلِ الله كَمَثَل حَبَّةٍ أنْبَتتْ سبعَ سَنَابلَ في كُلِّ سُنبُلَةٍ

مـائـةُ حَبَّـة﴾[1]. الآية؛ وقـال تعـالى في الصـرف الحـرام: ﴿ إنَّ الذين كَفـروا يُنفِـقـونَ أمـوالَهُم ليَصُدوا عَن سَبيلِ الله فـسَيُنْفِـقـونَها ثُمَّ تَكونُ عَلَيـهم حَسْـرَةً﴾[2]. الايـة. فمعرفة حكم الله في صرف المال في مصارفه أمر ضروري لا بد منه لأن من لم يعلم ذلك قد يصرفه في وجه حرام، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه. وقد قال ﷺ «من يأخذ مالا بحقه يُبارك له ومن ياخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع» ـ رواه ابن ماجه. وقد قيل: خصلتان سببٌ لمحق المال: اكتسابه من غير حله وإمساكه عن إخراج الحق منه، ولا يبارك فيه. وقال بعض الحكماء: خير المال ما أخذ من الحلال وصرف في النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في الآثام. وقال بعضهم: شرّ مالك ما لزمك إثم مكسبه، وحُرمت لذة إنفاقه. ومن إضاعة المال: منعه من حقه أو وضعه في غير حقه.

ولما كان الاقتصاد واسطةً بين طرفين مذمومين هما التبذير والتقتير. وقد قدمنا بعض الكلام عليه ـ كان من تمام الفائدة أن نذكر بعض ما ورد في حد التبذير والتقتير، وفى أحكام أوجه الإنفاق، فنقول وبالله التوفيق:

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: التبذير: هو إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير، وهذا قول الجمهور[3]. وقد قال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهما في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر، وقال أشهب ـ عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف وهو حرام. وعن سعيد بن جبير: هو أن تنفق الطيب في الخبيث. وقيل هو

---

(١) البقرة: الاية ٢٦١.

(٢) الأنفال: الآية ٣٦.

(٣) راجع القرطبي ـ ج: ١٠/ ص: ٢٤٧.

مجاوزة الحد في النفقة. وقال الثعالبي هو إنفاق المال في فساد، وإسراف في مباح. وقيل هو صرف الشيء فيما لا يَنبغي، والسرف صرف الشيئ زائدا على ما ينبغي[1] وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرء سرفا أن لا يشتهي شيئا الا اشتراه فأكله. وفي سنن ابن ماجَه عنِ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن من السرف أن تأكل كلّ ما اشتهيتَ». ولبعضهم في هذا المعنى:

إذا المرءُ أعطى نفسه كل ما اشتهت ولـم ينهها تاقت إلى كل باطلِ
وساقت اليه الإثم والعارَ بالـذي دعته اليه مـن حلاوة عاجـل

وقال إياس بن معاوية: ما جاوزتَ به أمر الله فهو سرف واسراف. وقيل الاسراف ما يصرف عن حق الله تعالى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: الإسراف ما لم يقدر على رده الى الصلاح، والسرف ما يقدر على رده الى الصلاح. وقال النضر بن شميل: الاسراف: التبذير والافراط، والسرف الغفلة والجهل[2]. وأما التقتير فهو التضييق المخل بسد الخلة اللازم أو التضييق في النفقة والشح، فهو ضد الإسراف. وقيل الاقتار هو الامساك عن الإنفاق في طاعة الله تعالى، والإسراف هو الانفاق في غير طاعة الله. والقوام هو الانفاق في طاعة الله عزّ وجل والله تعالى أعلم.

أما أوجه الإنفاق فقد قال في "فتح الباري" : الحاصل في كثرة الإنفاق ثلاثة أوجه: الأول انفاقه في الوجوه المذمومة شرعا فلاشك في منعه. والثاني: إنفاقه في الوجوه المحمودة شرعا فلا شك في كونه مطلوبا ـ مالم يُفوِّت حقاً أخروياً أهم منه. والثالث: إنفاقه في المباحات بالاصالة كملاذّ النفس، فهذا ينقسم الى قسمين: أحدهما ان يكون

(١) انظر "إحكام المقال فى أحكام السؤال".

(٢) راجع القرطبي: ج:٧/ ص : ١١٠.

على وجه يليق بحال المنفِق وبقدر ماله فهذا ليس بإسراف. والثاني: ما لا يليق به عرفا؛ وهو ينقسم ـ ايضا ـ الى قسمين احدهما: ما يكون لدفع مفسدة ـ اما ناجزة او متوقعة ـ فهذا ليس باسراف. والثاني: ما لا يكون في شيئ من ذلك فالجمهور على أنه إسراف، وذهب بعض الشافعية الى انه ليس بإسراف. قال لأنه تقوم به مصلحة البدن وهو غرض صحيح، واذا كان في غير معصية فهو مباح له. قال بعضهم: والذي يترجح انه ليس مذموما لذاته، لكنه يُفضي ـ غالبا ـ الى ارتكاب المحذور كسؤال الناس، وما أدى الى المحذور محذور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم قال رحمه الله :

قَبْلَ السُّؤالِ اسْخُ لِمَنْ أتَاكا
وإنْ يَكُنْ عَجِلَ فاسْتَعْطَاكا
فَهَلْ جَوابُ «هَاتِ» غيرُ «هَاكا»؟
تَمَّتْ ـ هنا ـ نَصيحَتي إيَّاكا.

قبل السؤال: أي الطلب؛ اسخ: أي جُد؛ لمن أتاك: أي جاءك مؤملا نوالك؛ وإن يكن: أي السائل؛ عجل: أي سبق سؤاله عطاءك؛ فاستعطاك: أي سألك العطاء؛ وهات ـ بكسر المثناة: فعل أمر من الإيتاء. قال الخليل: أصل هات: ءات، فقلبت الألف هاء؛ وهاك: اسم فعل بمعنى خُذ، ويجوز مد ألفها فيقال: هاء، وتستعمل بكاف الخطاب وبدونها، ويجوز في الممدودة أن تستغني عن الكاف بتصريف همزتها تصاريف الكاف، فيقال: هاءَ للمذكر وهاءِ للمؤنث، وهاؤما، وهاؤم، وهاؤن...

حثّ الناظم رحمه الله هنا على السخاء والبذل، وأشار الى أن الجود إنما هو العطية قبل السؤال. وأن ليس بعد السؤال الا النوال. واقتصر على مرتبتين من مراتب الجود، هما أبلغ مراتبه، وما عداهما لا يخلو ـ غالبا ـ من نقص.

فالمرتبة الاولى: هي العطية قبل السؤال، وهي أفضل مراتب الجود وابلغ حالات الكرم، فقد قال أحد الأجواد: خير النوال ما وصل قبل السؤال. وسئل بعضهم عن الجود فقال: التبرع بالمال، والعطية قبل السؤال؛ وقال علي كرم الله وجهه لأصحابه: من كانت له إليّ منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة. وقال لقمان لابنه: ابدأ الراغبَ بالنوال قبل السؤال، فإنك إن ألجأته الى سؤالك أخذت من وجهه ضعفي ما

تعطيه. قال الشاعر:

اذا أعطيتني بسؤالِ وجهي فقد أعطيتني وأخذت مني

وقال بعضهم: أفضل المعروف ما لم تبتذل فيه الوجوه. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

أي فضل لصاحب الفضل من بعـ ـد تقاضيه وابتذال الوجوهِ

إنما الفضل والسماح لمن يعـ ـطيك عفواً وماء وجهك فيهِ

وقال آخرُ:

ليس جودا عطيةٌ بسؤالٍ قد يهزُّ السؤالُ غيرَ جوادِ

إنما الجود ما أتاكَ ابتداءً لم تذق فيه ذلةَ الترداد

وقال آخرُ:

كريم على العلات[1] جزلٌ عطاؤه يُنيل وان لم يعتمد لنوال

وما الجود من يعطي اذا ما سألته ولكنَّ من يعطي بغير سؤال

ويقول آخرُ:

عطاؤك لا يفنى ويستغرق المنى وتبقى وجوه الراغبين بمائها

ولآخر:

وإن أحق الناس - إن كنتَ مادحا - بمدحكَ من أعطاك والوجه وافرُ

ولآخر:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خالِ

أعطاك قبل سؤاله فكفاكَ مكروه السؤالِ

---

(١) أي على كل حال.

وقال آخـــــرُ :

ما جاد للناس الا قبل ما سألوا　　ولا عفا قــــــطّ الا بعد ما قـدرا
لاموه في بذله الأموال، قلت لهم　　هل تقدر السحب أن لا ترسل المطرا ؟

وإلى هذه المرتبة أشار الناظم بقوله: «قبل السؤال اسخ لمن أتاك»..

أما المرتبة الثانية فهي: إجابة السائل بالإعطاء بالفعل دون القول والوعد. وهي ـ وان كانت دون المرتبة التي تقدمت ـ تُعتبر من أعلى مراتب الجود، كما قال الشاعر:

ماعرفت منه لا ولا نَعـــم　　بـل دونهنّ الآلاء[1] والنعمُ

وقول الآخر:

حضورُ فعلكَ أغناني عن الطلب　　وأنت أغناك عن وعدٍ وعن كذبِ

مع إمكان تصنيف معنى هذين البيتين في المرتبة الأولى التي هي البذل قبل السؤال.

وقد أشار الناظم الى هذه المرتبة بقوله : « وان يكن عجل فاستعطاك.. » فطرح سؤالا كان من الطبيعي طرحه وهو: واذا سبق السائل بسؤاله فما ذا يفعل الكريم المتزين بزينة الجود؟ وأجاب قائلا: «فهل جواب هات غير هاك»؟! والإستفهام إنكاري معناه النفي، أي لا جواب الا هاك، أو تقريري: والمعنى فالجواب هاك. والمراد بقوله "هاك" الفعل الذي هو الإعطاء مباشرة سواء صحبه قول: "خذ" أو لم يصحبه.

وبعد هاتين المرتبتين من البذل مراتب أخرى منها: إجابة السائل بنعمْ مع إنجاز الوعد ـ وإن كان العطاء بالوعد فيه ما فيه ـ كما قال الشاعر:

عطاؤك جزلٌ غيرَ أنك مُمْهِــلٌ　　وتـــذهب لذاتُ المكارم بالمهــل
إذا قيل في الحاجات مهلا الى غـد　　فقـــول غدٍ طردٌ لمن كان ذا عقل

---

(١) الآلاء: الصنائع والمنن.

أما مع إخلاف الوعد فهو وصمة وعار كما قال الشاعر:

اذا قلت في شيءٍ نَعمْ، فأتمَّه فإن نعمْ ديــن على الحرّ واجبُ
والا فقل: لا. تسترح وترح بها لئــــلا يقولَ الناس إنك كاذبُ

ولآخــر:

أنت الفتى كل الفتــى لــو كنت تفعل ما تقولْ
لا خير في كذب الجوا د وحبذا صـــدق البخيلْ

وللمثقب العبدي:

لا تقولــن اذا ما لم تُــرد أن تتمّ الوعد في شيءٍ: نعم
حسنٌ قول "نعم" من بعد"لا" وقبيح قــول: لا بعــد نعم
إنّ لا بعد نعم فاحشـــة فبــ"لا" فابــدأ اذا خفت النّدم
واذا قلت "نعم" فاصبر لهــا بنجاز الــوعد. إنّ الخلفَ ذم

وقال آخَــــرُ:

تعجيـل جود المرء أكرومـة تنشر عنـــه أحسنَ الذكـر
والحر لا يمطل معروفَـــه ولا يليق المطـــل بالحـر

وليزيد بن جبـل:

يا صانع المعروف كــن تاركاً تـرداد ذي الحاجــة في حاجتـه
فشر معروفك ممطولـــه وخـــيره ما كان من ساعتـه
لكُلِّ شــيءٍ يــرتجى آفَــةٌ وحبسكَ المعــروف مِـن آفَـته

ثم إذا لم تكن واحدة من هذه المراتب فالاحسن ردّ السائل بميسور من القول. فـينبغي

لمن سئل ولم يكن عنده ما يعطيه أن يحسن القول، ويبسط العذر ويدعو لمن سأله بسعة الرزق. ويقول: إذا وجدت فعلت وأكرمت. فعن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ رحيما وكان لا يأتيه أحد الا وعده وأنجز له ان كان عنده شيء[1]، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يعطي سكتَ انتظاراً لرزق يأتي من عند الله سبحانه وتعالى، كراهةَ الرد فنزلت الآية: ﴿وإمَّا تُعرِضنَّ عنْهُم ابتِغاءَ رَحمةٍ من ربِّكَ تَرجُوها فقُل لهُمْ قولاً ميسُوراً﴾[2]، فكان ﷺ اذا سئل وليس عنده ما يعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله»، والقول الميسور: هو الليِّن اللطيف الطيب. ولقد أحسن من قال:

إلا تكن ورقٌ عندي أجود بهـــا   للسائلين فإنـــي ليِّـن العــــودِ
لا يعدم السائلون الخيرَ من خلقي   إما نـــوالي وإما حسن مردودي

وقال آخـرُ :

ليكـن لديك لسائل فـرج   إن لم يكن فليحسن الرد

وللمتنبـي:

لا خيل عندك تهديها ولا مــالُ   فليُسعد النطق إن لم يسعد الحالُ

وقد قيل: حُسن اللقاء نصف السخاء.

وإذا لم يكن شيءٌ مما تقدم فلا أقلّ من التأسف على عدم إمكان البذل، والتوجع على مصيبة فوات الفضل، كما قال الشافعي رحمه الله تعالى :

يا لهفَ نفسي على مالٍ أقسِّمـــه   عـــلى المقلين من أهل المروءاتِ
ان اعتذاري لمن قد جاء يسألنـي   ما ليس عندي لمن أدهى المصيبات

---

(١) راجع البخاري في كتابه "الأدب المفرد".

(٢) الإسراء: الآية ٢٨.

ثم إن الشارع نهى عن زجر السائل ورده بالغلظة له، أو الإساءة في وجهه فقال جلّ من قائل: ﴿وأما السَّائلَ فلا تَنْهر﴾[1]. وحضّ على إعطائه ورغّب فيه. فعن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «لا يمنعنّ أحدكم السائل وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلبَيْن من ذهب»[2]، وقال ﷺ «اعطوا السائل ولو جاء على فرس»، وفي رواية: «للسائل حق وإن جاء على فرس» ـ رواه ابن ماجه. وروي أنه ﷺ قال: «ردُّوا السائل ببذل يسير أو رد جميل فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجنّ ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم الله»[3]؛ وعن أم بجيرة قالت: قلت: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم: إن المسكين ليقوم على بابي فما أجد له شيئا أعطيه إياه. فقال لها رسول الله ﷺ «إن لم تجدي له شيئا تعطيه اياه إلا ظلفا مُحْرَقا فادفعيه اليه في يده». رواه أبو داوود؛ وعن جابر بن عبد الله قال: "ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا"[4]، وقال ابراهيم بن ادهم: نعم القوم السُّؤَالُ يحملون زادنا الى الآخرة. وقال ابراهيم النخعي: السائل بريد[5] الآخرة يجيئ الى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون الى أهليكم بشيءٍ؟ وقال بعضهم: ما أحب أن أرد احدا عن حاجة طلبها لانه لا يخلو أن يكون كريما فأصون له عرضه أو لئيما فأصون عرضي منه. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

ولا تردنّ أبا كان ذا وطرٍ يرجوك ـ ما اسطعْتَ ـ الا قاضيا وطَرَهْ

وإنما حضّ الناظم رحمه الله على السخاء والكرم لانهما من أشرف ملابس الدنيا

---

(١) الضحى: الآية ١٠.

(٢) القرطبي: ج:٢٠/ ص: ١٠١؛ والقلب ـ بضم وسكون: السوار.

(٣) كما في مسلم والبخاري.

(٤) كما في البخاري ومسلم.

(٥) بريد: أي رسول.

وأزين حللها وأجلبها للحمد، وأدفعها للذم، وأسترها للعيب. قال الشاعر:

لنعمَ الجود ساترُ كل عيبٍ وبيس البخل كشّافُ العيوبِ

وللشافعي رحمه الله:

وكن رجلاً على الأهوال جلدا وشيمَتك السماحة و الحياءُ

يغطّي بالسماحةِ كل عيبٍ وكم عيبٍ يغطيه السخاء

ولا ترجُ السماحةَ من بَخيلٍ فما في النار للظمئان ماءُ

فالسخاء اسم واقعٌ على كل نوع من أنواع الفضل، ولفظٌ جامع لمعاني الجود والبذل فهو محمود وعزٌ موجودٌ. ومن جاد فقد ساد. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «السخاء شجرة من أشجار الجنة أغصانها متدليات في الدنيا فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن الى الجنة»[1]. الحديث؛ وقال: «السخي قريبٌ من الله قريبٌ من الجنة قريب من الناس بعيد من النار[2] والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ولَجَاهل سخي أحب الى الله من عابدٍ بخيل» . رواه الترمذي؛ وقال: « تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله ءاخذ بيده كلما عثر[3] وفاتح له كلما افتقر»؛ وقال: «الخلق عيال الله فأحب الخلق الى الله أنفعهم لعياله»؛ وقال: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش

---

(١) حديث: السخاء شجرة.. الخ رواه الدارقطني في الافراد، والبيهقي في الشعب عن علي، ورواه ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابي هريرة، وابو نعيم في الحلية عن جابر، والخطيب عن ابي سعيد وابن عساكر عن أنس، والديلمي في مسند الفردوس عن معاوية، وهو حديث حسن كما في الجامع الصغير.

(٢) قربه من الله والناس: محبتهما له، وقربه من الجنة كونه من أهلها.

(٣) حديث: تجاوزوا.. الخ أخرجه الدارقطني والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود ـ كما في الجامع الصغير.

إقلالا»[1]؛ وقال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات»[2]. الحديث..

وقال أكثم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد له متكأ. وقد قالوا: السخاء دليلٌ على كمال الإيمان، وحسن الظن بالله، وعدم الركون الى الشيطان الذي يعد الناس الفقر، ويأمرهم بالبخل. وعلامة على الشجاعة إذ يُقدم المحسنون بلا مبالاة فيؤثرون الناسَ على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، وقد قال بعضهم: منع الجود سوء ظن بالمعبود، يقول الله عزّ وجل: ﴿وما أنْفَقتُم مِن شَيْءٍ فهوَ يُخلفه وهُوَ خيرُ الرَّازِقِين﴾[3]. ومن هذا المعنى أخذ الشاعر قولـه:

من ظنّ بالله خيراً جاد مبتـدئاً   والبخل من سوء ظن المرء بالله

وقد قيل لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: إن الله قد عودني أن يتفضل علي، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني. وكان سعيد بن العاصي يقول: من رزقه الله رزقاً حسناً فلينفق منه سرا وجهراً حتى يكونَ اسعد الناس به، فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقل عليه شيء، وإما لمُفسد فلا يبقى له شيءٌ. ومن هذا المعنى أخذ الشاعر قوله:

أسعد بمالك في الحياة فإنما   يبقى خلافك مصلح أو مفسد

فإذا جمعتَ لمفسد لم يغنه   وأخو الصلاح قليله يتزيد

فإن استطعت فكن لنفسك وارثا   ان المورث نفسَه لمسدد

وقال بعض الحكماء: ثواب الجواد ثلاثة: خلف، ومحبة، ومكافأة؛ وثواب البخيل

---

(١) حديث: انفق يا بلال .. الخ رواه البزار عن بلال، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

(٢) حديث: صنائع المعروف.. الخ أخرجه الحاكم عن أنس.

(٣) سبأ: الآية ٣٩.

مثلها: تلف، ومذمة، وحرمان. وقال حكيم العرب أكثم بن صيفي: ذللوا أخلاقكم للمطالب، وعودوها على المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلقٍ تذمونه من غيركم، وصِلوا من رغب اليكم، وتحلّوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر، فمن جاد سادَ، ومن ساد شادَ. وخير المال ما أفاد حمدا ونفى ذما وصان عرضا وأدى فرضا. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

أمِن خوف فقر تعجّلتــــه   وأخــــرت إنفاقَ ما تجمـع

فصرت الفقيرَ وأنتَ الغني   وما كنت تعدو الذي تصنـع

وقال بعض الحكماء: الجود محبة، والبخل مبغضة. وقال ابو ذر رضي الله عنه: إن لك في مالك شريكين: الحدثان والوارث، فإن استطعت أن لا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل. وقال بعضهم: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فانها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى. وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال:

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلــــة   فليس ينقصها التبذير والسـرفُ

وإن تولّت فأحرى أن تجود بهــا   فالحمــد منها إذا ما أدبرت خلف

وقال آخَـــــرُ:

أنفق ولا تخش إقلالاً فقد قسمت   علـــى العباد من الرحمن أرزاقُ

لا ينفع البخل مع دنيا موليــــة   ولا يضـــر مـــع الإقبال إنفاقُ

ولآخر في نفس المعنى:

فأنفق اذا أنفقتَ إن كنت موسرا   وأنفـق إذا ما خيلت[1] حين تعسر

---

(١) أي شبهت ولونت. ومعناه: على كل حال.

فلا الجود يفني المالَ والجَد[1] مقبلٌ   ولا البخـل يبقي المال والجَد مدبرُ

ثم إنه ينبغي للانسان اصطناع الخير عند امكانه قبل فوات أوانه، لأنه من الإحسان والله سبحانه يحب المحسنين. وقد قال بعض الحكماء: اصطنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله. وللبستي[2] في هذا المعنى :

أحسن اذا كان إمكانٌ ومقـدرة   فلـن يدوم على الإحسان إمكانُ

فالروض يزدان بالأنوار فاغمُـه[3]   والحُـرّ بالعدل والإحسان يزدانُ

وقال آخَـــرُ:

بادر إذا حاجةٌ في وقتها عرضتْ   فللحـوائج أوقـات وساعات

إن أمكنت فرصةٌ فانهض لها عجـلاً   ولا تؤخـر فللتأخير آفاتُ

ولأبي العباس الجماني ـ وأجاد:

ليس في كل ساعـة وأوانٍ   تتهيا صنائـع الإحسانِ

وإذا أمكنت فبادر اليهـا   حـذراً من تعذر الإمكان

وقال آخَـــرُ:

لا تقطعنّ يد المعروف عن أحـد   ما دمـتَ تقدر فالأيام تارات

واذكر فضائلَ صنع الله إذ جعلت   إليـك لا لكَ عند الناس حاجاتُ

---

(١) الجد ـ بالفتح: الحظ.

(٢) هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست قرب سجستان، واليها نسبته. له ديوان شعر مطبوع صغير فيه بعض شعره. وفي كتب الأدب كثير من نظمه غير مدون. توفي ٤٠٠ هـ

(٣) الروض: الأرض المخضرة بأنواع النبات؛ ويزدان: يتحسن ويتزخرف؛ والأنوار: الأزهار، أو الأبيض منها؛ والفاغم: المتفتح من ورده.

كم مات قومٌ وما ماتت مكارمهم　　وعاش قوم وهم في الناس أمواتُ

وفي بعض الآثار: "حوائج الناس اليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم فتعود نقما".

وللعلامة محمذفال بن متالي في هذا المعنى :

ما عظمت نعمه علا علـى　　أحـدٍ الا اشتدّ ما تحملا

من مؤن الناس ومن أبى الرضى　　بهـا فللزوال قـد تعرّضا

ثم إن السخاء والكرم والجود بمعنى، وهو التفضل على الغير بما منحك الله من غير عوض. وإن كان في السخاء رقة ولِينٌ. وقيل: من أعطى البعض، وأمسك البعضَ فهو السخي، ومن بذل الأكثر فهو الجواد، ومن ء اثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو المُوثِر، وقيل السخي من كان مسرورا ببذله متبرعا بعطائه لا يلتمس عرض دنيا فيحبط عمله، ولا طلب مكافأة فيسقط شكره، ولا يكون مثَله فيما أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحبّ للطائر لا يريد نفعها، ولكن نفع نفسه.

ولابن المعتز:

ليس الكريم الذي يعطي عطيّته　　عن الثناء وإن أغلى به الثمنا

بل الكريم الذي يعطي عطيتّه　　لغير شيئٍ سوى استحسانه الحسنا

لا يستثيب ببذل العرف محمدةً　　ولا يمنّ اذا ما قلّد المننا

وقال آخَـرُ:

وإنما الجود بذل لم تكاف به　　صنعاً ولم تنظرن فيه جزا رجل

وللعلامة محمذفال بن محمد مولود (المباركي):

تصدق تَنلْ ما تشتهي واشتر الثنا　　بمالك وابذله لوجه حبيب

ولا تعطين شيئا تريد ثوابـــــه فتضـحـى وما ان تنثني بنصـيب

فشر العطايا ما أريـد ثوابـــــه ولـــــو من كريم ذي ثـراء أريـب

وقد قال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده نيده عندي أعظم من يدي عنده. ومنه قول عمران بن حطّان:

فإن أك في أخذ العطية مُربَحـــاً فإنّـــك في بذل العطيّة أربـــحُ

لأن لك العقبى من الأجر خالصـــاً وشكري في الدنيا، فحظك أرجحُ

وقال بعضهم: من انتجعك من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك. ولابن عباس رضي الله عنهما:

اذا طارقات الهم ضاجعت الفتـــى وأعمـل فكر الليل والليل عاكـر

وباكرني في حاجة لم يكن لـهـــا سـواي ولا من نكبة الدهر ناصر

فَرَجتُ بمالي همّه عن خناقـــــه وزايَله الهــــمُّ الطروق المساور

وكان له فضل عليّ بظنّـــــه بـــيَ الخير إني للذي ظنّ شاكرُ

وفضل الجود والكرم والإنفاق في أوجه البر بصفة خاصة ـ شرعا وطبعا ـ أمر متعارف. والآيات والأحاديث والآثار والأمثلة والحكايات والأشعار.. فيه أكثر وأشهر من أن تحصى، وأظهر من أن تذكر. وقصارى القول في الجود أنه وصفٌ حميد لا يُدرك شأنه وكماله، ولا يَبلغ المديح غاية حسنه وجماله، فهو من محاسن الأخلاق قديما وحديثا، بل هو من أعظمها. ولحاتم الطائي في الكرم:

أماويُّ إن المالَ غادٍ ورائـــــحٌ ويبقى مـــن المال الأحاديث والذكر

أماويُّ إني لا أقول لسائـــــلٍ اذا جاء يوما: حلّ في مالي النذر

أماوي اما مانــــع فمبيــــــن واما عطاء لا ينهنهــه الـزّجــر
أماوي إن يصبح صداي بقفـــــرة مــــن الأرض لا ماء لدي ولا خمرُ
تريْ أن ما أنفقتُ لم يك ضـــرني وأن يـــــدي مما بخلت به صِفـرُ
أماوي ان المال مالٌ بذلتــــــه فأولــه شكـــر وء اخره ذكـــر

ومن قصيدة للإمام علي كرم الله وجهه:

ونافس ببذل المال في طلب العلــى بهمــة محمود الخلائـق ما جد
وكن واثقا بالله في كل حـــادث يصنك مدى الأيام من شر حاسد
وبالله فاستعصم ولا ترجُ غيــرَه ولا تـك في النعماء عنه بجاحد

وللشريف الرضـى:

ليس بالمغبون حـقا مشتري عـزٍّ بمـال
إنما يدخر المـــــا ل لحاجات الــرجال
والفتى من جعل الـ ـأموال أثمان المعالي

وللبسـتي:

وكـن على الدهر معواناً لذي أملٍ يرجـــــو نداك فإنّ الحُرّ معوانُ
من كان للخير مناعاً فليس لــــه على الحقيقـــــة خلانٌ وإخوانُ

ثم إنه مما ينبغي للجواد أن لا يمنعه من أصل البذل قلة ما يبذله، إذ ذاك واجبه شرعا وطبعا. فالجود لا يقتصر على بذل الكثير بل من أحسن الجود الجودُ مع الإقلال. قال تعالى: ﴿ويُوثِرونَ على أنفُسِهم ولوْ كانَ بهمْ خَصاصَةٌ و مَن يوقَ شُحَّ نَفسِـه فاؤلئك

هم المفلحون﴾[1]. وقد قيل: القليل في الخير كثير لا يعدم الإنسان جزاءه ولا يُحرم ثوابَه. قال تعالى: ﴿فمَن يَعمَل مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَه ومَن يَعمَل مثقالَ ذرةٍ شراً يرَه﴾[2] وقال ﷺ «أفضل العطية جهد[3] المقلّ»، وقال: «أفضل العطية ما كان من معسر الى معسر». وقال علي كرم الله وجهه: لا تستح من إعطاء القليل، فالحرمان أقلّ منه. وقال بعض الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير من الكثير. وقالوا جهد المقل أفضل من غنى المكثر، فالكريم اذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعرف جوده ولم تظهر هِمّته. ولكلثوم بن عمرو التغلبي:

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم   تقدر على سعة لم يظهر الجودُ
بثّ النوالَ ولا تمنعك قلته   فكلّ ما سدّ فقرا فهو محمود

وقال آخَــــرُ:

جهد المقل اذا أعطاكَ مصطبراً   ومكثر من غنى سيان في الجودِ

ومن أحسن ما قيل في الجود مع الإقلال قول أبي تمام:

تعود بسط الكف حتى لو أنه   أراد انقباضا لم تطعه أناملُه
فلو لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق اللهَ سائله

ومن أفرط ما قيل فيه قول بكر بن النطاح:

أقول لمرتاد الندى عند مالك   تمسّك بجدوى مالك وصلاته

---

(١) الحشر: الاية٩.

(٢) الزلزلة: الاية ٨.

(٣) أخرجه ابو داوود، والحاكم في المستدرك.

فتى جعل الدنيا وقاءً لعرضه فأسدى بها المعروفَ قبل عداته
فلو خذلت أمواله جودَ كفّه لقاسَم من يرجوه شطرَ حياته
ولو لم يجد في العمر قسماً لزائرٍ - وجازله - أعطاه من حسناتِه
وجاد بها من غير كفرٍ بربه وأشركه في صومه وصلاته

ومن فوائد الجود: حسن الثناء الذي يبقى لصاحبه. وقد قالوا: انه يستحب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. وقد قال تعالى - حكاية عن سيدنا ابراهيم عليه السلام: ﴿واجْعَل لي لِسانَ صِدقٍ في الآخِرينَ﴾[1].

وقد ذكر بعض أهل التفسير أنه أراد حسنَ الثناء من بعده. وقد أجاب الله تعالى دعاءه فما من أمة من الأمم الا وهي تحبيه وتثني عليه بخير، سيما هذه الأمة المحمدية - خصوصا المؤمنون منهم . وقد قالوا لا بأس بحب الرجل أن يثنى عليه صالحا، ويُرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالى. وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وألقَيْتُ عليكَ مَحبَّةً مني﴾[2]، وقال: ﴿إن الذين ءامَنوا وعَملوا الصالحاتِ سيَجعَل لهم الرحمان وُدا﴾[3]، أي حبا في قلوب عباده وثناء حسنا. فالذكر الجميل هو الحياة الثانية:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاتَه وفضول العيش أشغال

ويُروى أنه ﷺ قال: «إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء». وقال بعض الحكماء ان أحمدَ الأشياء أن تبقى للإنسان أحْدُوثة حسنة. وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار فطيبوا أخباركم؛ وقال الأحنف بن قيس: ما ادخرت

---

(١) الشعراء: الاية ٨٤.

(٢) طه: الآية ٣٩.

(٣) مريم: الآية ٩٦.

الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئا أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والاداب. ولبعض الشعراء في ذلك المعنى :

أنا ابن أناس مولّ الناسَ جودُهم فأضحوا حديثاً بالنوالِ المشهّر
فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبر ولم يخلُ من تقريظهم بطنُ دَفترِ

وقال بعض الحكماء: انّ في الكرم عزّ الدنيا وشرفَ الآخرة وحسنَ الصيت وخلودَ جميل الذكر. وقال بعضهم: أفضل الناس من طمح ببصره الى الأمام، وعلم أن الآجال صحائف الأيام فقلّدها أفضل الأعمال حتى كان مثالاً حسنا لمكارم الأخلاق، وجمالِ الطباع نصيراً للمروءة فهو الذي يبقى له الذكر الحسن والحديث العطر والأمر الخالد:

فَيُرى على مرِّ الدهور لدى الورى حيّاً بما أولاه من إحسانِ

ولبعضهم:

حياتنا كالموت إن لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم

وقال آخَرُ:

اذا كنت في أمر فكن فيه محسنا فعما قليل أنت ماضٍ وتاركهْ

ولحبيب الطائي:

وما ابن ء ادم الا ذكر صالحة أو ذكر سيئة يسري بها الكلِم
أما سمعتَ بدهر باد أمّته جاء ت بأخبارها من بعدها أمم؟

قال بعض الحكماء: الناس أحاديث فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثا فافعل.

ولمحمد بن دريد:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال آخَرُ:

المرء بعد الموت أحدوثـــة　يفنى وتبقى منـــه آثارُه
يطويه من أيامه ما طــوى　لكنــه تنشـــر أسراره
فأحسن الحالات حال امرئٍ　تطيب بعـــد الموت أخباره
يفنى ويبقى ذكره بعــــده　اذا خلَتْ مـن شخصه داره

وقال آخَـــرُ:

فما شيءٌ يدوم فكن حديثاً　جميــلَ الذكر فالدنيا حديثُ

وقال آخَــــــرُ:

وما المرء الا ذكره و فعالـه　وكــل مقام غيرهن حقيـر

ولقطبة بن أوس:

وسيبقى الحديث بعدك فانظـر　خير أحدوثـــة تكــون فكُنْها

ولآخر في نفس المعنى :

كن محسنا مهما استطعت فهذه الـد　نيا وإن طالـت قصيـــرٌ عمـرُها
ان المآثر في الورى ذريَّـــــةٌ　يفنى مؤثرهــا ويبقـــى ذكرُهـا
فترى الكريم كشمعة مَن عنبـرٍ　ضاء ت فان طفئت تضوّع نشرها[1]

ولآخـــر:

كم مات قوم وما ماتتْ مآثـرهـم　وعاش قـوم وهم في الناس أمـوات

ولآخـر:

ومن ء اثَرَ الدنيا على حسن سمعة　وذكـــرٍ له يبقـى ويُبقـي المناقبا

---

(١) كشمعة: أي مصباح؛ من عنبر: اي طيب؛ ضاء ت: أي سطع نورها؛ تضوع: فاح؛ نشرها: رائحتها الطيبة.

فذاك كمن عاف النعيم مخــــلدا لِلَـــــذات دنيا برقهـــا كان خُلّبا[1]

وقال آخَـــــــرُ:

نافس على الخيرات أهلَ العُلى فإنمـــــا الدنيـــا أحاديــــــث

وكم مدحت بالجود رجال وبقي ذكرهم على مرّ الليالي والأيام، فمن هو حاتم طيئ؟ وكعب بن مامة الإيادي؟ وهرم بن سنان؟ ومعن بن زائدة؟ وخالد بن يزيد؟ ومن هم ءال المهلب، والبرامكة ؟؟ وغيرهم... ممن أفناهم الدهر، ولولا أن الجودَ حفظ ذكرَهم، ونقش أثرهم على صفحات الأيام وضرب بهم الأمثال، لنسخ ذكرهم من الألسنة. ومن فوائد الجود- أيضا- غرس المحبة في القلوب. وقد أمر الشارع بالتهادي وجعله سببا للمحبة. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتم بتَحيَّةٍ فحَيوا بأحْسَنَ منها أو ردوهَا﴾[2]: إن المرادبها الهديّة. وفي الحديث: «تهادوا تحابوا»[3]، وفيه: «تهادوا فان الهدية تضعِّفُ الحبّ وتَذهب بغوائل الصدور»[4]؛ وفيه: «تهادوا إن الهدية تُذهب وحرَ الصدر»[5]. ويقال: في نشر المهادات طيٌّ المعادات.

ولأبي العتاهية في هذا المعنى:

هدايا الناس بعضهم لبعـــض تولّـــــد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوىً ووُدا وتكسوهـــم إذا حضروا جمالا

وقال آخَـــــــرُ:

---

(١) البرق الخلب: المطمع المخلف.

(٢) النساء: الاية ٨٦.

(٣) حديث: تهادوا تحابوا.. أخرجه البخاري في كتابه الأدب المفرد، وأبو يعلى في مسنده.

(٤) رواه الطبراني في الكبير. وغوائل الصدور: احقادها، وأضغانها.

(٥) حديث : تهادوا إن.. الخ رواه الترمذي وأحمد في مسنده. وحر الصدر: حقده.

ان الهـــدايا لها حـــظٌ اذا وردت   أحظى من الإبن عند الوالد الحَدِبِ

تنبيه في آداب العطية ومنع المَنّ بها

ثم إنه ينبغي للسّخي أن ينميَ النيةَ بأن يقصد الإهداء والتصدق وامتثال أمر الشارع باعطاء السائل وادخال السرور على كل من يسره ما صنع وصون عرضه وأعراض عشيرته. فلا يجلب لهم المذمة والشحناء بل يعاملهم الناس المعاملة الحسنة لما صنع صاحبهم، وينوي ـ أيضا ـ إحياء السنة بذلك، إلى غير ذلك مما يحضر من وفّقه الله تعالى. وقد قالوا: من كان له في كل شيءٍ نية، حصل له في كل شيئ أمنية. كما ينبغي له ـ أيضا ـ أن يحليَ معروفَه بالخصال الثلاث التي وردت في قوله ﷺ «لا يتم المعروف الا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره»، ويقال: ءاداب العطية ستة: ثلاثة تتعلق بالواهب: تصغيرها، وكتمها، والزهد في مكافأتها؛ وثلاثة تتعلق بالموهوب له: (وهي أضدادها) يعظمها ويذيعها، ويكافئها. كما ينبغي له ان لا يمنّ بعطيته، ولا يؤذي السائل. لأن المنّ من الكبائر، و مبطل للصنيعة، وحذر منه القرآن الكريم، والسنة المطهرة. قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ ءامَنوا لا تُبطِلوا صَدَقاتِكم بالمنِّ والأذى﴾[1]؛ وقال تعالى: ﴿ثمَّ لا يُتْبِعونَ ما أنفَقوا مَنّاً ولا أذىً لهُم أجْرُهم عندَ ربِّهم ولا خَوفٌ عليهمْ ولا هُم يَحزنون﴾[2]؛ وقال: ﴿مَن ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قَرضاً حسناً﴾[3]، أي محتسبا به طيبة به نفسه لا يمن به ولا يؤذي، ولا يعتقد في قرضه عوضا. وقال جلّ من قائل: ﴿قَولٌ معْروفٌ ومغفِرةٌ خيرٌ من صَدَقةٍ يَتبَعُها أذىً واللهُ غنيٌّ حَليمٌ﴾[4]،

---

(١) البقرة: الاية ٢٦٤.

(٢) البقرة: الاية ٢٦٢.

(٣) البقرة: الاية ٢٤٥.

(٤) البقرة: الاية ٢٦٣.

أي غني عن الصدقة حليم بتأخير عقوبة المانّ و المؤذي، وهذا كالتصريح في أن المنّ حرام.وفي الخبر: «ثلاثة لا يحجبون عن النار: المنّان، وعاقٌ والديه، ومدمن الخمر»، كما في الجامع الصغير. وفي الترمذي: لا يدخل الجنة خبٌّ ولا بخيلٌ ولا منّان. وورد: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكرَ، ويمحق الأجر»[1]. وقال بعض الحكماء: آفة السماحة المنُّ. وقال آخرُ: المنة تهدم الصنيعة. وقال بعض البلغاء: من منَّ بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجره. ويقال: منُّ الرجال على القلوب أشدُّ من وقع الأسنة على الجيوب. وقال آخرُ: صنوان مَنْ منحَ سائله ومَنَّ، ومن منع نائله وضنَّ (ومعنى صنوان: أي مثلان) ويقال المنُّ أخو المَنِّ (أي الامتنان بتعديد الصنائع أخو القطع والهدم). ومن بلاغة الزمخشري قوله:"طعم الآلاء أحلى من المَنِّ وهو أمرُّ من الألاء عند المنّ"[2].

ويقال: لا خير في صحبة من جمع ستا: إن حدثك كذّبك، وإن حدثتَه كذَّبك، وإن ائتمنتَه خانكَ، وإن ائتمنكَ اتّهمكَ، وإن أنعمت عليه كفَرَكَ، وإن أنعم عليك مَنَّ عليك. وقد عدّ عبد العزيز الدباغ[3] من أسباب قطع العبد عن ربه: المنة على العيال والأهل بالنفقة (يقول أنفقت عليكم كذا وكذا..بقصد المنة).

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

---

(١) راجع إحكام المقال في أحكام السؤال.

(٢) الآلاء الأولى(بوزن ء اباء): النعم، واحدها إلىً وألىً بوزن مِعىً وعَصا؛ والمن الأولى: اسم جنس لا واحد له من لفظه، وهوطل ينزل من السماء على شجر أو حجر ينعقد فيشبه العسل يجمد ويحلو، ويجف جفاف الصمغ؛ والألاء الثانية(بوزن سحاب) اسم شجر مرّ دائم الخضرة، واحدته ألاء ة؛ والمن الثانية: ذكر النعمة على معنى التعديد لها، والتقريع بها، والتحدث بما اعطى حتى يبلغ ذلك المعطي فيؤذيه.

(٣) هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ: متصوف من الأشراف الحسنيين. ولد سنة ١٠٩٥ بفاس. وكان أميا لايقرأ ولا يكتب. ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ونقل الخوارق عنه. توفي بفاس سنة ١١٣٢هـ.

المنُّ للذم داعٍ بالعطاء فلا تمنن فتبقى بلا حمدٍ ولا مالِ

وقال آخَرُ:

أفسدتَ بالمنِّ ما أسديتَ من نِعَمٍ[1] ليس الكريم إذا أعطى بمنانِ

وقال آخَرُ:

لنقل الصخر من قُلل الجبالِ أحب إلي من منٍّ لرجالِ

ولآخر:

علمتكَ منّاناً فلستُ بئاملٍ نداكَ ولو ظمآن غرثانَ عاريا

وقال آخَرُ:

وإنّ امرأ أهدى اليَّ صنيعَة[2] وذكَّرنيها مرةً لبخيل[3]

ولأبي بكر الوراق ـ وأجاد:

أحسن من كل حسن في كل وقت وزمن
صنيعةٌ مربوبة خالية من المننِ

هذا وقد حظر الله سبحانه وتعالى على عباده المنَّ بالصنيعة، واختصّ به صفة لنفسه، لأنه منهم تعيير وتكدير، ومنه تعالى إفضالٌ وتذكيرٌ. ونقل سليمان الجمل في المانِّ بصدقته ثلاثةَ أقوال: قيل موزور في منّه ولا يؤجر في صدقته؛ وقيل لا أجر ولا وزر؛ وقيل له أجر صدقته غير مضاعف، وعليه وزر المنّ.

وتعريف المنّ هو أن يعد المتصدق على السائل ما أعطاه، مثل أن يقول له: أحسنتُ

---

(١) في نسخة: حسن.

(٢) الصنيعة: الإحسان.

(٣) في نسخة اخرى: للئيم.

إليك، وجبرت حالك، ولولاي لضعت.. أو يذكر معروفَه عليه عند من لا يحب إطلاعَه عليه. يقال مننت عليه مناً: أي عددت له ما فعلت له من الصنائع وهو تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب. فلذا نهى الله عنه. وقال بعضهم: حقيقة المنّ أن ترى نفسكَ محسناً إليه، وعلامته أن تتوقع منه الشكر. أو تستكثر تقصيره في حقك، ومُمَالأتَه عدوكَ استكثاراً زائداً على ما قبل الصدقة.

وأما الأذى فهو: السبُّ والتشكي وتعيير السائل، كأن يقول له: إلى كم تسأل؟ وهو أعمُّ من المنِّ، لأن المنَّ جزء من الأذى. ولكن نصّ على المن لكثرة وقوعه. اهـ

ثم إن الجودَ - وإن كان فضيلة - فإنه إذا جاوز الحدَّ، أو أخطأ الغرضَ انقلب رذيلةً لا تغفر، وزلةً لا تستباح، لأنَّ صنائعَ المعروف لا يعتد بها الا اذا وقعت في موقعها. قال تعالى: ﴿وءاتَى المالَ على حُبِّه ذَوي القُربَى﴾[1]- الآية. وقال ﷺ «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً جعل صنائعَه ومعروفَه في أهل الحفاظ[2]، وإذا أراد بعبد شراً جعل صنائعَه ومعروفه في غير أهل الحفاظ»[3]، أي اذا اراد بعبد خيراً جعل خيره في أهل الدين، واذا اراد بعبد شرا جعل عطاياه وفعله الجميل في غيرهم. فليس الاحسان الى كل الناس مثمرا، ولا في كل المواضع جائزاً فقد تنعكس آثاره فينقلب نفعه ضرا كالإحسان الى اللئام الذين يجحدون آلاءَ المُنعِم ويُنكرون فضلَه، بل يناصبونه العداء ويحاربونه بما أعطاهم ان أمكنتهم الفرصة. وفي بعض الآثار: اتق شرّ من أحسنتَ إليه.

وقال بعض الحكماء: المعروف الى الكرام يعقب خيرا، والى اللئام يُعقب شرا. وقد

---

(١) البقرة: الآية ١٧٧.

(٢) المناوي: الحفاظ - ككتاب: الدين والأمانة، والصنيعة: العطية، والمعروف:حسن الصحبة والمواساة. اهـ من مأدبة الأنداب.

(٣) حديث:إذا اراد الله بعبد.. الخ أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن جابر، كما في الجامع الصغير.

قال الشاعر:

ولا تصطنع إلا الكرامَ فإنهم يجازون بالنعماء من كان مُنعِما
ومن يتخذ عند اللئام صنيعَة تجده على اثارها متندما

فالمحسن الحازم من يرى أن خير المال ما اكسب حمداً، وأورث ذكراً، وأعلى قدراً، ويسّر عسراً، ويتخير لمعروفه منبتاً حسناً، وقلبا كريما من ذوي الحاجات، ومن أذلهم الزمان بعد العزة، ووضعهم بعد الرفعة. ومن كلامهم: ينبغي أن يتوخى بالمعروف أهل الوفاء والشكر. كما يتوخى للوديعة أهل الأمانة والثقة. وإعطاء الفاجر يقوّيه على فجوره. والصنيعة عند الكَفور إضاعة النعمة، فإذا هممت بشيءٍ من هذا فارتَدْ الموضعَ قبلَ الإقدام على الفعل. ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يصاب بها طريق المصنَع
فإذا صنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوي القرابة أو دع[1]

وقال آخَرُ:

اذا فعلت جميلا وابتدأتَ به فاجعل له حاجةَ المضطر ميقاتا
فالغيث هو حياة المرء قاطبة لا خير فيه اذا ما وقتُه فاتا

وقال آخَرُ:

من الناس من يغشى الأباعد نفعُه ويشقى به حتى المماتِ أقاربُه
فإن كان خيراً فالبعيد يناله وإن كان شرا فابنُ عمّك صاحبُه

(١) تمثل رجل عند عبد الله بن جعفر بهذين البيتين فقال عبدالله: هذان البيتان يبخلان الناس. لا، ولكن امطر المعروف امطارا فان أصاب الكرام كانوا له أهلا، وإن أصاب اللئام كنت له أهلا.

تنبيه في ذَمِّ البُخــل

ولما حضّ الناظم على السخاء وسقنا فيه ما تقدم، وكان البخل نقيضَه، والأشياء تذكر باضدادها، كان من تمام الفائدة أن نذكر بعض ما ورد في ذمّه تنفيراً منه وترغيبا في السخاء الذي ورد الحضُّ عليه، والمبادرة إليه، فأقول:

قال بعضهم: أما البخل فهو أدنى خصلة، وأدوى علةٍ. وهو كشاف المعائب فضاح المثالب. يجعل صاحبَه مضغة في أفواه المذام، وسُبةً في ألسُن الخواص والعوام. قال الله تعالى: ﴿ولا يَحسبنَّ الذينَ يَبْخَلونَ بمَا ءاتاهُم اللهُ مِن فَضلِه هوَ خيراً لهُم بَلْ هُو شرٌّ لهُم﴾[1]. الآية. وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ من الجبن والبخل ـ رواه ابن ماجه. وعن ابي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»؛ وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا منّان»؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن غرّ كريم والفاجر خب لئيم». روى الثلاثة الأحاديثَ الترمذي، وقال: «البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولَجاهلٌ سخيٌّ أحبّ الى الله من عابدٍ بخيل» ـ الحديث. وفيه أيضا: «البخل شجرة من أشجار النار أغصانها متدلياتٌ في الدنيا فمن أخذ بغصنٍ من أغصانها قاده ذلك الغصن إلى النار»[2].

وقد قيل: البخل جامع لمساوئ القلوب، وهو زمام يقاد به الى كل سوء. وقال علي رضي الله عنه: بشر مالَ البخيل بحادثٍ أو وارث. وقال يعيش البخيل في الدنيا عيشَ الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

---

(١) ءال عمران: الآية ١٨٠.

(٢) حديث: البخل شجرة..الخ رواه الدارقطني في الافراد، والبيهقي في شعب الإيمان عن علي، كما في الجامع الصغير.

وفي هذا المعنى يقول بعض الشعراء:

إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تك ذا ندىً　　فأنتَ إذن والمقترون ســـــواءُ
على أن في الأموال يوماً تباعة　　على أهلها، والمقتـــرون براء

وقال آخـــــــر:

وء امرةٍ بالبخل قلت لها اقصري　　فليس الى ما تأمرين سبيــــلُ
أرى الناسَ خلانَ الجـواد ولا أرى　　بخيـــلاً لـه في العالمين خليلُ
وإني رأيت البخلَ يزري بأهلـــه　　فأكـــرمت نفسي أن يقال بخيـل
عطائي عطاء المكثرين تجمّـــلا　　ومالي كمـــا قد تعلمين قليل
ومن خير حالات الفتى لو علمتهِ　　إذا نال شيئاً أن يكـــون يُنيل

ولمنصـور الفقيـه:

زاد البخيل اذا مضى لسبيلـه　　ذمّ العـــدا وقطيعة الأرحام

ولآخـر:

وأخو السخاء فحظه من أهلـه　　ومـــن الغريب مدائح ومراث

وقال آخـــــرُ:

إياكَ و الحرصَ إن الحرصَ متعبــةٌ　　فإن فعلت فراع القصد في الطلبِ
قد يرزق المرء لم تتعب رواحلــه　　ويُحـرم المرء ذو الأسفار والتعب

ولقيس بن الخطيم:

ولا يعطى الحريص غنىً بحـرصٍ　　وقد ينمـــى على الجود الثراء
غناء النفس ما عمرت غنـــاء　　وفقـــر النفس ما عمرت شقـاء

وليس بنافع ذا البخل مالٌ ولا مُزرٍ بصاحبه السخاء

وقال موناك بن المصطفى التندغي:

البخلَ جنّبْ إنه البلوى وإن غلبتك نفسُكَ فابخَلنْ ان تبخَلا

واذا النوائب قسمتها أهلها لا ترض قِلاً بينهم أن تحملا

ان النوائب حملها يأتي على حسب المروءة لا على حسب الملا

والمرء أحوج دهره لمروءة أيام قلة ما له بين الملا

فاحمل منابك واتكل فيه على من هو كاف من عليه توكلا

تنبيه في الحضّ على الشكر

ولمّا كان شكر المنعم خصلةً محمودة كان من تمام الفائدة أن نذكر بعض ما ورد فيه بعدما تقدم من الحض على السخاء والترغيب فيه، والتنفير من ضده، فأقول:

الشكر هو اعتراف المرء بالأحسان لذويه، وإقراره بالثناء على مسديه، فجحد النعم كفر، وإنكارها لؤم. وقد قال تعالى: ﴿ومَن شكرَ فإنما يَشكُرُ لِنَفسِهِ﴾[1]، وقال: ﴿هَلْ جَزاءُ الإحسَانِ إلا الإحْسَانُ﴾[2]؛ وقال ﷺ: «أشكَرُ الناس لله أشكرهم للناس»[3]، وقال: «أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاءً إلا الدعاء والثناءَ فقد كافأه»، وقال: «مَن نشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كفَرَه»، وقال: «لا يشكرُ اللهَ من لم يشكر الناس» ـ رواه أبو داوود.

ولبعضهم: "من لايقوم بشكر نعمة حِبِّه فمتى يقوم بشكر نعمة ربه"؟ وعن جابر بن

---

(١) لقمان: الآية ١٢.

(٢) الرحمن : الآية ٦٠.

(٣) حديث: أشكر الناس...الخ أخرجه احمد في مسنده، والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب.

عبد الله الأنصاري: قال: قال النبي ﷺ: «من صُنع إليه معروف فليجْزه فإن لم يجد ما يُجْزه فليُثْن عليه فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يُعطَ فكأنما لبس ثوبيْ زور»[1]؛ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى يعلم أن كافأتموه» ـ رواه أبو داوود، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "لو أن فرعون مصرَ أسدى إليّ يداً صالحةً لشكرته عليها". وقال بعض الحكماء: اذا قصُرت يدكَ عن المكافأة فليَطُل لسانك بالشكر. وقال ءاخر: اذا صنعت المعروفَ فاستره، وإذا صنع إليك فانشُره. ولدعبل الخزاعي:

اذا انتقموا أعلنوا أمرَهم وإن أنعموا أنعَموا باكتتام

وقال سهل بن هرون:

خِلٌ إذا جئتَه يوماً لتسألـه أعطاكَ ما ملكت كفّاه واعتـذرا
يخفي صنائعَه والله يظهرها إن الجميل اذا أخفيتَه ظهـرا

وقال بعض الحكماء: حق النعمة أن تحسن لباسها وتَنسبها إلى وليّها وتذكر ما تناسى عندك منها. وقال ءاخر: من أنكر الصنيعة استوجب القطيعةَ. وقال المغيرة بنُ شعبة: اشكر مَن أنعم عليك وأنعِم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعم اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت. وقال ءاخر: اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة، ومن أخيك المناصَحةَ. وقال ءاخر من لم يشكر الإنعام فاعدده من الأنْعام. ويقال خمسةٌ أشياء ضائعة: سراجٌ يوقد في شمس، ومطرٌ جَوْدٌ في سبخة، وحسناء تُزفُّ إلى أعمى، وطعام استجيد وقُدم إلى سكران، ومعروفٌ صنع إلى من لا يشكره. وقال

(١) من كتاب "الأدب المفرد".

العباس رضي الله عنه: لا يتمُّ المعروف الا بثلاث خصال: تعجيله وتصغيره، وستره، فإذا عجلته هنيته، وإذا صغّرته عظمته، وإذا سترته تَمَّمته. ولأبي يعقوب الخريمي:

زاد معروفَكَ عندي عِظمـــا أنه عنـــدك مستور حقيرُ
تتناساه كأن لم تأتــــه وهو عند الناس مشهور خطير

ولبعض الشعراء:

الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً به الـزيادةَ عنـد الله والناسِ

وقال آخَـــرُ:

ومن غدا لابساً ثوبَ النعيم بلا شكـــر الإله فعنه اللهُ ينزعه

وقال آخَـــرُ:

إذا أنا لم أشكر على الخير أهلَه ولم أذمـم الجِبسَ[1] اللئيم المذمّما
ففيمَ عرفتُ الخير والشكر باسمه وشـــقَّ لي اللهُ المسامعَ والفما؟

وقال آخَـــرُ:

أوليتني نِعَماً أبوح بشكرها وكفيتني كـلَّ الأمور بأسرها
فلأشكرنّك ما حييت وإن أمت فلتشكـرنك أعظمي في قبرها

وقال آخَـــرُ:

سأشكر لا أني أجازيك منعماً بشكري ولكن كي يزد ذلك الشكر
وأذكر أياما لديّ اصطنعتها وءاخر ما يبقى على الشاكر الذكر

ولآخر:

(١) الجبس ـ بالكسر: الجبان اللئيم.

اذا أولاكَ ذو كرم فتيـــلا[١]   فكـن بالشكر منطلقَ اللسـانِ

وقال آخَـــــرُ:

يسر الكريم الحمد لا سيما لدى   شهــــادة من في خيره يتقلـــب

وقال آخَــــرُ:

لو كنت أعرف فوقَ الشكر منــــزلةً   أعلى مـــن الشكر عند الله في الثمنِ

اذن منحتكها مني مهنَّـــــــــدةً   شكراً على صنع ما أوليت من حسـن

وقال آخَــــرُ:

شكرتك إن الشكـر حبلٌ مـن التقى   وما كــــل ما أوليته نِعماً يقضي

وأحييت من ذكري وما كنت خامِلاً   ولكــــن بعض الذكر أنبه من بعـض

ولعبدالله بن الزبير[٢]:

ساشكر عمراً ما تراخت منيَّتـــي   أياديَ لـــــم تمنن وإن هي جـلّتِ

فتىً غير محجوب الفنى عن صديقـه   ولا مظهــر الشكوى إذا النعـلُ زلتِ

وقـدقـال بعض الحكمـاء: إنّ منَ الشكرشكرَ الهـمة، ومن لم يشكُر الهـمـة لم يشكر النعمة. وقالاخر: من لم يحمدك على حسن النية لم يشكرك على جميل الفعل، وأنشد:

لأشكرن لك معروفاً هممت بـه   فإن همّك بالمعــــروف معـروفُ

ولا ألومك إن لم يمضِـه قـــــدرٌ   فالشـر بالقدر المحتوم مصـروفُ

---

(١) أي قدر الفتيل: وهو السحاة التي في شق التمرة.

(٢) يمدح عمرو بن عثمان بن عفان، وبعد البيتين:

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها   فكانت قذى عينيه حتى تجلّت

اذا استقبلت منه المـودة أقبلـت   وإن غمزت منه القناة اكفهرت

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: إنما أمر بالمكافأة ليتخلص القلب من إحسان الخلق.

تنبيه في حُكم السؤال

لما حثّ الناظم رحمه الله على العطية قبلَ السؤال، وذكر أنه ليس بعد السؤال الا البذل، كان من تمام الإفادة أن نُلمّ ولو قليلا ببعض ما يتعلق بالسؤال، مثل من ينبغي سؤاله ان كان لا بدّ من السؤال، وبعض ما ورد من ذمه، وعن حكمه، فأقول:

ينبغي للسائل أن لا يسأل حتى يجوزله السؤال، فإن كان لا بد سائلاً فليسأل الصالحين وحسان الوجوه وأهلَ الخير قديماً. فقد قال رجل لرسول الله ﷺ : أأسأل؟ قال: «لا. وإن كنتَ لابد سائلا فاسأل الصالحين»[1]، قال المناوي: هم الذين لا يمنعون حقا أو الساعين في مصالح الخلق، أو الذين لا يمنُّون بما أعطوا. وفي الخبر: «اطلبوا الخيرَ من حسان الوجوه»[2]، الهيثمي: يعني الوجوه من الناس وذوي الأقدار. وفي الجامع الصغير: «اطلبوا الخيرَ من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم ولا تطلبوا من القاسية قلوبهم فإن اللعنة تنزل عليهم». ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

لقد قال الرسول وقال حقـاً ... وخيـر القول ما قال الرسولُ

اذا الحاجات عزّتْ فاطلبـوها ... الـى من وجهـه حسنٌ جميـل

ويقول آخرُ :

روي حديث عن نبيّ الهـدى ... حكتـه عن أسلافنا حاملوه

أن رسـول الله في مجلـس ... قال ـ وقد حفت به حاضروه:ـ

---

(١) حديث: لا وان كنت.. الخ رواه ابو داوود.

(٢) حديث:اطلبوا الخير.. الخ رواه البخاري في التاريخ. وهو حديث حسن كما في الجامع الصغير.

اذا سألتم أحدا حاجـــــــةً فالتمســوها مـن حسان الوجوه

وقال آخَــــــرُ:

سل الخير أهلَ الخير قدماً ولا تسل فتىً ذاقَ طعـــم الخير منذ قريب

ولآخر:

إذا ما رماك الدهر بالضيق فانتجع قديمَ الغنى في الناس إنك حامده

ولا تطلبنَّ الخيــر ممـــــن أفــــاده حديثاً ومَن لا يورث المجدَ والده

ولمحمود الوراق:

اسأل العرفَ إن سألت كريمـــاً لم يزل يعرف الغنى واليسارا

فقليل الشريف يُكسب مجـــداً وكثيـر الوضيع يكسب عارا

واذا لم يكن من الذل بـــــدٌّ فالــق بالذلّ إن لقيت الكبارا

ليس اجلالك الكبيرَ بـــذلٌّ إنمــا الذل أن تجـــلّ الصغارا

أما ما ورد من ذمه فقد جاء الشرع بذم السؤال والتنفير منه، ومدح التعفُّفَ ورغّبَ فيه فقال تعالى في مقام الثناء على من لا يسأل الناس شيئاً: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1]. وفي الحديث عن أبي هريرة: «من سأل الناس أموالهم تكثُّراً[2] فإنما يسأل جمراً فليستقلّ أو ليستكثِر»، وفيه: «ما يزال الرجلُ يسأل الناسَ حتى يأتيَ يوم القيامة وليس في وجههِ مزعةُ لحم»[3]، وفيه أيضا «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللهَ وليس

(١) البقرة: الاية ٢٧٣.

(٢) أي ليكثر ماله لا للاحتياج.

(٣) مزعة: أي قطعة. قيل معناه ياتي يوم القيامة ذليلا ساقطا لا وجه له عند الله. وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم فيه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه.

في وجهه مزعة لحم» . روى الأحاديث الثلاثة مسلم؛ وفيه أيضا: «ان المسألة لا تحل الا لثلاثة: لذي فقر مدقع[1] أوغُرْمٍ مُفظع أو جائحةٍ»[2]؛ وقال:«ان الصَّفا الزَّلاَّلَ الذي لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع»[3].

وقد قال لقمان لابنه: يا بني إياك والسؤال فإنه يُذهب ماء الحياء من الوجه، واعظم من هذا استخفاف الناس بكَ. وقال أكثم بن صيفيٍّ: أفضل من السؤال ركوب الأهوال. وقال: كل سؤال وإن قلّ أكثر من كل نوال وإن جل.

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:

لا تحسبنّ الموت موت البلى   لكنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موتٌ ولكنّ ذا   أشرف من ذاك لذلّ السؤال

ومما ينسب الى الشافعي[4]:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله   عوضاً ولو نال الغنى بسؤالِ
واذا السؤال مع النوال وزَنْتَه   رجح السؤالُ وخفّ كل نوالِ

ولبعضهم:

بلوت الناسَ قرناً بعد قرن   فلم أر غيرَ ختال وقال
ولم أر في الخطوب أشد وقعا   وأصعب[5] من معاداة الرجال

(١) مدقع: ملصق بالدقعاء اي التراب. اي لم يترك للانسان شيئا يبسطه غير التراب.

(٢) أي لا تحل الا لثلاثة: من أصابته فاقة حتى يصيب قواما من عيش، أو من تحمل حمالة حتى يصيبها ثم يمسك، أو من اصابته جائحة اجتاحت ماله، حتى يصيب قواما من عيش. وما سوى ذلك يعد سحتا، أي حراما.

(٣) حديث: ان الصفا .. الخ ذكره في الجامع الصغير.

(٤) وقيل البيتان للكاتب علي بن ثابت.

(٥) في نسخة: أمضى.

وذقت مرارة الأشياء طـــــراً   فما شيءٌ أمــــــرّ من السؤالِ

ولآخـــر:

أعزّ الناس نفسا من تـــــراه   يُعــــز النفسَ عن ذُلّ السؤال
ويقنع باليسير ولا يبالــــــي   بفضــــــل فات من جاه ومال
فكم رقّت ودقّتَ واسترقّت   فضـــولُ العيش أعناقَ الرجالِ

ويقول آخرُ:

دع المطامع واعلم أن ّصاحبــها   مـــن التملق في ذُل وفي خجــلِ
قد قيل أحرفه تبدو مجوفـــةً   كجوف ذي طمع في الشبه والمثـل

وقال أعرابي:

علام سؤال الناس والرزق واسع   وأنت صحــيح لم تخنكَ الأصابـع
وفي العيش أوطارٌ وفي الأرض مـذهب   عــــريض وباب الرزق في الأرض واسـع
فكن طالباً للرزق من رازق الغنــــــى   وخــــلّ سؤال الناس فالله صانـع

وقد اختلف المالكية في حكم السؤال: فمنهم من قال بمنعه ومنهم من قال بالكراهة. ومن قال بوجوبه لضرورة دينية أو دنيوية. وندبه لمشقة دون الحاجة. ومن قال بإباحته لمن لم يكن له شيء. ومشهور مذهب الشافعية جوازه. وحملوا ما ورد من ذمه على سؤال الزكاة من ليس مستحقا لها. وقد قال النووي في شرح مسلم: "اتفق العلماء على النهي عن السؤال من غير ضرورة"، قال: واختلف أصحابنا في سؤال القادر على الكسب على وجهين، أصحهما التحريم؛ والثاني يجوز مع الكراهة بشروط ثلاثة: أن لا يُلحَّ في الطلب، ولا يُذل نفسه زيادة على ذل نفس السؤال، ولا يؤذي المسؤول. فإن فقد شرط من

ذلك حرم. وهذا فيمن يسأل لنفسه، وأما اذا سأل لغيره، فالذي يظهر أيضا أنه يختلف باختلاف الأحوال[1]. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقول الناظم «تمّتْ هنا نصيحتي إياكَ» بهذا الشطر المؤذن بالنهاية: أكملَ رحمه الله نصيحته إكمالاً بليغاً حيث بدأ منظومته بقوله: «نصيحةٌ من والدٍ حَفيّ»، وختمها بقوله «تمت هنا نصيحتي اياك»، لا يخفى ما في ذلك من ربط أول النظم بآخره الذي يُعَبَّر عنه ـ اذا كان لفظيا ـ برد العجز على الصدر الذي هو من المحسنات اللفظية البديعة، مع ما فيه من المنهجية التربوية، حيث أشعر القارئ أنه بوصفه معلما مخلصاً بمنزلة الوالد الذي يرشد ولده، وهو ـ اي المتعلم ـ بمنزلة الولد، فهو أمامَه يخاطبه منذ البداية حتى النهاية خطاب الحاضر بلفظ النصيحة، مما يستدعي من القارئ الإصغاء وقبولَ النصيحة.

فالنصيحة التي هي أساس الدين، وهي شأن الرسل مع قومهم، والمعلمين مع غيرهم، أول ما يقرع سمع قارئ هذه المنظومة وآخره ايضا، مما يلفت انتباهه لما أودع فيها. فإن عمل بها وتحلى بما تضمنته من مكارم الأخلاق، وأئتمر بما دعت اليه من فضائل البرِّ، فقد سعد وظفر بمناه. والا فقد فرَّط في ذلك، واستحقَّ على نفسه الندم، إذ بيَّن له الحقَّ ومهَّد له سبيل العمل به وذلك مبلغ جَهده ومنتهى نصحه. فالنصيحة هي مجهود الناصح الذي يجب عليه، وتقبُّلُها واجب المنصوح، قَبِل أو لم يقبل. فلسان حال الناظم منشدة قول الشاعر:

ولقد نصحتك ان قبلت نصيحتي   فالنصح أغلى ما يُباع ويُوهب

وهذا آخر ما نكتبه من هذا التعليق المبارك ـ إن شاء الله تعالى ـ جعلَه اللهُ

(١) راجع: فتح الباري ، ج: ١٠/ ص: ٤٠٧ .

مَفتتَحاً بخُلوصِ النية، ومُختتَماً بحصول الأمنيّة، خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً مُوصِلا الى جنة النعيم. واللهَ الكريمَ أسأل ـ متضرعاً إليه ـ أن لا يؤاخذنا بما نرتكبه من ضَعف إخلاصنا وسيئ أعمالنا، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولشيوخنا ولكل من له حقٌّ علينا، مغفرةً شاملةً وعامّةً، وأن يختم لنا بالحسنى. ءامين.

وءاخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكان الفراغ من تسويده يوم الثلاثاء ١٩ من رمضان سنة ١٤٠٩ هـ / موافق: ٢٥ ابريل (نيسان) سنة ١٩٨٩ ميلادية.

نظم الشيخ حماد بن ألمين

في نصيحة أبناء المسلمين

بُنـيّ إنّ البـرّ شـيءٌ هَيِّـنْ ... دُونَـكَ مِـنـهُ ذا ألـذي أبيّـنْ
نَصيحَـةٌ من والـدٍ حَفِـيٍّ ... بِكَ ـ هُديتَ الرُّشدَ مـن بُنَـيّ ـ
شَمِّـرْ إلى مَكارِمِ الأخـلاقِ ... خالِصَ الاعمَالِ مِنَ النِّفـاقِ
لأدَبَ ، الأدَبَ .. ثُـمَّ الأدَبَـا ... وهُـوَ أنْ تَـبَـرَّ أمّـاً وأبَـا
والعَـمَّ والعَـمَّـةَ والأخَ الكَبـيـرْ ... والشَّيْخَ، إنَّ الشيخَ بالبرِّ جَديـرْ
والخـالُ فيـهِ لَكَ مِنْ كِفَـايَـةْ ... {ءَاوى إِلَيْـهِ أَبَـوَيْـهِ..} ـ الآيَـةْ
هُـوَ الّذي منهُ تَنالُ الْمَـفْخَـرَا ... قَـالَ الزُّبَـيْرُ: «مَنْ أَرادَ».. الأثَـرا
وكُـلُّ مَـنْ سَمَا عليكَ تُكْرِمُـهْ ... وكُـلُّ مَنْ صَغُـرَ عَنْـكَ تَـرحَمُـهْ
أمَا رَوَيْتَ، قِـدْماً أو حَـديثـاً، ... «ولا تَـزَالُ أُمَّـتي..» ـ الحـديثا؟ ـ
ولاَ تكُـنْ عَلَى المَـوَالِي فاحِشَـا ... واحْـذَرْ عَلَى الْحَقيرِ أنْ تُنَاقِشَـا
وإنْ إلَى النَّـادِي انْتَـدَيْتَ فَلْتَـكُنْ ... عَنِ الخَنَى أصَمَّ، لِلْخَيْرِ فَطِـنْ
وإنْ يَخُوضُوا في الهُدَى فانْتَبِهَنْ ... ولاَ تُصَـاخِبَـنْ ولاَ تُقَهْـقِـهَنْ
والصَّبْـرَ، فالصَّبْرُ مَرِيرُ الْمُزْدَرَدْ ... مُـدْمِنُـهُ حَـرٍ بِنَيْـلِ ما قَصَـدْ
«أخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ»..رَوَوْهُ، وارْتَضِي ... «رُمْتَ الْمَعالي فامْتَنِعَنْ» لِلْـرَّضِي
وإنْ أسَـا وأحْسَـنَ ابْـنُ العَـمِّ ... فَانْشُدْ له:«إذا احسَنَ ابْنُ العَمِّ»
بِالشَّيْءِ جُـدْ عَلَى العَشِيرِ عِفَّـا ... عَنْ شَيْئِهِمْ، وعَـنْ أذاهُـمْ كُفّـا

«لَسْتُ لِقَوْمِي..» لِلزُّبيدي أَنْشِدِ ثُمَّ إلى الحِلْمِ ازْدَلِفْ لِتَرشُدِ
فالحِلمُ خيرُ ما ارْتَداهُ السَّيِّدُ «لَنْ يُدرِكَ المَجْدَ..»لِذاكَ يَشهَدُ
فازْدَنْ بِه، فالحِلمُ زينُ الظُّرَفَا والعِلْمُ نِعمَ المُقْتَنى والمُقْتَفى
طَلَبُه فَريضَةٌ، وأَفْرَضُهُ عِلْمُ مُهِمِّك. بِهِ ابْدَأْ تَقبِضُهُ
فَقُوتُهُ الفِقْهُ، ومِلْحُهُ الذي يُصلِحُهُ: النَّحْوُ، جَهُولَهُ انْبِذِ
وأُسُّهُ .. إدَامُهُ .. تَحْقِيقُهُ: سِيرةُ خَيْرٍ واجِبٍ تَصْديقُهُ
لَهُ تَغرَّبْ، وتَواضَعْ، واتَّبِعْ وجُعْ، وهُنْ،واعْصِ هَوَاكَ، واتَّرِعْ
حتى تَرى حَالَكَ حالَ المُنشِدِ: «لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصَرتْ تَخَدُّدي»

واقْصِدْ به وجْهَ الذي أَنْشَاكا ولا تُمارِ فيهِ مَنْ نَاوَاكَا
لِلضَّيْفِ هَيِّئْ مَنزِلاً رَحيبا ولاقِيَنْهُ البِشْرَ والتَّرحيبا
عَنْه اكْتُمِ الأكْدارَ والمَصائبْ وازْجُرْ أَهَالِيكَ عَنِ التَّصاخُبْ
إلى مَسيرِه. وشَيِّعْ، زَوِّدِ بِما تَيَسَّرَ. وفي السُّؤْرِ ازْهَدِ
واخْدِمْه نفسَكَ، رُوِي أَنَّ الخَليلْ أُوحَى بِذَا إليهِ رَبُّهُ الجَليلْ
وأَجْمِلْ إنْ أَرَدْتَ أَنْ تَمولا "إجْمالَ مَن تَجمَّلاً تَجَمُّلا"
فإنْ أَبَتْ عنكَ فأنتَ الأعلى لِيَهْنِكَ الإبَا وهِيَ النُّزْلَى
قَولُ الزَّمَخشَري: «ومَنْ أَفلحَ»لا تَعدِلْ بِهِ فهوَ يُضاهي المَثَلا
أَوْ سَاعَدَتْكَ، فَاقْتَصِدْ في المالِ واعْدُ عَنِ الشُّبَهِ لِلْحَلالِ
واصْرِفْهُ في حُقُوقِهِ مُمْتَثِلا لِقَولِهِ سُبْحَانَهُ: «ولا... ولا»
قَبْلَ السُّؤالِ اسْخُ لِمَنْ أَتاكا وإنْ يَكُنْ عَجِلَ فاسْتَعْطَاكا
فَهَلْ جَوابُ ‹هَاتِ› غيرُ ‹هَاكا›؟[1] تَمَّتْ ـ هنا ـ نَصيحَتي إيَّاكا.

***

فهرست المواضيع

هذا الكتاب

هذا أول شرح برز على منظومة العلامة الشيخ حمادُ بن المين المجلسي الموريتاني. وهي منظومة مقتضبة في لفظها وحجمها، عظيمة في معناها ومغزاها، طالما لقّنها الآباء للأبناء ودرّب عليها الأكابر الناشئة.. لما حوت من جزيل التوجيه، وأودعَتْ من عظيم الإرشادِ ولطيف التنبيه..

***

والحق ان هذا الشرح الذي بين ايدينا هو، إضافةً الى ذلك، مَغنَمٌ نادرٌ وكنزٌ زاخر. ليس لجلالة مضمونه وجزالة لفظه فحسب؛ ولكنه فوق ذلك كتابٌ غيرُ عادي، من عدة وجوه، أولها: ان مُصنفَه ليس مؤلِّفاً ولا كاتباً عاديا.. بل هو عالِمٌ جليل مشتغلٌ بتدريس العلم وخدمة طلبته على رأس واحدةٍ من اعظم واعرق المحاظر الموريتانية (محظرة «لغريوه» - التي هي امتداد لسلسلة محاظر آل ابي احمد المجلسيين).

وثانيها: انه - حسب اصله المنظوم - خلاصةٌ نقية وصفوةٌ جامعة في الآداب الرفيعة، والأخلاق الحسنة، والعادات الحميدة، والتقاليد النبيلة - باسمى المقاييس الشرعية والإنسانية - لما ينبغي ان يكون سلوكَ الفردِ في نفسه، وعلاقاته في اسرته ومجتمعه؛ على نحوٍ مبسط ومقربٍ من الواقع، مستمدٍ من الأدلة والأحكام الشرعية، والأشعار الجزيلة، والحِكَم والأقوال المأثورة؛ مستندٍ على القدوةِ الحسنة والإثارةِ التاريخية الحية.. فجاء موسوعة علمية وأدبية واجتماعية جامعة ، ولطيفة في نفس الوقت..

***

ومنتهى القول انه اوضح معاني نصيحة حمادن، وكشف ما تضمنته ابياتها الوجيزة، وبسط ما طوته الفاظها البليغة.. فجاء - بحمد الله - هذا الكتاب منهاجاً للناشئين والراشدين ودليلاً للمُرَبين والمتعلمين ومَرجعاً فريداً للمرشدين، وزاداً وافراً للواعظين المصلحين في كل مجتمع اسلامي.